محمد حسنين هيكل

الحل والحرب!

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

الحل والحرب!

محمد حسنين هيكل

الحل والحرب !

- التسابق وراء السراب الى جنيف لن يصل الى نتيجة في الظروف الراهنة
- السلام الذي ضاع لن يعود بغير الإستعداد للقتال مرة أخرى
- كارتر وكيسنجر ... وازمة الشرق الأوسط وفلسطين

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر
ص . ب ٨٣٧٥
بيروت - لبنان

الطبعة الثانية ١٩٨٢

الطبعة الثالثة ١٩٨٣

المقـــدّمة

هذه مجموعة الاحاديث كتبتها في الفترة ما بين بدايات سنة ١٩٧٦ وبدايـات سنة ١٩٧٧ ، وهي ليست كل ما كتبت في هذه الفترة وانما هي مجرد نمـاذج منه، فكرت ثم ترددت ثم اقدمت ـ ولعلي اقول تجاسرت ـ فوضعتها بين دفتي كتاب !

والسبب في هذه المشاعر المتعارضة انني أريد لهذه الاحاديث مجتمعـة ان تروي قصة ، وفي نفس الوقت فانا لا اريد لهذه القصة ان تضيف مشكلة الـى مشاكل ، ومع ذلك ومن ناحية اخرى ـ وبصرف النظر عن القصص والمشاكل ـ فقد كنت اتمنى أن أجد في متناول كل يد يهمها الامر ملفا مختصرا وجاهزا يمثل وجهة نظري في حوار دار على أرضنا العربية وتعرض لبعض قضايانا الراهنة وخصوصا أزمة الشرق الاوسط في هذه المرحلة بالذات !

ولم يكن في استطاعتي أن أمثل دور القردة الثلاثة في اللوحة المشهورة احدها يغطي عينيه فلا يرى ، والثاني يغطي اذنيه فلا يسمع ، والثالث يغطي فمه فلا ينطق !

وهكذا اشتركت في الحوار ملتزما قدر ما استطيع بادبه كما ينبغي ان يكون ، وبالموضوعية لا تنحرف بها الاهواء ، وباستقامة القصد لا تتجاوز الحـد أو تتعداه ٠

ولست أعرف اذا كنت نجحت فيما التزمت به أمام نفسي او انني لم انجح ، ولكني وجدت ان بعض الذين تصدوا للرد على مشاركتي في الحوار قد تركوا ما عرضت له من اجتهادات تحتمل الصواب والخطأ ، وانصرفوا الـى شيء آخر ٠

انقلب الحوار الى معركة لا مبرر لها ، فضلا عن انني لم اسع اليهـا ، ولا تصورت ان شيئا مما قلته يستوجبها !

ولقد ادهشني ان بعض الذين قلبوا الحوار معركة ـ في صحف القاهرة ـ لجأوا الى اسلحة لم يعد لها وجود في العصر الحديث وفي عوالمه المتمدنة ، او هكذا كنت اظن ، حتى سمعت اخيرا ـ وعلى حد ما نقلت برقيات وكالات الانباء العالمية ـ أن الجنرال موبوتو حاكم زائير استعان بجماعات من قبائل الاقـــزام في غابات نهر الكونجو مشهورين برمي السهام المسمومة ، وذلك لكي يستخدمهم في المعارك الدائرة الان في اقليم « شابا » كاتنجا سابقا !

ولست اعرف ماذا فعل الاقزام من رماة السهام المسمومة في « شابا » ؟

ولكني اعرف ان ضفاف النيل بعيدة عن غابات الكونجو بالاف من السنيـن الحضارية ، وهكذا فان حملة الرمي بالسهام المسمومة في القاهرة بدت شيئـا غريبا يثير الدهشة ولا يثير اي شعور اخر غيرها !

ولقد سألت نفسي اكثر من مرة :

ـ لماذا لا اغضب لكل هذه الاساءات التي توجه الي بغير حق ـ فيما اظن ؟

وكان جوابي لنفسي مرة :

ـ لاني اعرف ان الشعب المصري بصفة عامة والقارىء المصري بصفـــة خاصة انكى عشرات المرات من كل هؤلاء الذين يتصورون انهم يخدعونه بحجب الحقائق عنه !

ثم كان جوابي لنفسي مرة اخرى :

ـ لاني اعرف الى اي مدى استحكمت ازمة التصديق واتسعت الفجوة بين كل ما يقال وكل ما هو واقع !

ثم كان جوابي لنفسي ثالثا :

ـ ربما لاني اعرف رماة السهام المسمومة ، ومعرفتي بهم تعصمني مـــن الغضب لاي شيء يصدر عنهم . بل لعلي اقول انني بمعرفتي بهم اعتبر شتائمهم في مديحا لي ، كما ان اتهاماتهم ضدي اوسمة على صدري !

وما اظنني استحق هذا المديح كله ولا هذه الاوسمة جميعها ، ولكنه الحـظ وحده !

السبب هو ما كتبت في هذه المجموعات من المقالات ، وبالذات الأخيرة وهي مجموعة « الموقف التفاوضي العربي » ٠

□

لعلي اضيف الى هذه المقدمة ملاحظة اخرى اراها ضرورية ، تلك انه من السهل تصوير هذه المجموعات من المقالات بين دفتي هذا الكتاب على انها حملة ضد سياسة الولايات المتحدة ٠

وابادر الى القول بان ذلك ليس هدفي ـ كما انه ضد تصوراتي لحل ازمة الشرق الاوسط ، بل ضد تصوراتي في التعامل العربي مع موازين القوة في العالم ٠

والحقيقة ان ما كتبت لا يتعدى نقد هذه السياسة وبنفس الطريقة التي تعرضت بها في ظروف اخرى لنقد سياسة الاتحاد السوفيتي ، مع تحفظ لا بد من الاشارة اليه ٠

ذلك انني لا استطيع ان اسوي بين طرف دولي اعطانا سلاحا استخدمناه في تحرير بعض اراضينا ، وبين طرف دولي اعطى لاسرائيل سلاحا استخدمته في احتلال هذه الاراضي !

وليكن ان الاتحاد السوفيتي اعطانا من السلاح اقل مما طلبنا ، فذلك افضل من الولايات المتحدة التي اعطت لاسرائيل كل ما طلبته ٠

واعرف ان الاتحاد السوفيتي لم يعطنا سلاحه هياما في سواد عيوننا ، فالاتحاد السوفيتي قوة عظمى الى جانب كونه عقيدة عالمية ، وكقوة عظمى فان الاتحاد السوفياتي له مصالحه ، وكعقيدة عالمية فان الاتحاد السوفيتي له مقاصده ـ ومع ذلك فاي الاطراف الدولية في عالمنا يتصرف بغير مصالحه ومقاصده ؟

بل لعلي اقول ان ما وجهته من نقد للولايات المتحدة في هذه المجموعات من المقالات كان له هدف ابعد من مجرد نقد السياسة الامريكية ، ذلك لاننا لا نستطيع ان نوجه نقدا الى طرف دولي يتحرك لحماية مصالحه ومقاصده كما يحددها هو لنفسه وليس كما يحددها له الآخرون ٠٠٠ ذلك حقه بل هو واجبه ٠

وكان هدفي ـ وهو ابعد من مجرد نقد السياسة الامريكية ـ ان يكون ما اقول تحذيرا للطرف العربي ٠٠٠ او حتى لفت نظر ٠

تحذير ـ او لفت نظر ـ بان يكون تعامله مع الولايات المتحدة في حدود

دورها الحقيقي وليس اكثر ، وعلى اساس ادراك صحيح لمصالحها ومقاصدها ، وليس على اي اساس آخر ·

ولست اجادل في ان للولايات المتحدة دورا يستحيل تجاهله ، وقد كنت واحدا من الذين دعوا مبكرين الى ضرورة ادخال الدور الامريكي في معادلات حل ازمة الشرق الاوسط ولو عن طريق « تحييده » · وفارق كبير بين فرض « التحييد » وطلب « الحياد » ، لان الولايات المتحدة لا تستطيع ان تكون طرفا محايدا بين اسرائيل وبيننا لانها طرف منحاز !

والغريب ان بعض الذين عارضوني في امكانية تحييد امريكا انتهوا الى تحييد الاتحاد السوفيتي !

والاغرب ان هذا البعض انتهى من الاعتماد على الاتحاد السوفيتي باعتباره الصديق الوحيد لنا ـ كما كان يقال قبل سنوات ـ الى الاعتماد على الولايات المتحدة باعتبار انه لم يعد هناك دور في الازمة غير دورها ـ كما يقال الآن !

وذلك وضع مخيف ·

كاننا لا نستطيع غير الاعتماد اعتمادا مطلقا على طرف واحد ، هكذا فاننا اذا هجرنا موسكو ـ حيث « الصديق الوحيد » ـ لم نلجا لغير واشنطن ـ حيث « الدور الوحيد » ـ والحقيقة انني لست من انصار هذه النظرية ، ذلك انني واحد من الذين يعتقدون ان الصديق الوحيد هو « ارضنا » ، وان الدور الوحيد هو « قوتنا الذاتية » ، وبهما معا نستطيع ان ندير علاقاتنا بالعالم وبالتاريخ !

□

ماذا اريد ان اقول في هذه المقدمة ايضا ؟

لا شيء الا ان استاذن ـ اخيرا ـ في ان اضيف في النهاية الى هذه المجموعة من المقالات عن « كارتر وكيسنجر وازمة الشرق الاوسط » ملحقا اضافيا يحتوي على مقال كتبته اخيرا وفي اعقاب هجمة الرماة بالسهام المسمومة على طريقة قبائل زائير ·

وفي حين انني حاولت التزام الموضوعية في صلب الكتاب كله ، فانني اخشى ان ملحقه الاضافي جاء ذاتيا على نحو لم اكن اتمناه وفي نفس الوقت لم تكن لي حيلة فيه . فقد كان لا بد من وضع النقط على بعض الحروف ··· احتراما للحقيقة واحتراما للناس ··· كل الناس !

المجموعة رقم (١)

إلى أين من هنا ؟

(كتبت في بداية سنة ١٩٧٦)

الحديث الأول

الى اين من هنا ؟

الى اين تسير بنا ازمة الشرق الاوسط ؟ ··· الى اين نسير بها ؟ ··· الى اين تسير بنا وبها تطورات الحوادث مع الايام والاسابيع والشهور القادمة ، وربما السنين ؟

الى اين ؟

هذه الاسئلة كلها تبدو للوهلة الاولى تطاولا على الغيب تحفه المحاذير من جانب ··· ولكن هل هذا الذي يتبدى امامنا للوهلة الاولى صحيح ؟

سؤال مهم ··· وهو مفتاح لاسئلة اهم ، طرحناها قبله !

السنا الان في وضع اتاح لنا ، بفضل علوم الارصاد الجوية ، ان نعرف من اليوم احوال الطقس من حولنا غدا وبعد غد ؟

نتلقى معلومات من النطاق الجوي المؤثر علينا : درجات الحرارة والبرودة فيه ، بؤر الانخفاض وكتل الضغط المتحركة ، اتجاهات وسرعات الرياح السائدة، ثم يجري الخبراء مجموعات من الحسابات السريعة ، وتصبح خريطة الطقس المنتظر غدا او بعد غد امامهم واضحة مقروءة ·

اليس ذلك ما يحدث ؟

ذلك فعلا ما يحدث في الطقس ··· وهو ايضا ما يحدث في السياسة !

□

اي اننا نستطيع ان نستقريء المحتمل سياسيا بنفس الطريقة التي نستطيع بها أن نستقريء المحتمل طقسيا ـ اذا جاز التعبير ·

وفي السياسة ـ كما في الطقس ـ فان العوامل المؤثرة في احداث الغد يمكن رصدها من اليوم ، ومتابعة حركتها المتجهة الينا دون أن يكون في ذلك تطاولا على الغيب ·

وفي حسابات الارصاد الجوية فان الخبراء ، بعد اجراء حساباتهم ، يتحفظون دائما عندما يتنبأون باحوال الطقس لفاجأة تقع في اللحظة الاخيرة ، ولكن المفاجات لا تقع كل يوم ٠

وفي حسابات الارصاد السياسية ، فان الذين يتعرضون لها عليهم ـ ايضا ـ ان يتحفظوا لمفاجاة تقع في اللحظة الاخيرة ، ولكن المفاجات ـ في السياسة ايضا ـ ليست قانون كل يوم !

وكان للرئيس الامريكي الاسبق « جون كنيدي » قول ماثور نقل عنه بعد ان قضى في البيت الابيض قرابة ثلاث سنوات على قمة السلطة في اقوى بلد في العالم وفي التاريخ ٠٠٠ كان يقول :

ـ لقد اكتشفت ، بعد تجربة طويلة هنا في البيت الابيض ، ان كل ما كنا نتصوره عن كهنوت اصدار القرارات ، خرافة لا اساس لها ٠

ان كل ما اصدرت من قرارات كان مستندا على معلومات متاحة لكل من يقرا ويتابع ما يجري من حوله ، واستطيع ان احدد النسبة التالية للمعلومات التي اثرت فيما اصدرت من قرارات :

كان ٩٣ ٪ من هذه المعلومات ٠٠٠ معلومات متاحة ومفتوحة وعلنية تحت تصرف كل الناس ٠

وكان ٧ ٪ فقط من هذه المعلومات يجيئني من مصادر سرية ٠

ان القرار السياسي في عصرنا الحديث لم يعد طلسما مغلقا الا امام القلة الحاكمة التي يتاح لها ما لا يتاح لغيرها ٠

ربما كان ذلك صحيحا في عصر مضى قبل عصرنا الحديث بكل ما فيه من اجهزة جمع وبث المعلومات ، ولكنه في عصرنا الحديث ليس صحيحا ٠

الان ، في استطاعة اي مواطن مستنير ان يخمن من اليوم ما سوف يكون عليه قراري من هنا ـ البيت الابيض ـ في الغد وبعد الغد ، في امر اي مشكلة من المشاكل ، وفي اكثر من تسعين في المائة من الحالات سوف يكون تخمينه صحيحا » ٠

□

ويرى عدد من اساتذة السياسة الحديثة وخبرائها اننا نستطيع ان نرصد مسار اي مشكلة او ازمة دولية ، ونتصور تطوراتها المقبلة غدا وبعد غد ، اذا نحن توصلنا الى رسم « صورة حركة » لها تشمل ما يلي :

١ ـ توصيف علمي دقيق للمشكلة او الازمة : اصولها ، وجذورها ، ومراحل نموها حتى وصلت الى ما وصلت اليه ٠

٢ ـ تحديد مفصل لكل الاطراف الداخلة في عملية صنع اي قرار متصل بالمشكلة او الازمة ، بما في ذلك القوى الدولية والعناصر الداخلية ، ويشمل ذلك التكوين الطبقي والفكري والسياسي والنفسي للقيادات التي يصدر القرار عنها وباسمها ٠

٣ ـ الاهداف القريبة والبعيدة التي تريد اطراف المشكلة او الازمة تحقيقها من خلال عملية ادارة الازمة ، سواء كانت هذه الاهداف معلنة تنطق بها الاقوال ، أو غير معلنة تفصح عنها التصرفات العملية واليومية ٠

٤ ـ موازين القوة بين هؤلاء الاطراف في المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية ، وما تتيحه هذه الموازين من حرية في الحركة والمناورة ٠

٥ ـ المناخ المحيط بالمشكلة او الازمة محليا واقليميا ودوليا واعلاميا ودرجة الاولوية التي تحظى بها المشكلة او الازمة في الاهتمام العالمي العام ٠

هذه هي العوامل الخمسة في « صورة الحركة » بالنسبة لاي مشكلة او ازمة في الدنيا الان . وربما كانت هناك عوامل غيرها فاتني حصرها وان كنت اظن ان هذه العوامل الخمسة هي العوامل الرئيسية المؤثرة في اي « صورة حركة » لمشكلة او ازمة ٠

□

ولست اريد ان اقوم هنا والان بعملية تطبيق كامل لهذه العوامل الخمسة على ازمة الشرق الاوسط ، احاول عن طريق ذلك ان ارسم « صورة حركة » لها ، فذلك بحث طويل ، لا هو مكانه ولا هو مجاله هنا والان ، وربما كان هناك غيري اقدر على القيام به ، واولى احاطة وعلما ـ ولكن هدفي اليوم ان امس بعض النقط التي اراها اساسية بالنسبة لتصوراتنا عن مسار ازمة الشرق الاوسط غدا وبعد غد ٠

والنقط التي اريد ان امسها هي كما يلي :

٠٠٠ اولا ـ لقد تم فيما اظن توصيف ازمة الشرق الاوسط توصيفا كافيا ٠

الازمة في صميم الصميم منها هي « ازمة شعب فلسطين وارضه التي هي جغرافيا وتاريخيا بمثابة جسر يصل ما بين شعوب الامة العربية وارضها في المشرق وشعوب الامة العربية وارضها في المغرب » ٠

ونزول قومية غريبة ـ علي فرض ان الصهيونية حركة قومية ـ علي هذا الجسر الحيوي بالنسبة لشعوب الامه العربية وارضها ، يصنع مازقا تاريخيا يخطيء هؤلاء الذين يتصورون أو يتوهمون وجود حل سهل له ·

واتذكر انني في حوار مع الدكتور « هنري كيسنجر » وزير خارجية الولايات المتحدة الامريكية ، قلت لـه :

ـ انك هنا تواجه شيئا يختلف عما سبقت لك مواجهته في مشكلة الامن الاوروبي ـ التي مهدت للوفاق ـ وفي مشاكل جنوب في شرق آسيا واولها مشكلة فيتنام ·

هناك كنت تجري عمليات جراحية عادية ·

مشكلة الامن الاوروبي كانت في حقيقتها هي المشكلة الالمانية ··· وهناك كانت المسائل بسيطة . ففي « المانيا الشرقية ! و« المانيا الغربية » كان هناك المان علي جانبي الخطوط من الناحيتين ··· كان النسيج واحدا ، وعندما قطعت ووصلت ولحمت فقد كان الشفاء ممكنا ·

وفي مشاكل جنوب شرق اسيا ، كانت مشكلة « فيتنام » اخطر المشاكل وابرزها . وهناك ايضا كانت المسائل بسيطة . ففي « فيتنام الشمالية » و« فيتنام الجنوبية » كان هناك « فيتناميون » علي جانبي الخطوط من الناحيتين ··· كان النسيج واحدا ، وكان الالتحام بعد القطع والوصل ممكنا وطبيعيا ···

اما هنا في أزمة الشرق الاوسط ، فانت تواجه مشكلة مختلفة تماما ·

اذا كان ما قمت به قبل الان عمليات جراحية سياسية عادية ، فانت هنا تواجه ـ لاول مرة ـ جراحة زرع أعضاء ·

انت تريد ان تقطع وتصل وتلحم في منطقة جسما غريبا عليها!
اقرب شيء الى ما تحاوله انت الان هو ما حاوله الدكتور « كريستيان برنارد» في عمليات زرع القلوب والاعضاء في جنوب افريقيا !

ولقد عاني الدكتور « برنارد » من مشكلة رفض الجسم الاصلي للعضو الغريب الذي اراد زرعه فيه ·

وهذا ما تواجهه انت لاول مرة في تجربتك مع الجراحة السياسية ·

انت لا تحاول جراحة عادية ، وانما تحاول بالجراحة زرع عضو غريب على جسم اصيل ··· وانا لا اقطع مسبقا بالفشل ، ولكني احاول ان الفت نظرك إلى صورة الحقيقة ··· واحاول تصويرها بصدق امامك » ·

وعندما قال لي الدكتور « كيسنجر » يومها انه لم يبدا بعد بفتح ملف

القضية الفلسطينية ، قلت له :

ـ اذن فانا استأذنك أن أتشاءم في كل ما يتعلق بما تحاول القيام به ، لانك تحاول بعيدا عن صميم المشكلة ! » ٠

ومضت الايام والشهور والسنين ، واثبتت التطورات كلها انه لا يمكن أن يكون هناك توصيف دقيق لازمة الشرق الاوسط الا بانها « شعب فلسطين وارضه على الجسر الجغرافي والتاريخي بين عرب آسيا وعرب افريقيا » ، بل لقد تكفلت ثورة جماهير الضفة الغربية أخيرا بازالة اخر لبس باق حول هوية وشخصية وانتماء الجماهير الفلسطينية التي عاشت في « دولة اسرائيل » منذ قيامها سنة ١٩٤٨ ، واكدت هذه الجماهير بالطريقة التي واجهت بها سلطات الاحتلال الاسرائيلي ـ بل واكدت سلطات الاحتلال الاسرائيلي بالطريقة التي واجهت بها هذه الجماهير ـ أن الثورة تحت الاحتلال هي جزء من الثورة الفلسطينية العامة التي تتحرك من حول الارض المحتلة ، والتي هي بدورها ، جزء من الثورة العربية الشاملة ٠

شعب فلسطين كله وارضه ، والجسر الجغرافي والتاريخي بين عرب آسيا وعرب افريقيا ٠

هذا هو التوصيف الصحيح للازمة ، وهو توصيف حافل بالمخاطر ، ولكنه الحقيقة ، ولا شيء غيرها !

□

٠٠٠ ثانيا ـ انه في تحديد اطراف الازمة ، او الاطراف المؤثرة على القرار المتصل بها ، فان تطورات الظروف اسقطت اطرافا ، وغيرت ادوار اطراف ، واستبقت في مجال التأثير المباشر ـ ولو للفترة المرئية القادمة والتي يمكن فيها اجراء حسابات الرصد السياسي ـ عددا اقل من الاطراف ٠

● في المجال الدولي مثلا : سقط الدور البريطاني ، وكان في مرحلة من المراحل ضمن أهم الادوار في مسارها ٠

ثم أن الدور السوفيتي في هذا المجال تحدد ـ ولو تاكتيكيا ـ وذلك نتيجة للخلافات التي نشبت بينه وبين مصر . واتصور ان الاتحاد السوفيتي في المرحلة القادمة سوف يكتفي بالمتابعة والمراقبة من موقف موال للعرب عموما ، معتقدا ان مستقبل الظروف سوف ينقله من مجرد الدفاع النشيط الى موقف الهجوم الشامل ٠

ثم ان الدور الامريكي اصبح اكبر الادوار واهمها ، بصرف النظر عما يستطيع هذا الدور ـ عمليا ـ أن يحققه او لا يحققه في المستقبل القريب أو في المستقبل البعيد . ذلك ان الظروف فتحت امامه من السبل ما كان الظن بأنه اغلق دونه في الشرق الاوسط الى الابد ٠

هذا بالنسبة للاطراف الدولية المؤثرة على صنع القرار فيما يتصل بالازمة ·

● فاذا انتقلنا الى الادوار المحلية ، لوجدنا ان الاطراف الباقية في ساحة المواجهة المباشرة ثلاثة ·

مصر ، بحكم وزنها وحجمها ودورها التاريخي وقوتها البشرية والعسكرية ·

ثم سوريا ، التي تزايد تاثيرها في منطقة الهلال الخصيب ، وفي مجموعة علاقاتها بالثورة الفلسطينية وبالاردن وبالاوضاع المتغيرة بعنف في لبنان ★

ثم الثورة الفلسطينية ، التي زاد تاثيرها هي الاخرى بما ظهر من اهمية وجودها على المسرح اللبناني ، وبما تاكد من توجه جماهير الضفة الغربية الى قيادتها في لحظة تاكيد الشخصية والهوية والانتماء الفلسطيني امام سلطة الاحتلال ·

··· ومصر تقوم بحركة سياسية واسعة النطاق تحاول بها استعمال «العامل الامريكي» في التاثير على مسار الازمة ·

··· وسوريا تعزز مواقعها في المنطقة التي تحيط بها ، وتنتظر التطورات ·

··· والثورة الفلسطينية تحولت من مجرد قوة قادرة على الرفض لها حق «الفيتو» على اي قرار ، الى قوة لها حق الفعل ـ خصوصا بعد احداث لبنان والضفة الغربية ـ وأصبح لها ـ الى حد ما لكي نكون منصفين ـ فرصة نسبية في تشكيل القرار

وكانت الثورة الفلسطينية الى وقت قريب محرومة من حق صنع استراتيجية خاصة بها ، وقصارى ما كان لها هو أن تتعلق باستراتيجيات مصر وسوريا وتوازن ذلك بالتعاطف الجماهيري الواسع معها ،وتتحرك تاكتيكيا على هذا الاساس ولكني اظن ان هذا الوضع تغير بعض الشيء وأصبح في مقدور الثورة الفلسطينية أن تمارس ـ نسبيا ـ صنع استراتيجية خاصة بها ، او تشارك ـ الى حد ما ـ في صنع استراتيجية عربية أوسع ·

وهناك بالتاكيد اطراف عربية اخرى قادرة على التاثير في اي قرار يخص الازمة ويتصل بها ، ولكن هذه الاطراف حتى الان تكتفي بالتاثير من بعيد ، كدول البترول مثلا ، او تنتظر ظروفا اخرى اكثر ملاءمة لتاكيد تاثيرها ، كالعراق مثلا·

● فاذا انتقلنا الى الناحية الاخرى من خط المواجهة المحلي لوجدنا ان الطرف الاسرائيلي يقوم الان بدور من أهم الادوار في تشكيل الازمة وفي صنع اي قرار متصل بها ·

بل لعلى أقول صراحة أنني على استعداد للمضي الى ابعد من ذلك ···

★ كتب هذا الحديث قبل التدخل السوري في لبنان . وعلى اي حال فان الموقف السوري عزز امكانياته بهذا التدخل بصرف النظر عن اية اعتبارات اخرى ·

لعلي اقول انه خلال الفترة القادمة ، سنة أو سنتين على الاقل ، فان الطرف الاسرائيلي ، والدور الذي يمكن أن يقوم به ، قد يصبح أخطر الادوار في تشكيل مسار الازمة كلها ، وذلك لاسباب واضحة ،

١ ـ أن الظروف من سنة ١٩٦٧ كشفت طبيعة التحدي الاسرائيلي للعرب واحدثت بلسعة النار يقظة عربية ـ بالوعي احيانا وباللا وعي احيانا اخرى ـ ولربما يقول التاريخ بعد مئات السنين أن انتصار اسرائيل سنة ١٩٦٧ كان بداية النهاية ، لانه كان اكثر مما تستطيع موازين القوى الطبيعية في منطقة الشرق الاوسط أن تتحمله !

٢ ـ أن حرب اكتوبر هزت اسرائيل الى الاعماق هزا ، ونقلتها من مرحلة الدفاع للاحتفاظ بغنائمها الى مرحلة الدفاع عن مجرد وجودها ، لان أهم نتائج هذه الحرب هو انها كانت اشارة الى حقيقة موازين القوى الطبيعية في منطقة الشرق الاوسط ، والى حركتها التاريخية ٠

٣ ـ ان الحركة التاريخية لموازين القوى الطبيعية في منطقة الشرق الاوسط فتحت انظار اطراف اخرين في العالم ، وراح هؤلاء الاطراف يضغطون على اسرائيل لتلائم نفسها اكثر مع موازين القوى الطبيعية في المنطقة ، وذلك وضع اسرائيل في عزلة موحشة عن العالم كله ، أو عن اجزاء شاسعة ومؤثرة فيه٠

٤ ـ أن موازين القوى العسكرية الراهنة والمؤقتة ، تسير في اتجاه معاكس لموازين القوى الطبيعية في المنطقة ، وهذا يخلق خللا مخيفا وغواية خطرة، لان احساس اسرائيل بالتحول التاريخي ضدها ، وبعزلتها عن العالم ، قد يغريها باستعمال موازين القوى العسكرية الراهنة والمؤقتة في محاولة يائسة لوقف حركة التاريخ ٠

٥ ـ ان الاسلحة النووية قد دخلت الى منطقة الشرق الاوسط فعلا ، ودخلتها في الترسانة الاسرائيلية ، ولم يعد ذلك سرا مكتوما ، وانما اصبح سرا ذائعا تحدثت عنه « وكالة المخابرات المركزية الامريكية » نفسها ، وبلسان واحد من اكبر الرسميين فيها قال لمجموعة من الكتاب والصحفيين والاساتذة اثناء اجتماع في مقر هذه الوكالة في « لانجلي » في شهر فبراير الماضي « ان اسرائيل لديها ، وفقا لمعلومات الوكالة ، ما بين اثني عشر الى عشرين قنبلة ذرية » ٠

والاسلحة النووية شبح بشع ٠٠٠ وهي ابشع ما تكون في يد يائسة تشعر ان حركة التاريخ ضدها ٠٠٠ ثم أن هذه اليد محكومة نفسيا بعقد قديمة مما تخلقه النزعات الانتحارية التي يرمز لها في اسرائيل بما يعرف باسم « عقدة الماسادا » ٠

□

بكل هذا الذي قلته ، لم اكن اقصد الى رسم « صورة حركة » لمسار أزمـــة الشرق الاوسط غـدا وبعد غـد ، وانمـا كنت أقصد الى مجرد اعـطاء لمسات سريعـة لـفعل بعـض العوامل المؤثرة ٠

وكنت بهذه اللمسات أريد أن اخلص الى نتيجة محددة مؤداها اننا اذا أردنا أن نقوم بعملية رصد لمسار أزمة الشرق الاوسط ، والى اين من هنا ، وكيـف تسير بنا الازمة وكيف نسير بها ، أو كيف تسير بنا وبها تطورات الحوادث ـ فان عـلينا ان نتوقف امام الاوضاع والظروف والحركة المحتملة لموقف ثلاثـة اطراف بالتحديد من اطراف الازمة المؤثرين عـلى صنع أي قرار متصل بها :

- الولايات المتحدة ٠
- اسرائيل ٠
- الجانب العربي ، وبالذات مصر وسوريا والثورة الفلسطينية ٠

اذا فعلنا ذلك ، او حاولناه باقصى قدر من الموضوعية والدقة ، اذن فاظننـا نستطيـع أن نحسب ـ بغـير مجال لخطأ كبير ـ ما سوف يحـدث غدا وبعد غد٠

في السياسة ٠٠٠

كما في حالة الطقس !!

الحديث الثـاني

في اي محاولة لرصد الطقس السياسي وتطوراته المرتقبةخلال فترة زمنيـــة يمكن حساب تفاعلاتها وبالتالي احتمالاتها ، فان الولايات المتحدة الامريكية هي الان ـ وسوف تظل لسنتين على اقل تقدير ـ اللاعب الدولي الاكثر ظهورا على مسرح الصراع العربي الاسرائيلي !

ولست اريد هنا ان اناقش كيف وصلت الولايات المتحدة الى هذا الدور ، ولا احقيتها فيه بالنسبة لما نعرفه عن رؤيتها الخاصة للصراع ، ولا ما اذا كان ذلك صوابا ساعدنا فيه او خطأ ساعدنا عليه ؟

كل ذلك لا اريد ان اناقشه هنا ، فهو يتعلق بما وقع فعلا ، بينما شاغلـــي الان هو البحث عن المنتظر ومحاولة رصده ، ورسم « صورة حركة » لمساره بقدر ما هو متاح امامنا ٠

□

لكن الصورة لا تكون في اطارها الصحيح اذا لم نحدد منذ البداية مجموعة ضوابط :

١ ـ اذا كان صحيحا ، وهو صحيح ، ان بين الامة العربية وبين الولايات المتحدة الامريكية تناقضا حادا ، فـإن حجم القــوة الامريكيـــة ووسائلهـــا وارتباطاتها يفرض على العرب ان يجدوا اسلوبا خاصا لادارة تناقضهم مــع الولايات المتحدة الامريكية ٠

٢ ـ انه في اوضاع هذا العالم وموازينه فانه لا يمكن ـ ولا يجب ان يتوهم احد امكانية ـ عزل اية واحدة من القوتين الاعظم ـ الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ـ عن اي صراع عالمي ، خصوصا اذا كان صراعا يمس قضايـــا الحرب والسلام ٠

٣ ـ في الشرق الاوسط بالتحديد ، وفي صراعاته وازماته ، فان الولايـات المتحدة والاتحاد السوفيتي تملكان قوة تاثير ضخمة على مثار الحوادث بفعـل اهتمامها الاستراتيجي بالمنطقة عسكريا واقتصاديا وسياسيا ، ثم بحكم مساندة كل واحد منهما لطرف من اطراف الصراع العربي الاسرائيلي ٠

واخلص من هذه الضوابط لاقول بمنتهى الموضوعية :
– ان وجود دور للولايات المتحدة في ازمة الشرق الاوسط حقيقة واقعة سواء اردناه او رفضناه ...

واذا كان الامر كذلك ، فمن الخير ان نريد هذا الدور ولا نرفضه .

والمنطق في ذلك اننا حين « نريده » ولا نتركه يفرض نفسه علينا ، نضعه الى حد ما في نطاق « ارادتنا » ، وبالتالي فان ذلك يعطينا قدرة – ولو نسبية – على تشكيله او على تحديده ، او في اقل القليل على حصر شره وضرره !

ننتقل الان الى محاولة رسم « صورة الحركة » المنتظرة للدور الامريكي .

ونبدأ بخلفية الصورة اولا . وسوف نجد ان هذه الخلفية حافلة بظلال كئيبة تعطينا على الفور انطباعا لا نستطيع الهرب منه ، وهو انطباع يوحي لنا بوضوح اننا اردنا الدور الامريكي في الازمة مع اسوأ ظروف مرت بالولايات المتحدة الامريكية واثرت على قوتها وعلى دورها ، بل واثرت على روحها ذاتها وثقتها بنفسها ... اي اننا اردنا الدور الامريكي في ازمتنا ، وتصادف ذلك مع وقت ازمة امريكية ربما كانت اعمق واعتى من ازمتنا ، على ما يبدو لنا من تعقيداتها ومخاطرها !

والاسباب كما يلي :
١ – ان الحلم الامريكي الذي تصورت شعوب الارض انها لمحته من خلال الجهد الامريكي في الانتصار على النازية في الحرب العالمية الثانية ، ومن خلال بيانات ومواقف فرانكلين وروزفلت في مواجهة الامبراطوريتين البريطانية والفرنسية – هذا الحلم الامريكي فقد عذريته ، وذلك حين ظهر ان الحلم – على فرض انه كان حلما بالفعل – لم يعد له من سند غير قوة القنبلة الذرية اساسا للسلام الامريكي !

٢ – ان الولايات المتحدة اكتشفت – فيما بعد – ما اكتشفته امبراطوريات سبقتها في التاريخ ، وهو ان للقوة المجردة حدودا ، وكان اكتشاف « حدود القوة » بالنسبة للولايات المتحدة تجربة مريرة .

وقد كان اكتشاف الولايات المتحدة لحدود القوة امام ضغط مجموعة من العناصر :

بينها منافسة الاتحاد السوفيتي لها ، خصوصا في مجالات التكنولوجيا غير التقليدية ، وبالذات الصواريخ والاسلحة النووية .

وبينها تصدي حركة الثورة الوطنية لنزعات الهيمنة ، وامتد هذا التصدي على جبهة عريضة من « السويس » الى « سايجون » ومن « سايجون » الى « سنتياجو » .

٣ ـ ان الولايات المتحدة بعد ادراكها لحدود القوة المسلحة ، لجأت الى القوة الخفية عن طريق حرب المخابرات ، ولكن المأساة هي ان الاساليب الخفية تؤثر في روح اصحابها بمقدار ما تؤثر في اجساد من توجه اليهم هذه القوة ٠

وعلى سبيل المثال ، فان القوة الامريكية الخفية استطاعت اغتيال جسد « سلفادور الليندي » في شيلي ، ولكن هذه العملية نفسها اغتالت في روح الشعب الامريكي نفسه شيئا لا يقدر بثمن ، حتى وان كان الثمن حكومة موالية للولايات المتحدة في شيلي بدلا من حكومة متمردة ٠

٤ ـ حين بدا ان « القوة الخفية » ليست كافية وحدها ، فان الولايات المتحدة اقدمت ايضا على ما فعلته قبلها امبراطوريات تواجه مرحلة الانحلال الامبراطوري ، وهو الالتجاء الى سلاح الذهب ، وهكذا راحت حكوماتها تشتري الحكومات بالجملة والقطاعي ، بل وراحت شركاتها الدولية الكبرى ـ نورثروب ولوكهيد وغيرهما ـ تشتري الحكومات ايضا بالجملة والقطاعي !

٥ ـ ان المجتمع الامريكي ، وهذه شهادة حق ، اثبت انه يملك من داخله موارد نفسية واخلاقية هائلة ، ثم ان هذا المجتمع اثبت ان له نظاما ديمقراطيا قادرا على الحركة والتصحيح من الداخل . وكان هذا المجتمع بنفسه وكانت قواه الذاتية هي التي خاضت معارك : ووترجيت التي سقط فيها الرئيس الامريكي ريتشارد نيكسون ـ وتجاوزات وكالة المخابرات المركزية الامريكية التي سقط فيها كل الرؤساء الذين تعاقبوا على هذا الجهاز ، من امثال ريتشارد هيلمز ووليم كولبي ، وحتى الاموات منهم من امثال آلان دالاس ـ وفساد الشركات الامريكية الدولية الكبرى التي جرت محاولة ترويض نزعاتها الوحشية على مرأى من الدنيا كلها ومسمع !

هذه هي الظلال الكئيبة في خلفية الصورة . ومع ان فيها ما يدل على صحة المجتمع الامريكي وحيويته ، الا ان احدا لا يستطيع ان يجادل ان الصراع العنيف بين جراثيم المرض وبين عوامل المناعة في الجسد الامريكي يصيبه في هذه الظروف باعراض حمى انهكت قواه وارهقت حيويته ونشاطه ٠

ولربما قيل بان « امريكا » في طريقها الى الشفاء ، ولكن احدا لا يستطيع ان يقطع : هل يكون الشفاء كاملا ٠٠٠ هل يترك عاهات مستديمة على الروح الامريكية ٠٠٠ وكم من الوقت لا بد للدنيا ان تنتظر حتى ترى النتيجة ؟

في هذه الظروف المفعمة بالخطر اردنا الدور الامريكي ٠

ودخل الدور الامريكي مدعوا الى المشاركة في حل لازمة الشرق الاوسط ، وهو مصاب بالحمى !

□

رسمنا لمحة لخلفية الصورة ·

والدور الان على « صورة الحركة » للدور الامريكي في ازمة الشرق الاوسط ومساره ·

نمشي مع هذا الدور خطوة بعد خطوة لنرى كيف تحرك ··· كيف بدأ خطوته الاولى ، والثانية ، والثالثة ، وكيف ؟ ثم الى اين من هنا ·

● الخطوة الاولى :

لقد كان الرئيس الامريكي الذي تقدم للخطوة الاولى في الدور الامريكي في ازمة الشرق الاوسط في مرحلتها الراهنة ـ اي بعد اكتوبر ١٩٧٣ ـ هو الرئيس « ريتشارد ميلهوزن نيكسون » ·

ونحن الان نعرف من هو هذا الرجل ، ونعرف الظروف التي اقترب فيها من ازمة الشرق الاوسط ·

الرجل هو بطل فضيحة ووترجيت ، وتصرفاته فيها ترسم صورة كاملة لشخصيته !

تكفينا قراءة اربعة كتب ظهرت اخيرا في الولايات المتحدة الامريكية عن حياته في مستنقع الفضيحة ، وهي : كتاب « كل رجال الرئيس » كتبه صحفيان من محرري الواشنطن بوست ، هما بوب وودوارد وكارل برنشتين ، وكشفا فيه طريق التحقيق الى الفضيحة ، ثم كتاب « الايام الاخيرة » ، وهو من تاليفهما ايضا ، وهو عن الطريقة التي تصرف بها نيكسون في سنة حكمه الاخيرة وكتاب « قبل السقوط » وهو من تاليف « وليم سافير » ، وكان احد مساعدي نيكسون في البيت الابيض ، وكان قبلها وبعدها صحفيا مرموقا ، واخيرا كتاب « خيانة الامانة » الذي كتبه تيودور وايت المؤرخ المعتمد للانتخابات الامريكية منذ سنة ١٩٦٠ ·

في هذه الكتب كلها ، وفيما استندت عليه من معلومات وما حوته من وثائق ، صور مشاهد مروعة تدفعنا جميعا الى التساؤل : هل هذا هو الرجل الذي وثقنا فيه وظننا انه سيقود الولايات المتحدة الى دور متوازن في ازمة الشرق الاوسط ؟

رجل ارتشى في مكتبه في البيت الابيض ·

ورجل كذب تحت القسم واليمين بان يقول الحق ·

ورجل زور اوراقا رسمية لاقوى حكومة في الدنيا والتاريخ ·

ورجل اتخذ قرارات بالغة الاهمية بالنسبة لمصائر شعوب وهو في حالة سكر بين ،

التوى معها لسانه حتى استعصى عليه النطق ·

مشهد واحد يكفينا ليرسم صورة المأساة المهزلة ، وهو بتفاصيله في كتاب « الايام الاخيرة » ، ومصدر الرواية فيه منسوب الى « هنري كيسنجر »،فقد كان الشخص الوحيد الذي رأى بعينيه :

بعث نيكسون يستدعي كيسنجر الى مكتبه ··· وذهب كيسنجر فوجد نيكسون في غرفة ملاصقة لمكتبه تمتلىء جدرانها بلوحات زيتية لعدد من الرؤساء الامريكيين السابقين ، من اول « جورج واشنطن » قبل مائتي سنة الى « ليندون جونسون » قبل سبع سنوات ·

ودخل كيسنجر ، فاذا هو يفاجأ بريتشارد نيكسون واقفا يخاطب صور اسلافه في رياسة الولايات المتحدة واحدا بعد واحد ··· يخاطبهم نادبا حظه العاثر ويبكي ، ويحس نيكسون بان كيسنجر دخل القاعة فيقول له والدموع تسيل على خديه :

ـ هنري ··· انني لست مسيحيا متزمتا ، ولا انت يهودي متزمت ، ولكننا الان سوف نصلي معا ركوعا على ركبنا ·

وهوى نيكسون راكعا على ركبتيه ، ونزل هنري كيسنجر على ركبتيه بجواره·

وراح نيكسون يتلو بعض الصلوات ، ثم توقف فجاة ورمى نفسه على بساط الحجرة ، وراح يدق بقبضتيه على بساطها ، ثم يتمرغ عليه ويصرخ : ـ لماذا فعلوا بي هكذا ··· ماذا فعلت انا ؟

ثم زحف نيكسون على الارض ، ورمى نفسه على هنري كيسنجر ، ووقع الاثنان على الارض ، ونيكسون لا يزال يصرخ ويصيح ويبكي ·

وانتهى المشهد . وفي المساء اتصل نيكسون تليفونيا بكيسنجر ليقول له ولسانه ثقيل من كثرة ما احتسى من الخمور لينسى :

ـ هنري ··· لا تقل لاحد عما حدث في مكتبي اليوم ·

وفي الصباح بعث نيكسون يستدعي كيسنجر ، وذهب احد موظفي البيت الابيض يقول لوزير الخارجية ان رئيس الولايات المتحدة الامريكية يطلبه ، وكان رد كيسنجر بالحرف :

ـ قل لرئيسك « الكفتة » ـ اللحم المفروم ـ انني ساذهب اليه بعد عشر دقائق ! » ·

جرى هذا كله في البيت الابيض ، مقر اقوى رجل في الدنيا والتاريخ ·

موطن ومستقر الصندوق الاسود الذي تقبع فيه الازرار الرهيبة التي يستطيع

الرئيس الامريكي ان يلمسها بطرف اصبعه فاذا الاف الصواريخ تنطلق محملة بالاف الرؤوس النووية ، وفي دقائق قليلة يكون مائة مليون من سكان العالم والف مدينة ومركز صناعي من مدنه ومراكزه قد تحولوا جميعا الى رماد لا اثر فيه لحياة !

وكان شعار الحملة الانتخابية التي خاضها كنيدي ضد نيكسون هو صورة نيكسون كتب تحتها كنيدي « هل تطمئن الى شراء سيارة مستعملة من مثل هذا الرجل ؟ » وسقط نيكسون في الانتخابات ، ونجح كنيدي ·

وكان لنا ان نتساءل ، اولنا الان ان نتساءل :

ـ هل تركنا قضية نضالنا ومستقبلنا في يد مثل هذا الرجل ولو ليوم واحد ···

● الخطوة الثانية :

وكان هنري كيسنجر هو بطل الخطوة الثانية في حركة الدور الامريكي ازاء ازمة الشرق الاوسط ·

لقد رأى عجز الرئيس الامريكي اكثر مما راه غيره ·

وتصور ـ خطأ ـ ان في استطاعته ان يقوم بدور الرئيس الامريكي فيما يتعلق بالسياسة الخارجية للولايات المتحدة ·

ولم يخف كيسنجر عن احد من الذين فاوضوه في اي مشكلة او اي ازمة ـ بما في ذلك مفاوضيه في الشرق الاوسط ـ انه في مجال السياسية الخارجية الامريكية يملك كامل سلطات الرئيس ·

ولقد سمعتها منه شخصيا ، لم ينقلها لي عنه احد ·

سمعتها منه ذات ليلة في فندق « هيلتون » في القاهرة ··· وقالها حين قالها بنبرة تشيع فيها الخيلاء :

ـ فيما يتعلق بالسياسة الخارجية للولايات المتحدة ··· فانا الرئيس ، وعليكم ان تفهموا ذلك وتقدروه وتتعاملوا معي على اساسه .

واتذكر ـ حتى بالقليل الذي اعرفه عن اوضاع الولايات المتحدة ـ انني احسست بالقلق مما سمعت ، وكان بعض قلقي على هنري كيسنجر نفسه ، واتذكر انني قلت له :

ـ ارجوك ان تتذكر انه من الخطر لاي فرد ان يتصرف وكأنه خارج كل المؤسسات او فوقها .

المهم ان كيسنجر بدأ يتصرف ·

وليس هناك شك في ان الرجل طاقة ذكاء وعلم ، ولكنه ببساطة لم يكن رئيس الولايات المتحدة ، مهما ادعى ·

ثم انه بظروفه السابقة واللاحقة ـ ولا اريد ان اخوض فيها الان تفصيلا ـ لم يكن في استطاعته ان يمشي في الازمة الى بعيد ·

وباختصار ، فانه لم يكن في وسع هنري كيسنجر كانسان ان يتخلى عن احساسه الدفين بانهم هناك في اسرائيل شعبه ·

وباختصار ، فانه لم يكن في وسع هنري كيسنجر كأستاذ ان يتخلى عن اختصاصه الاصلي ، وهو الصراع بين القوتين الاعظم ·

وباختصار ، فانه لم يكن في وسع هنري كيسنجر كمجرد وزير خارجية ان يتخلى عن البقعة التي يتاثر فيها بظروف الرئيس الامريكي ، وبقوة الكونجرس المتزايدة ، وبأزمة الثقة بالنفس التي اجتاحت كل الولايات المتحدة الامريكية ·

هكذا لم يكن ـ فيما اتصور ـ يحاول البحث عن وسيلة « لحل » ازمة الشرق الاوسط . وانما اظنه كان يحاول البحث عن وسيلة « لتهدئة » ازمة الشرق الاوسط ـ نزع شحنات التفجير من قبلها .

● الخطوة الثالثة :

وجاء جيرالد فورد الى رئاسة الولايات المتحدة ·

اختاره « نقاوة يد » ـ كما يقولون في ريف مصر ـ ريتشارد نيكسون ، ولم يختره الناخب الامريكي ، نائبا للرئيس اولا ·

وحين ارغم ريتشارد نيكسون على مغادرة البيت الابيض بعد الفضيحة اصبح « جيرالد فورد » رئيسا للولايات المتحدة ·

اول مرة في التاريخ يلي الرئاسة فيها : نائب رئيس معين ··· ورئيس معين·

رجل لا يملك قوة الشرعية التي تمنحها اصوات الناخبين وحدها ·

واهم من ذلك . فان « جيرالد فورد » كان يطمح ، وهذا حق طبيعي له ، الى ان يصبح رئيسا بمقتضى حقه هو ، وليس بمقتضى سلطة ريتشارد نيكسون وهو من عرفت الدنيا كلها ، بما فيها الشعب الامريكي ، حالته عندما وقع اختياره على جيرالد فورد !

وفي معركته لانتخابات الرئاسة الامريكية ، فان الرئيس الامريكي لا يستطيع ان يكون مصدر ضغط على القوى المؤثرة في المجتمع الامريكي.على العكس فانه يصبح موضع ضغط منها جميعا ·

ولما كانت اصوات يهود الولايات المتحدة ، ونفوذ جماعات الضغط الصهيوني في حياتها السياسية قوة يصعب حسابها ـ اذن فاننا نتصور ان حركة الولايات المتحدة الامريكية في ازمة الشرق الاوسط ستميل الى ما يلائم اسرائيل اكثر من ميلها الى ما يلائم العرب ٠

وقصارى ما يمكن ان يصل اليه اي ضغط امريكي على اسرائيل في هـــذه الفترة ، هو القول لها :

ـ امامكم فرصة متاحة ··· فلا تتركوها تضيع منكم ٠

وليس هذا هو نوع الضغط المطلوب لحل ازمة في مثل خطورة ازمة الشـــرق الاوسط ، خصوصا بالنسبة لاصحاب الحق الشرعي فيها ··· اي الجانـــب العربي ٠

□

ما هو مسار الخطوات التالية من هنا فيما يتعلق بدور الولايات المتحـــدة في ازمة الشرق الاوسط ؟

شواهد الاحوال في اي عملية رصد سياسي تقول لنا ما يلي :

١ ـ لا حركة مؤثرة يقوم بها الدور الامريكي خـلال سنة ١٩٧٦ ، فهذه سنة الانتخابات ، وهـذه حقيقة أصبح الكل يسلم بهـا ، ولا أحـد يجادل فيها ٠

وحتى لو حاولت السياسة الامريكية ان تدفـع الى عـقد اجتماع اخر في جنيف لبحث أزمة الشرق الاوسط ، فان مثـل هـذا الاجتماع ، بالظروف القائمة الان ، سيكون محكوما عـليه سلفا ··· سوريا لن تحضره ··· الفلسطينيون ليسوا مدعوين لحضوره ··· الاتحـاد السوفيتي سوف يتغيب على أرجح الفروض··· ثم أن الدور الامريكي معـطل تاثيره بسبب سنة انتخابات الرئاسة ٠

هو اذن اجتماع لـلء وقت فراغ ··· أو لاعـطاء الانطباع بوجود حركـــة بغـير مضمون حركة ، لان القوى كلها اما بعـيدة واما معـطلة ، وفي المقدمة من القوى المعـطلة ··· تاثير الولايات المتحـدة وانهماك الرئيس الامريكي في أمـور مستقبله ··· قبل مستقبل أزمة الشرق الاوسط !

٢ ـ ان جيرالد فورد يتعرض لمنافسة شديدة من داخـل حزبه ـ الحـــزب الجمهوري ـ للحصول على ترشيح هذا الحزب في مؤتمره العـام القادم فـــي شهر اغسطس من هذه السنة ، وفي مدينة « كانساس » ، ومنافسه الحالي هـو رونالد ريجان ، حاكم كاليفورنيا السابق والممثل السـينمائي الاسبق ، ومع ذلـك فاغلب الظن أن جيرالد فورد سوف يحصل على ترشيح حزبه له ٠

٣ ـ سوف تجري انتخابات الرئاسة يوم الثلاثاء الاول من شهر نوفمبر سنة ١٩٧٦ ، وليس هناك دليل قاطع يشير الى المرشح الديمقراطي الذي سيخوض المعركة امام فورد ، وقد يكون هيوبرت همفري ، او قد يكون جيمي كارتر حاكم جورجيا السابق ★ او قد يظهر من بين صفوف الحزب الديمقراطي حصان اسود يحصل على الترشيح في اللحظة الاخيرة ٠

وعلى أي حال فان احتمالات نجاح جيرالد فورد امام اي مرشح ديمقراطي لا تزيد عن خمسين في المائة ، وهو وضع خطر رغم ان جيرالد فورد يتمتع بسلطات وامكانيات الرئاسة حاليا ، وهي قوة هائلة في التأثير على اصوات الناخبين ٠

٤ ـ ولنفرض أن جيرالد فورد نجح في انتخابات الرئاسة ، واصبحت له شرعية السلطة بحق الاصوات ، وليس بمجرد اختيار نيكسون له ـ فان جيرالد فورد سوف يحاول خلال ما بقي من ايام سنة ١٩٧٦ أن يبني نظامه الجديد المستقل وأن يختار معاونين له لم يرثهم من سلفه ريتشارد نيكسون ٠

واغلب الظن أن مجلس وزراء جيرالد فورد الجديد ـ في حالة فوزه ـ سوف يختلف تماما عن مجلس الوزراء الحالي الذي لا يزال معظمه من بقية ما ترك نيكسون ٠

وأرجح الاحتمالات أن يسقط الدكتور هنري كيسنجر ليفسح مجالا لوزير خارجية جديد يختاره فورد ، خصوصا وأن سياسات كيسنجر كلها فشلت ، كما أن بريق شخصيته علاه الصدأ ٠

في فيتنام وفي الوفاق وفي الصين وفي الشرق الاوسط لم يصل كيسنجر الى بعيد ، والبقايا الباقية من اثار السياسة الامريكية في هذه المناطق كلها باقية لا بسبب براعة كيسنجر ، وانما لظروف لا دخل لهذه البراعة فيها ٠

ثم أن شخصية كيسنجر تأثرت بتعاونه مع نيكسون ، وبما ظهر من تصرفاته الشخصية هو كوضع رقابة تليفونية على عدد من اصدقائه ومعاونيه ، وكوضع جهاز تسجيل على كل محادثاته التليفونية هو حتى مع الرئيس الامريكي نفسه، وبتقديمه لشهادات ظهر عدم صحتها رغم انه اداها تحت اليمين امام لجان الكونجرس ، وبكلام ظهر انه قاله في مكان وقال نقيضه في مكان اخر ٠٠٠ الى آخره الى اخره ٠

٥ ـ هكذا سوف تمضي سنة ١٩٧٦ بدون دور امريكي مؤثر في أزمة الشرق

★ وقع اختيار الحزب الديمقراطي على كارتر ٠٠٠ ونجح كارتر بـ ٥١٪ من اصوات الناخبين ٠

الاوسط ، وتبدأ سنة ١٩٧٧ والرئيس الامريكي الجديد ـ فورد أو غيره ـ يستعد لالقاء خطابه التقليدي عن حالة الاتحاد في الاسبوع الثالث من شهر يناير . وفي تحديد علاقات القوى بينه وبين الكونجرس ، وفي اعداد التشريعات التي تطبع بطابعها ايام حكمه المائة الاولى ، وهي مسالة هامة في الولايات المتحدة ٠

٦ ـ هكذا في الربيع من سنة ١٩٧٧ يبدأ الرئيس الامريكي الجديد في الالتفات الى شئون السياسة الخارجية ، والاولوية الاولى لديه بالطبع هي حلف الاطلنطي واوضاعه ٠٠٠ ثم الوفاق وأحواله ، وبعدها يجيء الدور على أزمة الشرق الاوسط ٠٠٠ ربما ٠

والوقت هو صيف سنة ١٩٧٧ ٠

٧ ـ في بداية الصيف ، على الارجح ، يبدأ الرئيس الامريكي الجديد اقترابه من أزمة الشر ق الاوسط ، ويتصل بالجانب العربي ٠٠٠ ويتصل بالجانب العربي ٠٠٠ ويتصل بالجانب الاسرائيلي ٠

ويقول الجانب العربي وجهة نظره ٠

وحين يجيء الدور على الجانب الاسرائيلي فان الرئيس الامريكي سوف يسمع من يقول له من تل أبيب :

ـ انتظر ٠٠٠ لا احد هنا يستطيع ان يبت في شيء الان ٠٠٠ ونحن على أبواب انتخابات للكنيست ـ البرلمان ـ الاسرائيلي ٠٠٠ موعدها اكتوبر ١٩٧٧★ وقبلها ليس عندنا من يملك سلطة أن يقول لا او نعم ٠٠٠ أو يرسم خريطة ٠٠٠ أو يبت في صيغة مقترحة أو معروضة ٠

وتتم الانتخابات الاسرائيلية في اكتوبر ١٩٧٧ ٠٠٠ ويتم تشكيل الوزارة على أساسها في نوفمبر أو ديسمبر ، وتجيء سنة ١٩٧٨ ٠٠٠

وبعدها ٠٠٠ لكل حادث حديث !!

★ تقدم موعد الانتخابات الاسرائيلية الى ١٧ مايو ١٩٧٧ .

الحديث الثالث

على مستوى القوى المحلية المتصارعة في أزمة الشرق الاوسط ، فان اسرائيل هي الطرف الذي يتوقف على « صورة حركته » شكل الحوادث القادمة في المنطقة !

لماذا ؟ !

لسبب واضح ، هو انه في حالة الحركة السياسية فان اسرائيل هي الطرف الذي يمسك في يده بالاوراق الاساسية المطلوبة في لعبة الصراع ، وهي : الارض ٠ اي ٨٧ ٪ من سيناء ، وكل الجولان ، وكل الضفة الغربية ، وكل غزة ، وكل القدس ٠

اي أن الكلمة المنتظرة الان في حوار الصراع هي كلمة اسرائيل ٠ تقول فيها:

ـ انني مستعدة أن أعطي كذا وكذا من الاراضي في مقابل كذا وكذا من الضمانات وترتيبات السلام ـ كما تتصوره ٠

وبعدها يجيء الدور في حوار الصراع على العرب ٠

يقبلون ما تعرضه اسرائيل أو يرفضونه أو يعدلونه أو يتقدمون باقتراح غيره أو يقررون ما يشاءون وقتها منفردين ـ اذا بقي الوضع العربي العام على ما هو عليه الان ـ أو مجتمعين ـ اذا تغير الوضع الى غير ما هو عليه الان، كما يرجو ويتمنى ويصلي كثيرون ٠

واذن ، فالكلمة الاولى المنتظرة في حوار الصراع الان هي من اسرائيل ٠

واما اذا أراد العرب أن يبدأوا هم بكلمة في حوار الصراع ، فلا يمكن ان تكون الكلمة سياسية ، وانما يتحتم أن تكون الكلمة عسكرية ، وبصراحة فلست ارى ـ واتمنى أن اكون مخطئا ـ أن الوضع العربي العام كما هو الان يسمح للعرب بافتتاحية عسكرية في حوار الصراع ٠

لكي أوضح ما قلت حتى الان ، ألخصه فيما يلي :

● الجمود الذ ىيسود الموقف الان لا يمكن أن يستمر الى الابد ، وانما لا بد أن يقطعه في الصراع حوار ·

● والكلمة الاولى في حوار الصراع اما أن تكون سياسية أو تكون عسكرية ·

● واذا كانت الكلمة الاولى سياسية ، اذن فلا يمكن ان تصدر عن غير اسرائيل ، لانها هي التي تمسك في يدها « بالشيء » الذي يدور حوله الصراع الان ، وهو « الاراضي » ·

● واذا كانت الكلمة الاولى عسكرية ، اذن فلا يمكن أن تصدر عن غير العرب ، لان العرب لا يملكون غير القوة اذا أرادوا فرض حوار لا تريده اسرائيل ، أو على الاقل ليست متلهفة عليه ، لان جائزة الصراع تحت يدها ·

● ولما كانت الظروف العسكرية كما أرى واتصور — ليست الان مواتية للعرب، اذن فان الكلمة الاولى التي يملكونها ولا يملكون غيرها لن تصدر عنهم الان على الاقل ·

واذن فان الدور على اسرائيل ·

□

والمشكلة في أي كلمة منتظرة من اسرائيل انها ستكون اقل كثيرا مما يستطيع العرب قبوله في الاراضي ، وسوف تكون اكثر مما يستطيع العرب قبوله من ضمانات السلام ، كما تتصوره اسرائيل ·

وعلى الجبهة المصرية ، مثلا ، فان اسرائيل حصلت على تعهد من الولايات المتحدة الامريكية ورد في المادة السادسة من مذكرة الاتفاق بين حكومة اسرائيل وحكومة الولايات المتحدة الامريكية بتاريخ أول سبتمبر ١٩٧٥ — أي مع اتفاقية فصل القوات الثانية في سيناء ·

ويقول هذا التعهد بنص هذه المادة السادسة :

« ان حكومة الولايات المتحدة تتفق مع اسرائيل في أن الاتفاق التالي مع مصر يجب ان يكون اتفاق سلام نهائي » ·

اي أنه لم يعد هناك مجال على الجبهة المصرية لسياسة الخطوة خطوة·

وعلى الجبهة السورية ، مثلا ، فان سياسة الخطوة خطوة ليس لها مجال ، باعتبار ضيق مساحة الارض في مرتفعات الجولان — وهذا ما تقوله كل الاطراف حتى الان ·

وفي الضفة الغربية وغزة والقدس ، فان سياسة الخطوة خطوة لم تطرح اصلا للمناقشة ، وانما كان المطروح ، حتى عندما كان الملك حسين هو الذي

يتفاوض قبل قرارات مؤتمر الرباط ، هو مشروع اللون ٠

هكذا نستطيع أن نتصور أن مدار أي حوار قادم في الصراع سوف يكون موضوع التسوية النهائية ٠

ولست أظن أن اسرائيل سوف تعرض كل الاراضي المحتلة بعد ٤ يونيو ١٩٦٧، ولا حتى بالنسبة للجبهة المصرية ٠٠٠ فضلا عن الجبهة السورية والجبهة الفلسطينية ، وامرهما أعقد بكثير من الجبهة المصرية ٠

ومع ذلك ، فانه في مقابل هذا الذي سوف تعرضه اسرائيل ـ اذا عرضته ـ فان طلبها سوف يكون هو السلام الكامل كما تتصوره ، وتصور اسرائيل للسلام الكامل تعبر عنه جولدا مائير بقولها المشهور :

ـ نحن بالطبع لا نريد حربا ساخنة مع العرب ، ولا حربا باردة ، ولا سلاما باردا ، وانما سلاما ساخنا ، او سلاما دافئا على اقل تقدير ! » ٠

والسلام الدافيء لاسرائيل شيء لا يستطيعه أي طرف عربي منفردا ، ولا يستطيعه كل العرب مجتمعين ٠

وتلخيص ذلك :

ان العرب لا يسعهم قبول أقل من كل الاراضي في مقابل ما هو أقل من كل السلام ٠

ثم أن اسرائيل لا يسعها قبول أقل من كل السلام في مقابل ما هو أقل من كل الاراضي !

هذه هي المعادلة الصعبة ٠٠٠ بل المستحيلة ، فيما أتصور !

والمأزق الحقيقي أن هذه المعادلة الصعبة او المستحيلة هي اللون الطاغي على « صورة الحركة » فيما يتعلق بالدور الاسرائيلي في أزمة الشرق الاوسط٠

وأول انطباع ينقله هذا « اللون » الى كل من يدقق النظر فيه ويحاول ترجمته الى حقائق سياسية ، هو انطباع « اللا حركة » ٠

اللون شاحب باهت ٠٠٠ خامد جامد كأنه الشلل !

□

ومع ذلك ، لا نستبق الحوادث قفزا من فوقها ، وبدلا من ذلك نحاول تتبع « صورة حركة » صانع القرار في اسرائيل ٠

سوف نجد على الفور أن « صورة حركة » صانع القرار في اسرائيل اليوم

ترتبط ارتباطا وثيقا بوضع اسحاق رابين ★ رئيس وزرائها والمناخ العــام المحيط بوزارته ـ واذا فعــلنا ذلك فاننا اسوف نجد أن وضع « اسحاق رابين » فــي حد ذاته هو وضع اللا حــركة في اسرائيل ، أو هو الحركة المقيدة داخــل مربــــع ضيق ، يزداد ضيقه يوما بعــد يوم . والاسباب عــلى النحو التالي :

١ ـ ان اسحاق رابين ليس شخصية سياسية لها مصادر قوة يمكن رؤيتها وحسابها ووزنها .

كان ضابطا شابا في «الهاجاناه» ايام كانت الهاجاناة قوة تكاد تكون غــيــر نظامية ، ثــم دخل الى الجيش النظامي بعد انشاء الدولة . عندما صدر قرار بن جوريون الشهير والجريء سنة ١٩٤٩ ، والذي بمقتضاه تم ضم كل المجموعات القتالية التي خاضت معــارك سنة ١٩٤٨ وما قبلها في جيش واحد هو « تساهال» الجيش النظامي لاسرائيل .

ولان « الهاجاناه » كانت تحت قيادة دافيد بن جوريون شخصيا ، فــان ضباطها كانوا محسوبين عــليه ، وكان هو يراقب نشاطهم وتقدمهم في المؤسسة العسكرية الاسرائيلية ، ويدفــع ببعضهم احيانا الى مراكز القيادة الحساسة والمؤثرة فــي « تساهال » ـ وبين هؤلاء كان اسحاق رابين .

وحينما جاءت حرب سنة ١٩٦٧ ، كان اسحاق رابين يتولى منصب رئيس هيئة أركان حرب الجيش الاسرائيلي ، وكان هــو الذي أشرف عــلى وضــع خــطط « تساهال » في معــارك الايام الستة .

٢ ـ ان تصرفات اسحاق رابين تحت ضغــط أزمة سنة ١٩٦٧ اظهرت انه ليس من نوع الرجال الذين يصلب عودهم أمام الضغــوط ،.وانما هو من النــــوع الذي يقع تحتها ، ويفقد القدرة على الحركة بل القدرة على الاحتفاظ بالتوازن .

وقد روي عزرا وايزمان ، كان نائبا لاسحاق رابين فــي « تساهــــال » بوصفه مديرا لعــمليات الجيش الاسرائيلي سنة ١٩٦٧ ، أن رابين اصيب قبــل أن تبدأ معــارك سنة ١٩٦٧ بنوبة انهيار عصبي أثرت عــليه حتــى طبيعــيا ، فاصابه نوع غــريب من القيء والاسهال ، واحس هو أنه لن يكون قــادرا على قيادة العمليات ، فاتصل بنائبه يطلب اليه أن يكون مستعدا ليحل محله .

وذهب وايزمان ليرى ماذا حل بقائده ، واحس بأزمته ، ونقل الى القيــــادة السياسية وقتها احساسه بأن رئيسه لن يصمد تحت الضغــوط ، وهكذا جاء ديان ليقود العمليات ويشرف عــلى ادارتها وتوجيهها .

★ استقال رابين فيما بعد من رئاسة الوزارة ورئاسة حزب العمل وحل محله شيمون بيريز .

ولكن القيادة السياسية في اسرائيل كانت تحس بأن رابين أعطى نفسه وكل ما لديه في عملية التخطيط للحرب ، واذا كانت المعارك سوف تجده غير لائق بقيادتها عمليا ، فان تلك لا ينبغي أن تكون نهاية دوره .

٣ ـ بعد انتهاء المعارك سنة ١٩٦٧ ، وهذا الذي حدث لرابين كله ماثل في الاذهان ، أصبحت العلاقات مع الولايات المتحدة الامريكية ذات أهمية متزايدة لاكثر من سبب .

بينها أن اسرائيل أثبتت للولايات المتحدة أنها تستطيع أن تكون ذراعها الطويل القوي القادر على عقاب من تريد الولايات المتحدة عقابهم في الشرق الاوسط .

وبينها أن اسرائيل أحست بهذا الوضع الجديد الذي اكتسبته أمام الولايات المتحدة وأن في وسعها ان تطلب كل ما تريد من شحنات السلاح ، ثم ان من حقها الحصول عليه . وعلى هذا الاساس فمن المطلوب في هذه المرحلة أن يكون على رأس البعثة الدبلوماسية والعسكرية الاسرائيلية في واشنطن رجل يعرف حقيقة طلبات اسرائيل العسكرية ، ويستطيع الحصول عليها .

وبينها أن الجالية اليهودية وجماعات الضغط المنظم فيها تحتاج الى قيادة اسرائيلية تنسق جهودها على أساس المستوى الجديد المطلوب في العلاقات الامريكية الاسرائيلية ، وانه من المستحسن أن يتولى هذه القيادة من واشنطن شخصية لها قيمة أسطورية مستمدة من انتصار اسرائيل سنة ١٩٦٧ .

هذه الاعتبارات كلها ، الى جانب الرغبة في تكريم رابين ، جعلته مرشحا طبيعيا لسفارة اسرائيل في الولايات المتحدة .

٤ ـ في الولايات المتحدة ، وكسفير لاسرائيل في واشنطن في الفترة من سنة ١٩٦٧ الى سنة ١٩٧٣ ، خمس سنوات تقريبا ، استطاع رابين أن يتداخل تداخلا كاملا في أوساط صنع القرار الامريكي ، خصوصا فيما يتعلق بالشرق الاوسط .

واستطاع ، فوق ذلك ، انشاء صداقة قوية مع هنري كيسنجر الذي أصبح ابتداء من سنة ١٩٦٨ ، ومع رئاسة ريشارد نيكسون ، مستشارا للامن القومي في البيت الابيض . ولما كان بين التعهدات التي أعطتها الولايات المتحدة لاسرائيل بعد حرب سنة ١٩٦٧ أن لا تقدم على أي خطوة في أزمة الشرق الاوسط الا بعد التشاور الكامل معها ، ولما كان هذا التعهد قد قطعه ليندون جونسون من البيت الابيض ، فان رابين ركز علاقته في واشنطن على كيسنجر ، ولم يكن لدى الاثنين مانع من أن يتركا وليم روجرز وزير الخارجية الامريكية وقتها يصنع

ما بدا له في الازمة ، محتفظين في النهاية للبيت الابيض وللسفارة الاسرائيلية في واشنطن بحق « الفيتو » النهائي عـلى اي سياسة واي خـطوة واي قرار ٠

٥ ــ ولقد وصل رابين في تقدير كيسنجر الى حـد أنه اعتبر المرشح الطبيعي لرئاسة الوزارة ، اذا حـدث واصبحت احتمالات الحـل مطروحــة ٠

وعـندما تصاعـدت أزمة الشرق الاوسـط دوليا بعد الزيارة السرية التي قام بها جمال عبد الناصر لموسكو ، وبعد تعزيز دفاعات مصر الجوية بصواريـخ « سام ٣ » و« سام ٦ » ، وبعـد اشتراك السوفيت في الدفـــاع عـن العـمق المصري ــ اضطرت الولايات المتحدة الى التقدم بمبادرة روجرز في يونيو سنـة ١٩٧٠ ، وعـلى أساس هـذه المبادرة تـم وقف اطلاق النار في أغسطس سنـــة ١٩٧٠ ٠

واتذكر انني في تلك الفترة اخـطرت رسميا ــ وكنت وقتها وزيرا للارشـــاد ووزيرا للخارجية بالنيابة اثناء غياب وزيرها الاصلي محمود رياض في رحلـة الى البلقان ــ بانه « اذا سارت الامور جدا فان اسحاق رابين سوف يعـود الى اسرائيل ليرأس وزارة تقوم باجراء التسوية » ، وكان الذي ابلغـني بهـــذه الرسالة بناء عـلى تعليمات من البيت الابيض في واشنطن هو المستر دونالـــد بيرجس المشرف على شئون الرعـاية الامريكيين في القاهرة ايامها ٠

واذن فقد كان رابين مرشحا « لوزارة تسوية » في اسرائيل منذ سنة ١٩٧٠ عـلى الاقل !

٦ ــ بعـد حرب اكتوبر جاء رابين الى رئاسة الوزارة في اسرائيل بايحـاء امريكي بالقطع ، ولكن في ظروف مختلفة اشد الاختلاف ٠

كانت عاصفة حرب اكتوبر قد أطاحت بكثيرين في اسرائيل ٠

اطاحت بديان وزير الدفاع ، وأطاحت باليعـازر رئيس هيئة أركان الحـرب ، الى جانب مجموعـات من جنرالات الجيش الاسرائيلي كزائيرا وجونين وغيرهما ٠

ثم كانت العاصفة ايضا قد هزت ــ سياسيا ــ موقف جولدا مائير وابا ايبان وجاليلي ، وغـيرهم من القيادات السياسية البارزة في تحالف العمل الحاكم فـي اسرائيل منذ قيام الدولة ٠

القيادات العسكرية سقطت نجومها ٠٠٠

والقيادات السياسية تريد أن تتوارى ولو لفترة عـن الانظار ٠

وفجاة قفز اسم رابين . مع العلم بانه كان مطروحا باستمرار في خلفيـة المسرح اذا جدت ظروف بدا فيها احتمال التسوية واردا ٠

وجاء رابين لرئاسة الوزارة بعـد منافسة بينه وبين شيمون بيريز الذي اكتفى بعد حصول رابين عـلى اكثر اصوات اللجنة المركزية لتحالف العمال الحاكم بان يقبل منصب وزير الدفاع ٠

٧ ـ ان اسحاق رابين في دوره كرئيس للوزراء اخـذ ، كما ياخـذ كل سياسي اخر يتولى منصبا عـاليا ، فترة سماح يثبت فيها نفسه ، ولكن الامور بعـدهـا بدات تتغـير لتعـود الامور الى طبيعتها ٠

بدأ التساؤل اولا :

ـ من هو رابين سياسيا ، ومـاذا يمثـل في تحالف العمال الحاكم ؟ »

وتــلاه التساؤل :

ـ هل يستطيع رابين أن يؤكد استقلاله عـن كيسنجر وعـن السياسةالامريكية، على فرض نشوب خلاف بين مطالب السياستين في المنطقة ؟ »

ثم تساؤل اخـر :

ـ ما هي قدرة رابين عـلى الاحتفاظ بتوازنه واصدار القرار السليم في الوقت السليم ، وتحـمل مسئولية تنفيذه تحت النار ، خصوصا اذا استعـيدت تجربـة سـنة ١٩٦٧ وحالات القيء والاسهال التي انتابته قبـل أن تطلق أول رصاصة في مـارك الايام الستة ؟ »

٨ ـ وفي تلك الظروف وقع رابين في مجموعـة من المحانير زادت الطين بلة :

● اختلف مع شيمون بيريز وزير الدفاع في شان قائمة المطالب العسكرية التي قدمت الى الولايات المتحدة ليناقشها رابين مع فورد وكيسنجر اثناء زيارتـــه لواشنطن في شهر يناير الماضي ، وقال رابين للصحفيين الذين رافقوه في رحلتـه الى واشنطن أن قائمة المطالب كانت غير معـقولة ، ونقل كلامه الى اسرائيـــل منسوبا الى مصدر مطلع ، ثم تبين أن المصدر المطلع هو رابين شخصيا ، وغضب بيريز وغضبت قيادة الجيش الاسرائيلي « تساهال » واعتبرت أن رابين لم يدافع عـن مطالبها في واشنطن بالقدر الكافي . واكثر من ذلك فانه القي اللوم عـلـى زملاء له في القدس ، ووقـع في خطيئة انتقاد عـملهم اثناء وجـوده خـارج اسرائيل ٠

● ولان رابين لا ينتمي الى تحالف حزب العـمال الحاكم انتماءا عضويـــا دائما ، فان مواصلاته السياسية مع التحالف ، وهو سند الحكم ، كانت شبـه مقطوعـة . وبدلا من أن يتشاور رابين باستمرار مع الساسة فانه احاط نفسه بمجموعـة من الموظفين والجنرالات السابقين ، ومهمـا كانت كفاءة هـــؤلاء ، او مهمـا كانت الثقة بهـم غـنية ، فانهـم سياسيا لا يستندون الى اي قاعـدة

شعبيـة ٠

● وكان رابين بطبيعته رجلا مغلقا على نفسه ، مغتربا بانتماءاته عـن الجـو السياسي الذي وجد نفسه فيه بحكم توليه الوزارة ٠ ومع المشاكل المتزايدة مـن حوله فانه زاد انطواء وابتعـادا ، واصبحت الروايات متناثرة وشائعـة عـن الدائرة المغلقة التي لا يستريـح رابين الا فيهـا ، وعـن كثرة كؤوس الويسكـي التي يحتسيها كل يوم في الدائرة المحيطة به ٠

● وحاول رابين أن يفتح مسالك خلفية له على القوى السياسية في اسرائيل ٠

حاول الاقتراب من ديان ، ولم تنجح المحاولة ٠

وحاول ضـم ايبان الى وزارته ، لكن ايبان تملص في اللحـظة الاخيرة ٠

ثم لم يجد رابين لتعزيز موقف وزارته وانشاء جسور بينه وبيـن القـوى السياسية في التحالف العمالي الحاكم الا أن ينشيء مجلس حكماء من قيـادات الحزب ترأسه جولدا مائير ٠٠٠ وشيئا فشيئا فان مجلس الحكماء يتحـول الان الى مجلس وصاية عـلى تصرفات رابين ٠

٩ ـ هكذا وجد رابين نفسه في موضع لا يستطيـع منه أن يحكم أو يتخـذ قرارا في مشكلة المشاكل أمام اسرائيل ، وهي أزمة الشرق الاوسط ٠

ولقد كان سهلا عـليه ـ الى حد ما ـ أن يساير الدكتور هنري كيسنجـر في خـطوات محدودة طبقا لسياسة الخـطوة خـطوة ٠

ولكنه وصل الى نهاية ما يستطيـع ، ولم يعـد في مقدوره أن يتحرك خـطوة بعـد ذلك ٠

اي أن موقفه أصبح مجمدا بالكامل ٠

١٠ ـ في نفس الوقت فان القيادات السياسية الطبيعـية في اسرائيل تلعـب لعبة الانتظار وكسب الوقت ، وليس بينها أحد يريد أن يضع أصابعـه في النار قبل الوقت المناسب ٠

قبل أن تهدأ العاصفة في اسرائيل ٠

وقبل أن تبلور التيارات السياسية الفاعـلة نفسها فيها ٠

وقبل ان تتهيأ أوضاع ملائمة في المجال الدولي ، وبالذات في مجال العلاقات الامريكية الاسرائيلية ، وهذا اعتبار من أهم الاعتبارات ٠

١١ ـ ان الراي الغـالب بين القيادات السياسية الطبيعـية في اسرائيـل أن هذه الاشتراطات كلها لن تتحقق قبل انتهاء سنة الانتخابات الامريكية ١٩٧٦ ، وقبل ظهور اتجاهات النظام الجديد في واشنطن سنة ١٩٧٧ ٠ ثـم أن هـــذه

الافتراضات لن تتحقق ايضا قبل انتهاء معـركة انتخابات الكنيست في اكتوبـر ١٩٧٧ ، وقبل تشكيل الحكم الذي سيعـكس ارادة الناخبين في اسرائيل مع بداية سنة ١٩٧٨ ٠

١٢ ـ في هذا الوقت ـ هكذا ترى القيادات السياسية الطبيعـية في اسرائيل ـ سوف تكون الظروف غير الظروف من عـدة نواح ٠

٠٠ ستكون ازمة الطاقة قد تحددت ابعادها فيما يتعلق بالولايات المتحدة على الاقل ٠

٠٠٠ ستكون اسرائيل قد تمكنت من حـل مشكلة عـزلتها الدولية ٠

٠٠٠ ستكون الجماهير الاسرائيلية قد هدأ روعـها بعد العاصفة ، وبعـد التعبير عـن نفسها في انتخابات الكنيست ٠

٠٠٠ سيكون الجيش الاسرائيلي قد تمكن من استيعـاب صفقـات السلاح الامريكي التي حصل عـليها ابتداء من نهاية سنة ١٩٧٣ ، ومجموع قيمتها اكثر من ١٢ بليون دولار ، وكلها اسلحـة متطورة ٠

٠٠٠ ستكون حقيقة امتلاك اسرائيل لسلاح نووي قد برزت اكثر ، وفعـلت مفعـولها النفسي والسياسي والعسكري اكثر ٠

٠٠٠ ثم من يدري كيف ستكون الاوضاع العربية وقتها ، سواء بالنسبة لدول المواجهة واحدة بعـد واحدة ٠٠٠ او لقوى الثورة الفلسطينية ٠٠٠ او فـي الوضع العربي العـام ؟

٠٠٠٠٠

٠٠٠٠٠

وقتها ، وليس قبلها تكون اسرائيل في وضع يسمح لهـا بان تقول كلمتها الافتتاحية في الحـوار ٠٠٠ وتقولها من موقع يختلف تماما عن موقعها الراهن٠

وعلى العـرب ان يركبوا احسن خيلهـم لملاقاتـها اذا ارادوا ٠٠٠ او اذا استطاعـوا !

هكذا !

★ تقدم موعدها الى ١٧ مايو ١٩٧٧ ٠

الحديث الرابع

اريد ان اقول ، ومن منطلق ثوري منفتح ، لا اثر فيـــه لجاهلية النعرات الاقليمية وجهالتها ـ ان مفتاح الموقف العربي في ازمة الشرق الاوسط لا يزال في يد مصر ، واي حساب يبنى على غير هذا الاساس يقع في احد محظورين لا يجوز الوقوع فيهما الان :

● على احسن الفروض : هو يبني لمستقبل لا تستطيع عيوننا ان تراه ، واخشى ان الفرصة ستكون قد ضاعت اذا انتظرناه !

● وعلى اسوأ الفروض : فهو يبني على كثيـب من الرمال المتحركة لا يكاد البناء يعلو عليه حتى يحدث الانهيار !

لمادا اقول بذلك ؟

اقول به للاسباب التالية :

١ ـ انني اسلم اولا بان الجهة الشرقية او بتعبير جغرافي ـ منطقة الهلال الخصيب (سوريا والعراق والاردن والشعب الفلسطيني) ووراءهم جميعا عمق شبه الجزيرة العربيـــة والخليج ـ اصبحت كلها منطقة تقدر على خوض مواجهة ضد اسرائيل بدون مشاركة مصر ٠

هذه المنطقة يتغير وضعها من ناحية العامل البشري والسياسي والعامـل الاقتصادي والمالي والعامل الثقافي والتكنولوجي ، وهي بهذه المتغيرات تستطيع ان تعطي نفسها امكانية تختلف عما كان لهـــا في الاربعينات والخمسينات والستينات ٠

هي في وضع يسمح لها بصنع قوة قادرة على ادارة الصراع من جهة واحدة جبهة المشرق وحدها ، امام اسرائيل ٠

ولكننا في نفس الوقت الذي نسلم فيه بأن هذه العملية ـ وهذا تحول تاريخي كبير ـ قد اصبحت ممكنة ، ـ يجب ان نتحفظ بأن احدا لا يستطيع ان يدعي ان هذا الممكن قد اصبح بالفعل امرا واقعا يمكن الاعتماد عليه فورا في موازين الصراع ٠

٠٠٠ما زالت هناك مراحل ينبغي بلوغها ، وما زالت هناك عمليات تجانس وتنسيق لا بد من تحقيقها ، وما زالت هناك رواسب وعقد يتحتم ازالتها ٠

واتصور ان الجبهة الشرقية سوف تكون في وضع يسمح لها منفردة بقبول التحدي الاسرائيلي في فترة ما بين عشرة الى خمسة عشرة سنة ٠٠٠ ولعلي لا اكون مخطئا !

ولكن ما الذي سيحدث للقوة الاسرائيلية في هذه الفترة ؟

ثم اي مستوى سوف يكون عليه الصراع المسلح بعدها ؟

ثم ما هو المناخ العام الاقليمي والدولي الذي سيكون سائدا وقتا ؟

٢ ـ لقد راينا من محاولة لدراسة الحوار بالصراع في الفترة القريبة القادمة ان الكلمة الاولى المنتظرة فيه لا بد ان تأتي من جانب اسرائيل ، تعرض فيه بعض الاراضي وتطلب في مقابلها ما تريد من ضمانات السلام كما تتصوره ٠ ثم راينا ان كلمتها حين تجيء سوف تكون :

« اقل ما يمكن من الاراضي في مقابل اكبر ما يمكن من ضمانات السلام ٠٠٠ اي بعبارة اخرى سوف تكون كلمتها : بعض الاراضي في مقابل كل السلام » ٠

ثم اتفقنا على ان ذلك وضعا لا يسع العرب قبوله ، وليس امامهم غير رفضه ٠

ومن ناحية اخرى فلقد راينا انه اذا اراد الجانب العربي في الصراع ان تكون له الكلمة الاولى فليس هناك بديل من ان تجيء افتتاحية الحوار من ناحيته باطلاق النار ٠٠٠ اي بالحرب ٠

٣ ـ ان معادلات القوة الراهنة ، وكما هي فعلا على الخريطة السياسية في الشرق الاوسط الان ولسنوات مقبلة تقول لنا بما يلي :

لا حرب بغير مصر ٠٠٠

ولا سلم بغير حل للقضية شعب فلسطين وارضه ·

ومعنى تعطيل الدور المصري لاي سبب او اخر هو ان الازمة ـ مهما قلنا او قال غيرنا ـ سوف تنزاح من المجرى النشيط لحركة التاريخ الى مستنقع جانبي من حالة اللاسلم واللاحرب بعفنها وعطنها والتحلل الذي ينتج عن ذلك ويتاكل معه كل ما هو ايجابي في الروح العربية والارادة العربية !

٤ ـ ان تعطيل دور مصر معناه تعطيل كل امكانية وفاعلية المغرب العربي كله من طبرق الى الدار البيضاء ، لان مصر المعطلة سوف تكون ـ ولو حتى باللاارادة ـ حاجزا يعوق وصول امكانية وفاعلية المغرب العربي كله الـى خط المواجهة ·

وهذا اهدار لجزء هام من كيان الامة واقتطاع لطاقة كبيرة من ارادتها فضلا عن الاهمية الاستراتيجية للمغرب العربي من ناحية التاثير على موازين البحر الابيض ، ومن ناحية العمق وراء خطوط المواجهة ·

٥ ـ ثم مصر نفسها وانتماؤها ووزنها وحجمها وتاثيرها ؟

ومع انه كان حريا بي ان اضع هذا السبب في مقدمة هذه المجموعة مـن الاسباب ـ الا انني اثرت ـ حتى انفي تماما مظنة النعرات الاقليمية وجاهليتها وجهالتها ـ ان اضعه في اخرها ·

هل تستطيع مصر ان تنعزل عن المصير العربي ؟

وهل يستطيع المصير العربي ان يعزل نفسه عن مصر ؟

وعلى فرض ان المشرق العربي سوف يكون وحده بعد عشرة سنوات او خمسة عشرة سنة قادرا على قبول التحدي الاسرائيلي وحده ـ فهل يقبل التاريخ من امة ان تخوض صراع حياتها بثلث قوتها ، بينما هناك من هذه القوة ثلثان خارج الصراع ، ثلث تمثله مصر المعطلة ، وثلث يمثله المغرب العربي المحتجز وراءها ؟!

اي منطق ؟

ومن يتحمل مثل هذه المسؤولية ؟

ولمـاذا ؟

□

ثم ان هناك نقطة هامة يجب ان نتنبه لها منذ الان ، وتلك هي ان المصير العربي لن يتقرر بنتيجة الصراع العربي الاسرائيلي وحده ·

ومع ان هذا الصراع العربي الاسرائيلي هو الصراع المركزي في وسط خريطة المنطقة الان ـ الا ان اطراف الخريطة محفوفة باحتمالات قد تنجم عنها اخطار صراعات اخرى محتملة :

● هناك صراع محتمل لحماية منابع البترول اذا تعقدت ازمة الطاقة مرة اخرى لاسباب سياسية او اقتصادية ، وقد سمعنا بالفعل تهديدات باحتلال منابع البترول ، وقد نعود الى سماع هذه التهديدات مرة اخرى ، وفي اي وقت·

● هناك صراع محتمل مع ايران بسبب مستقبل الخليج ، ومع اني واحد من الناس الذين يتمنون ان لا يحدث هذا الصراع وان تحل سلميا اية تناقضات عربية ايرانية ـ الا ان الحرص واجب خصوصا وان ايران تبني قوة عسكرية ضخمة اكثر مما يبدو أنها في حاجة اليه ، ثم هي تركز على السلاح الجوي وعلى القوة البحرية ، وهذا كله يشير الى انها تركز على النطاق الجنوبي في اتجاه الخليج ·

ومنذ شهور قليلة كادت ايران ان تقطع علاقاتها مع دول الخليج لان هذه الدول انشأت فيما بينها وكالة انباء اطلقت عليها اسم وكالة « انباء الخليج العربي » ، واعتبرت ايران هذه التسمية استفزازا لها لانها لا تعرف للخليج وصفا غير اسم « الخليج الفارسي » ·

● هناك صراع ، بل صراعات محتملة ، مع قوى عظمى ، ترى كما يرى كل الناس ان المنطقة الممتدة ما بين الخليج الى البحر الابيض هي عقدة مواصلات العالم البحرية ، ونحن في عصر عادت فيه القوة البحرية لتصبح ابرز رموز الهيبة لاي قوة عظمى تطلب لنفسها دورا عالميا سواء لحماية نفسها امام قوة عظمى ثانية او لبسط سيطرتها عبر القارات والمحيطات ·

وذلك كله يضاعف من اهمية دور مصر العربي حتى يكاد ان يجعله كما قلت في بداية هذا الحديث مفتاحا للموقف العربي كله !

□

وينقلنا ذلك الى قضية اخرى ·

فلقد يقال مثلا :

ـ نعم ··· دور مصر هو المفتاح ··· ولكن اي مصر ؟

وردي على ذلك هو :

ـ مصر الحالية ··· مصر انور السادات ·

وربما اضفت لكي تكون المواقف محددة انني اختلف مع كثير من ممارسات السياسة المصرية الحالية ، ولكن خلافي هو الحوار وليس خلاف الصدام لعدة اسباب شرحتها لكثيرين من جماعات الشباب القلق في مصر الآن الذي يبحث بشرف واخلاص عن طريق يطمئن للسير عليه ·

وكانت اسبابي كما يلي :

١ ـ انني بالفكر والاقتناع انتمي الى ما اصطلح على تسميته « بالناصرية » وهو مجموع المبادىء والممارسات التي طرحها جمال عبد الناصر على الساحة الوطنية وعلى الساحة القومية وعلى الساحة الدولية ·

ومع اني ادرك ان بعض هذه الممارسات شابها بعض الاحيان تجاوز في التطبيق ـ الا ان المبادىء سليمة والتجاوز في الممارسات مما يمكن اصلاحه وتقويمه وتطويره بما يلائم متغيرات العصر وحقائقه الجديدة ·

٢ ـ ان انور السادات اؤتمن على التجربة الناصرية ليس كخليفة لعبد الناصر فقط ، ولكن كشريك له ايضا ، ولقد حاول مثل اي بشر غيره معرضا « للتجربة والخطأ » ، ولكنه لم يتوقف مطلقا ـ كما فعل في خطاب قريب له امام اللجنة المركزية قبل سفرته الاخيرة الى اوروبا ـ عن اعلان التزامه بمجمل مبادىء واهداف وممارسات ثورة ٢٣ يوليو التي قادها جمال عبد الناصر ·

٣ ـ انني ادرك ـ وربما اكثر من غيري ـ ان بعض العناصر ـ من جهل احيانا ومن سوء نية في احيان اخرى ـ استغلت مرحلة انتقال طبيعية من قيادة الى قيادة ومن مزاج الى مزاج في اطار نفس التجربة ، لحاولت ـ ونجحت احيانا ـ في تشويه وجه الحقيقة ··· ولم يؤثر ذلك التشويه على روح مصر وحدها وانما امتد تاثيره ايضا الى قيمة وكرامة مصر امام امتها العربية ·

٤ ـ وبرغم ذلك كله يبقى اعتقادي بان مصر ··· هي مصر الراهنة اي مصر انور السادات ، والبديل عن ذلك دعوة للمغامرة الخطرة ··· او دعوة للمقامرة على المجهول ·

وبالتالي فان الخلاف مع مصر الراهنة يجب ان يكون خلافا بالحوار وليس خلافـا بالصدام ···

والا تعطل الدور المصري ··· وهو المفتاح في الموقف العربي ··· سوا ازاء ازمة الشرق الاوسط او ازاء صراعات المنطقة الاخرى ··· الممكنة او المحتملة !

هذا هو رأيي وقد قلته ··· واقوله !

□

و « صورة الحركة » ـ لكي نصل الى موضوعنا الاصلي ـ في الدور العربي في ازمة الشرق الاوسط صورة غريبة ، اشبه ما تكون بالصورة السلبية ··· « النجاتيف» كما تسميها لغة المصورين ، او « عفريت الصورة » كما تسميها اللغة الدارجة في مصر !

وهناك اسباب عديدة لذلك تداعت وتراكمت خلال الثلاثين شهرا الاخيرة :

١ ـ لقد نشبت خلافات بين مصر وسوريا ، اهم دول المواجهة ، ونشبت هذه الخلافات في ذروة الانتصارات العربية في الايام الاولى من حـــرب اكتوبر ·

خلافات حول العمليات المتفق على تنفيذها بمقتضى خطة « بدر » ·
وخلافات حول قصة وقف اطلاق النار في اوائل ايام الحرب ·

ثم خلافات حول القبول بقرار مجلس الامن رقم ٣٢٨ ، والذي تم بمقتضاه وقف القتال على الجبهة السورية فيما بعد ·

٢ ـ طرأت بعد ذلك خلافات على اتفاق فض الاشتباك الاول الذي تـــم

التوصل اليه في اسوان في اواخر ايام سنة ١٩٧٣ واوائل ايام ١٩٧٤ ·

وكان المتصور والمطلوب ان يكون فض الاشتباك بتوقيت واحد على الجبهتين

وفي نفس اللحظة ، باعتبار بل وبحق ان النار انطلقت منهما على العدو في توقيت واحد وفي نفس اللحظة ·

ولكن ذلك لم يحدث لاسباب لا مجال لاعادة الحديث فيها الآن ·

٣ ـ وكان في استطاعة اطراف عربية ثالثة ان تتدخل في هذه الخلافات ، وقد تدخلت هذه الاطراف العربية بالفعل ، ولكن تدخلها كـــان بالطريقـــة التقليدية التي يسميها الملك حسين ملك الاردن « سياسة تقبيل اللحى ». ولكـن طبيعة المشاكل بين مصر وسوريا في ذلك الوقت كانت اكثر من قدرة « سياسة تقبيل اللحى » ، فهذه السياسة قد تستطيع حل قضية ثار قديم او نزاع قبيلتين على بئر ماء ، ولكنها بالقطع لا تستطيع ان تحل قضايا استراتيجية ومشاكـل حرب وسلام ·

٤ـ تعقد الموقف اكثر باتفاقية فصل القوات الثانية في سيناء في شهر سبتمبر ١٩٧٥ ، وانقسمت دول المواجهة بعد ذلك الى قسمين ، مصر في جانب، وسوريا والثورة الفلسطينية والاردن في جانب اخر ، وتصاعدت خلافـــات الجانبين الى حرب باردة والى قصف متبادل بوسائل الاعلام وبالخطـــب والتصريحات كانها كرات النار الطائرة ·

٥ ـ وكانت هناك قوى دولية تمنت مثل ذلك منذ البداية ، وسعت الى تعميق الهوة حين وجدتها امامها ، وسكبت البترول على النار تتظاهر بدور جنـدي المطافىء ، وهي في الحقيقة تقوم بدور الشياطين المكلفة بحفظ درجة الحـرارة في جهنم الحمراء !

□

هكذا تعطل دور مصر المركزي في العالم العربي ·

لم يتعطل في ازمة الشرق الاوسط فحسب ، وانما تعطل فيما هو ابعد منها ·

واهمية دور مصر العربي في الحقيقة هو انه دور التحريك المستمر فيه . اما نحو ايجاد تيار عربي غالب يشد اوسع الجماهير الى اتجاه اهداف معينة. واما نحو اجماع عربي شامل يشد العالم العربي ـ الجماهير فيه والدول الـى اتجاه اهداف معينة اخرى ·

عندما تعطلت قوى « التحريك » المصرية نحو اهداف عربية معينة ـ ممارسة الصراع العربي الاسرائيلي ، التغيير الاجتماعي . التحديث العلمي والاداري

والثقافي الى أخره ـ تباطات الحركة العامة في العالم العربي . وتفجــرت نتيجة لذلك اشكال والوان من التناقضات المحلية والفرعية ٠

ومثل هذا يحدث دائما وحدوثه ظاهرة طبيعية ٠

اذا استحال تقدم تيار ماء الى الامام لان سدا قام باعتراضه ، فان تيـار الماء يتراجع الى الوراء ويبحث لنفسه عن مســارب خلفية او فرعية يتبعثر فيها ، ويفرغ في ضياعه طاقة اندفاعه ٠

هكذا انفجرت مشاكل وقضايا لم يكن ذلك وقتها ٠

انفجر نزاع على مياه الفرات بين العراق وسوريا ٠

وانفجر نزاع عل الصحراء بين المغرب والجزائر ٠

ثم كانت الكارثة ، تلك الانفجار الدموي الرهيب في لبنان . والذي كان في حقيقته حربا اهلية عربية دارت على الجبل والساحل ، وعصفت عصفــا بحاضر ومستقبل وطن من احلى اوطان الامة العربية ٠

□

ثم ماذا ؟

والى اين من هنا ؟

هل نقف كما نحن الآن وكاننا شخوص في مأساة اغريقية كتبتها الاقدار . ولا فكاك منها بمنطق ان « ما هو مكتوب على الجبين لا بد ان تراه العين » ؟

وهل ننتظر في ازمة الشرق الاوسط حتى تقول لنا الولايات المتحدة :

ـ لا حركة الا بعد انتهاء انتخابات الرئاسة الامريكية في نهايــة سنــة ١٩٧٦ » ٠

٠٠٠ قالتها فعلا !

وهل ننتظر في ازمة الشرق الاوسط حتى تقول لنا اسرائيل :

ـ لا كلام عندي الا بعد انتهاء انتخابات الكنيست الاسرائيلي في نهايــة سنة ١٩٧٧ » ٠

... سوف تقولها !

هل نقف في انتظار هذا كله . كما فعل بطل قصة ، في انتظار جودو ، التي كتبها صمويل بيكيت . الذي طال انتظاره من اول سطر في القصة الى آخر سطر فيها لشبح لم يظهر له قط لانه لم يكن له وجود قط .

... او هل نتحرك ؟

□

اخشى انني واحد من الناس الذين لا يرون طريقا للحركة الا ان تكون بداية عودة الحوار بين مصر وسوريا والثورة الفلسطينية . ★

حوار يتجاوز عما وقع ولا يتوقف امامه وكانه مقادير لا ترد .

حوار يستهدف وضع استراتيجية مشتركة .

حوار يعرض بعد ذلك على مؤتمر عربي على مستوى القمة ليتحول فيه الى استراتيجية مواجهة شاملة للصراع العربي الاسرائيلي . ولاي صراع ممكن او محتمل غيره .

استراتيجية تمنحنا فرصة لحياة كريمة .

او استراتيجية تمنحنا الفرصة لموت غير رخيص .

على الاقل لا نفاجأ يوم عبور خطوط المواجهة بمن يقول لنا في صلافة وجبروت :

ـ قفوا مكانكم ... هذه في يدي قنبلة ذرية !

★ كتب هذا الحديث في يناير ١٩٧٦ ـ وفي اكتوبر اي بعد تسعة شهور عاد الوفاق بين مصر وسوريا وعقد مؤتمر عربي على مستوى القمة .

المجموعة رقم (٢)

كارتر وأولوياته
وأزمة الشرق الأوسط بينها

(كتبت في نهاية سنة ١٩٧٦)

الحديث الخامس

من هنا ولعدة اسابيع متصلة سوف تظل عيون العالم واذانـــه مركزة علـى « واشنطن » تحاول ان ترى وتسمع كل حركة وكل همسة تصدر عن البيت الابيض الامريكي وساكنه الجديد « جيمي كارتر » ٠

ما زال امامه حتى ٢٠ يناير القادم ليتولى سلطاته ٠٠٠

وما زالت هناك بعد تولي السلطات فترة المائة يوم الاولى التي تبدو فيها ملامح اتجاهاته والاشارات الى اولوياته ٠

ومع ذلك فانه منذ الان ـ وقبل ٢٠ يناير وقبل المائة يوم التالية لها ـ يحـــاول الكل استباق الحوادث لان مـــا يجري في عاصمتين اثنتين بالتحديد ، همـــا « واشنطن » و « موسكو » ، له اكبر التاثير على مصائر العالم كما نعرفه الان ٠

وليس هناك شك في ان واشنطن اشد اثارة من موسكو لعـــدة اسباب عامـــة وخاصـــة ٠

● اول الاسباب العامة ان واشنطن مفتوحة ، والتحركات فيها مرئية،وصوت الحـــوار مسموع ٠

● واول الاسباب الخاصة ان واشنطن هذه الايام على وشك ان تستقبل رئيســا جديدا يرتدي مسوح « مبشر رسولي » ، وهو رجل جاء من المجهول ـ كما قيـــل لي في لندن ـ وفوق ذلك فهو رجل لم تسبق لمبالشئون الدولية خبرة ٠ والطريقة التي يتصرف بها ازاء المشاكل وتحت ضغوط الازماتمفتوحة لكل الاحتمالات ٠

٠٠٠ هكذا فان الشاغل الاكبر الان لكل الذين « يتعاطون » السياسة ويهتمون بامورها هو البحث عن اتجاهات واولويات « جيمي كارتر » ٠

والبحث يدفع باصحابه الى مسالك مالوفة احيانا والى مسالك وعرة في احيان اخرى ، فالبعض يبحث بمنطق التاريخ والبعض يبحث باسلوب « اجاثا كريستي » في كتابة الروايات البوليسية ، ولكن الجميع يبحثون !

ومع ذلك لا أظن ان الامر يحتاج الى الغوص في كل الالغاز التي يحاول بهـــا اصحاب اسلوب الروايات البوليسية احاطة شخصية « كارتر » وسياساته ٠

كل ما هناك ان الرجل غريب عن واشنطن ، ثم ان الرجل قـــادم من الجنوب ٠ ولكن ذلك لا يخرجه من اطار التاريخ ولا يعفيه من « الضرورات الامريكية » كمـا عرفناها ونعرفها ، وكما عبر عنها « جيمي كارتر » نفسه في حملته الانتخابية التي هي حتى الان اضمن المفاتيح لفهم شخصيته ، خصوصا اذا ذكرنا كلمته المشهورة « ان وعودا قطعتها هي سياسات انفذها » ٠

ـ ١ ـ

واذا تركنا أسلوب الروايات البوليسية واعتمدنا على منطـــــق التاريـــخ والضرورات الامريكية وحملة كارتر الانتخابية ـ اذن فاننا نستطيع ان نتصـــور ان الوضع الاقتصادي في الولايات المتحدة سوف يكون هو الاولوية الاولى بالنسبة لجيمي كارتــر ٠

واعتقد ان خطواته الافتتاحية في البيت الابيض سوف تمشي في اطار الموقـف الداخلي الامريكي ٠

وعده الاول هو مواجهة البطالة لان عدد العاطلين في امريكا زاد الان عـــن ثمانية ملايين ، ومعظم هؤلاء من الزنوج، وقد نتذكر ان تسعين في المائة من الزنوج اعطوا اصواتهم لجيمي كارتر ، واذن فهم قاعدة اساسية من قواعده الثابتة ٠

لكن مواجهة مشكلة البطالة تعني زيادة الانفاق ، وزيادة الانفاق تؤدي حتمـا الى المزيد من التضخم ، وهذا ما يعارضه « ارثر بيرنز » رئيس مجلس إدارة بنـك الاحتياطي الفيدرالي الامريكي ٠

و « كارتر » ـ واي رئيس امريكي غيره ـ لا يملك ان يتصرف بغير مشـــورة رئيس مجلس ادارة بنك الاحتياطي الفيدرالي الامريكي ٠ والمشكلـة ان منصـــب رئيس مجلس ادارة هذا البنك ليس من المناصب التي تخلو تلقائيا مع قيام نظـام جديد في واشنطن ، فرئيس مجلس ادارة هذا البنك يعين لمدة عشر سنوات ، وهو غير قابل للعزل قبل انتهاء ولايته الا اذا اثر هو الاستقالة تجنبا للصدام الىنهايته مع الرئيس الامريكـي ٠

وهكذا فاننا نستطيع ان نتصور شكل الحوادث القادمة في واشنطن على النحو التـالي :

محاولة من « كارتر » لمواجهة مشكلة البطالة تجر الى زيادة الانفاق ٠

ثم محاولةمن رئيس مجلس ادارة بنك الاحتياطي الفيدرالي الامريكي لدرء خطر

التضخم ... واحتمال ازمة بين الاثنين .

وربما كان الحل الوسط ان يتجه « كارتر » في زيادة الانفـــاق الى الاسكان ، فاستثماراته قليلة نسبيا ، ثم هي تقتضي عمالة كبيرة ، ثم ان مجاله هو الـــذي يستطيع استيعاب ايدي عاملة كثيرة لا تتميز بمهارات خاصة... اي انه على هذا النحو حل موجه بالتحديد الى ظروف الزنوج الراهنة في الولايات المتحدة .

ـ ٢ ـ

اتصور ان الخطوة الثانية في قائمة اولويات « كارتر » سوف تكون ازمة الجنيه الاسترليني ، ذلك ان ازمة الجنيه الاسترليني لها آثار في منتهى الاهمية من وجهـة نظر السياسة الامريكية :

● ضعف الجنيه الاسترليني يؤثر على اقتصاديات الغرب عموما .

● وضعف الجنيه الاسترليني يعطل قيام بريطانيا بدور لها في اوروبا الغربيـــة وخارج اوروبا الغربية ، وهو دور لم يتهيأ لغيـــر بريطانيـا حتى الان . فالمانيـا الغربية ليست لها القدرة عليه رغم قوتها الاقتصادية ، وفرنسا ما زالت دونه لانها في راي كثيرين في الولايات المتحدة ما زالت محكومة بعقدة وطنيتها الخاصة كمـا رسمها « شارل ديجول » .

● ثم ان ضعف الجنيه الاسترليني كمؤشر على حدة الازمة الاقتصادية فـــي بريطانيا قد يؤدي الى سقوط وزارة حزب العمال برياسة « جيمس كالاهان » فــي اية انتخابات عامة قادمة . واذا حدث وسقطت حكومة العمال وخلفتها حكومـــة المحافظين برئاسة المسز « تاتشر » فان هذه الحكومة سوف تدخل في مواجهات خطرة مع اتحادات نقابات العمال ، وبعض ذلك حدث فعلا في اواخر ايام وزارة « تيد هيث » .

واذا جرت مثل هذه المواجهات الخطرة فانها سوف تؤدي الى عمليـة استقطاب حادة داخل المجتمع البريطاني تجرفه اكثر نحو اليسار، وهذا ما لا تريده واشنطن وبـــون ، خصوصا مع تزايد قوة التحالف الاشتراكي الشيوعي في باريس ، ومع تزايد قوة الحزب الشيوعي في رومـــا .

وهناك تسليم كامل بان ازمة الاسترليني لا يمكن حلها عن طريق طلـــب قرض بعد قرض من صندوق النقد الدولي ، فضلا عن ان صندوق النقد الدولـــي قد يفرض شروطا يستحيل قبولها سياسيا في بريطانيا .

وكان الرئيس الامريكي « جيرالد فورد » ووزير خارجيته « هنري كيسنجر » ، ومعهما « هيلموت شميدت » مستشار المانيا الغربية ، على دراية كاملة بالمشكلـة البريطانيـــة .

وقبل الانتخابات الامريكية ، فان « شميدت » قام بنشاط ملحوظ في سبيل حل المشكلة البريطانية ·
اجرى اتصالات مكثفة مع واشنطن ، واجرى اتصالات مكثفة مع بريطانيا ، ثم توصل الى ضرورة تقديم قرض ضخم وسهل تشترك امريكا والمانيا الغربية في تقديمه لبريطانيا حتى تستطيع حل مشاكلها مرة واحدة ·

تستخدم جزءا منه في مواجهة العجز في ميزان مدفوعاتها ·

ثم تستخدم الباقي – وهو الجزء الاكبر – في برنامج ضخم لتجديد طاقتها الصناعية التي تحتاج اكثر ما تحتاج الان الى جرعة قوية من الاستثمارات حتى يستطيع بترول بحر الشمال ان يؤدي دوره في الصعود بقوة الانتاج البريطاني ، وذلك منتظر في حوالي سنة ١٩٨٠ ·

ولو ان الفوز في الانتخابات الامريكية جاء من نصيب « فورد » لكان هذا القرض الضخم لبريطانيا قد جرى اعلانه ، وبدأت اجراءات تنفيذه ، ولكن نجاح « كارتر » ادى الى تعطيل المشروع وان لم يؤد الى الغائه لان « كارتر » ايضا يدرك اهمية الدور البريطاني واهمية الاقتصاد البريطاني في فاعلية هذا الدور – ولكنه لا يستطيع ان يعطي لفورد حق التصرف في الوقت الذي لم يملك هو فيه بعد هذا الحق قبل بدء ولايته الرسمية ·

واعتقد ان اتصالات دارت بالفعل بين رئيس الوزارة البريطانية « جيمس كالاهان » والرئيس الامريكي المنتخب « جيمي كارتر » ، واتذكر ان احد اعضاء مجلس الوزراء البريطاني قال لي اخيرا في لندن :

– ان ازمة بريطانيا وتاثيرها على الغرب كله واضحة حتى لرجل قادم من مجاهل الجنوب الامريكي ·

لقد تحملت بريطانيا عبء الدفاع عن العالم الغربي كله ضد « هتلر » واستنفذت في هذا السبيل مدخراتها ورهنت مواردها ، وذلك في وقت كانت المانيا فيه اداة طيعة في يده ، ولم تقاوم فرنسا غير اسابيع ثم استسلمت ، وتاخرت الولايات المتحدة ثلاثين شهرا قبل ان تدخل الحرب ·

ولم نحمل عبء الدفاع عن الغرب ضد « هتلر » فقط ، ولكننا حتى الان نحمل عبئا كبيرا في امن اوروبا ، والدليل على ذلك وجود جيش الراين البريطاني بتكاليفه الباهظة علينا حتى الان في المانيا ·

وفي اسيا وافريقيا فان لنا – وما زالت – مسئوليات خاصة تهم الغرب كله ·

ثم ان هناك ادوارا في سياسة الدفاع عن « العالم الحر » لا يستطيع غيرنا ان يقوم بها الى جانب الولايات المتحدة » ·

ثم استطرد الوزير البريطاني يقول :

ـ حتى في ازمة الشرق الاوسط ، فانكم واطراف عربية اخرى تطالبوننا بالاشتراك في ضمانات السلام ·

صحيح ان بريطانيا فقدت امبراطوريتها ، ولكنها لم تفقد دورها ·

ـ ٣ ـ

لا اظن ان احدا يختلف معي اذا وضعت « التنسيق ضمن المعسكر الغربي » في المكانة الثالثة من اولويات « جيمي كارتر » ·

وفي الحقيقة فانه لولا الظروف الخاصة بالاقتصاد الامريكي ، ولولا ازمة الجنيه الاسترليني ، لكان « التنسيق ضمن المعسكر الغربي » هو الاولوية الاولى لجيمي كارتر» ، وذلك طبيعي **لان اي رئيس امريكي ـ شانه في ذلك شان اي قائد لتحالف واسع بين مجموعة من الامم ـ مطالب قبل اي شيء اخر بان يتاكد من ان معسكره كله في احسن وضع يستطيع منه مقابلة تحديات «المعسكر الاخر»،ولا اقول معسكر « الخصوم » او معسكر « الاعداء » !**

والطريق مزدوج ·

« جيمي كارتر » ـ شانه شان اي رئيس امريكي غيره ـ يريد ان يتعرف وان يطمئن على حالة « معسكره » ·

و « المعسكر الغربي » كله يريد ان يتعرف ويطمئن على القائد الجديد الذي دفعته الظروف الى مركز القيادة في التحالف ·

وفي العادة فان اي رئيس امريكي يختار فترة الربيع التالية لولايته مباشرة ويقوم باول رحلة له في اوروبا الغربية ·

«ايزنهاور» فعل ذلك رغم انه كان يعرف اوروبا الغربية تماما منذ تولي قيادة جيوشها المشتركة ·

و « كنيدي » فعلها وذهب الى برلين الغربية ليقول كلمته المشهورة «انا برليني» ·

و « جونسون » و « نيكسون » كلاهما سار على نفس الطريق عبر الاطلنطي في رحلة استكشاف اولى وتعارف في اوروبا الغربية ·

ولكن « كارتر » اعلن في سياق هجومه على الجمهوريين الذين سبقوه الى الحكم في امريكا انه لا يريد ان يقلد « نيكسون » و « فورد » في الرحلات السياحية الكثيرة التي قاما بها . وكان وصف « كارتر » لهذه الرحلات هو انها **عمليات « هرب من المشاكل الامريكية الحقيقية من ناحية ،ومن ناحية اخرى فانها كانت عمليات تهدف الى الدعاية في امريكا قبل الدعوة لها وسياساتها » ·**

ومن هنا ، فانه قد لا يقوم برحلة الربيع التقليدية الى اوروبا ٠

والحل المطروح الان هو مؤتمر قمة اقتصادي لدول الغرب الصناعية الكبرى يعقد في طوكيو عاصمة اليابان ★ ، ويكون استكمالا لاعمال قمة « رامبوييه » في فرنسا ، وقمة « بورتوريكو » بعده ٠

ويبدو هذا المؤتمر فرصة عمل وليس فرصة سفر ٠

ثم يكون البحث فيه حول الاوضاع الاقتصادية للغرب ، وهو موضوع الساعة٠
ثم تكون فرصته هي المناسبة المطلوبة للتعارف والاطمئنان من الجانبين ٠

وشهر مارس هو الشهر المقترح لمثل هذا المؤتمر ٠

ـ ٤ ـ

والتداعي المنطقي يجيء بالقضية الرابعة في قائمة اولويات « كارتر » وهي العلاقات مع موسكو ٠

ان قائد التحالف الغربي ـ بعد ان يتعرف ويطمئن على احوال معسكره ـ مطالب بان يحاول استكشاف وتقدير احوال « المعسكر الاخر » ولا اقول ايضا معسكر « الخصوم » او « الاعداء » ٠

والعلاقة بين « كارتر » و « الكرملين » تحتاج الى فهم اعمق من فهم هؤلاء الذين يقفزون من الان ليقولوا ان « كارتر » سوف ينقض على سياسة الوفاق لانه لا يؤمن بها كما كان يؤمن بها « نيكسون » و «فورد» تحت تاثير وزير خارجيتهما « هنري كيسنجر » ٠

والواقع ان سياسة الوفاق ليست من اختراع « هنري كيسنجر » ، وان «هنري كيسنجر » قد احسن فهمها والتعبير عنها ٠

ان سياسة الوفاق حقيقة تاريخية معاصرة انشانها استحالة الحرب بين العملاقين ، وهي موجودة لتبقى طالما بقيت موازين الردع كما هي الان ، وكما ستظل لسنوات طويلة . وليس أمام « كارتر » ـ او غيره ـ الا ان يراعي هذه الحقيقة التاريخية المعاصرة ، وان اختلف تعبيره عنها عن تعبير « نيكسون » و « فورد » و « كيسنجر » . وقد حرص « كارتر » حتى من قبل ان ينجح في الانتخابات على نقل رسالة منه بهذا المعنى الى « بريجنيف » شخصيا ، وكان حامل هذه الرسالة هو « افريل هاريمان ».وكان اختياره من قبل « كارتر » لحمل هذه

★ تقرر بعد ذلك عقد مؤتمر القمة لدول الغرب الصناعية الكبرى في لندن بدلا من طوكيو وتم انعقاده في مايو ١٩٧٧ ٠

الرسالة هو الرسالة في حد ذاتها ·

ان « افريل هاريمان » من اكثر الديمقراطيين خبرة بالشئون الدولية ، وعلاقتـه بالاتحاد السوفيتي تعود الى اكثر من اربعين سنة حينما اختـــاره « فرانكليـن روزفلت » في زمن الحرب العالمية الثانية ليكون رسوله الى « جوزيف ستالين » ، وفي تلك الظروف فان « هاريمان » اصبح اول دعاة التفاهم بين واشنطن وموسكـو بصرف النظر عن اختلاف العقائد وتعارض السياسات ·

وقال لي زعيم فرنسي بارز :

ـ اختيار « هاريمان » في حد ذاته ملفت للنظر ··· وهـــو نفسه ـ بلحمـــه وشحمه ـ رسالة « كارتر » الى « بريجنيف » ، بصرف النظر عن الكلمات التـــي حملها من « بلينز » ـ قرية « كارتر » ـ الى « الكرملين » ـ مقر « بريجنيف » ·

انني اعرف « هاريمان » جيدا ، وهو اخر من يصلح لنقل رسالة بالكلمــات . فالرجل في سن الخامسة والثمانين ، مصاب بصمم كامل لا يمكنه من سماع حرف واحــد يقال له ·

ولكن « كارتر » قصد باختياره ان يقول « لبريجنيف » وبغير واسطة الكلمات :

ـ ان رسولي اليك هو رسول « روزفلت » الى « ستالين » ايام تحالفهما العظيـم في الحرب العالمية الثانية ، وهو في نفس الوقت ابرز صناع سياسة التقارب بين واشنطن وموسكو ··· انني ابعث به اليك كرمز قبل ان ابعث به اليك كرسالة » !

واستطرد محدثي الفرنسي يقول :

ـ واظن ان « بريجنيف » فهم معنى الرسالة ··· استقبل « هاريمان » كرمز . وحين اراد ارسال رد بالكلمات اختار «ويليام سايمون » وزير المالية الامريكـــي لينقل الى « كارتر » رسالة مؤداها انه ـ بريجنيف ـ لن يحاول احراج « كارتر » في بداية مدة رئاسته لكي يختبر صلابته كما فعل « خروشوف » مع « كنيدي » عندما التقيا معا في فيينا في بداية عهد كنيدي ·

واتذكر ان « خروشوف » قال لي مرة انه قصد ان يضع الرئيس الامريكي فـــي محله من اول لحظة ، وانه عندما انتهى لقاؤهما الاول في مبنى السفارة الامريكية فيينا ، كان « كنيدي » مثل « عصفور تحت المطر !

وربما كانت المشكلة التي سيواجهها « كارتر » عندما يختار اسلوبه لممارسـة سياسة الوفاق هي ان عددا من الخبراء العسكريين ـ وغير العسكريين ـ فـــي الولايات المتحدة واوروبا الغربية يعتقدون ان الاتحاد السوفيتي انتهز فرصــة « استرخاء الوفاق » ثم عزز قوته ·

وهؤلاء الخبراء ، وبينهم الجنرال « الكسندر هيج » القائد الامريكي لقوات حلف الاطلنطي ، **يشيرون الى شواهد يرونها من وجهة نظرهم مدعاة للتنبه قبل ان يفوت الوقت :**

● بين هذه الشواهد ان قوات حلف وارسو تغيرت اوضاعها واستعداداتها من اوضاع الدفاع الى اوضاع الهجوم ، فقد لوحظ في مناورات حلف وارسو الاخيرة ان عمليات جرت لعبور انهار بواسطة جسور اوتوماتيكية جديدة تستطيع ان تصل ضفة بضفة اخرى بنفس سرعة ناقلات الجنود •

● وبين هذه الشواهد ان الاتحاد السوفيتي جرب اخيرا اطلاق صاروخ متعدد الرؤوس النووية من غواصة في قاع البحر ، وهذا تقدم خطير ، ويضاعف من خطورته أن اسطول الغواصات السوفيتي يزيد الان اكثر من مرتين على اسطول الغواصات لدول حلف الاطلنطي مجتمعة !

● وبين هذه الشواهد ان اعتمادات الدفاع المدني في الاتحاد السوفيتي وصلت في السنة الماضية الى ثمانية الاف مليون دولار ، في حين ان اعتمادات الدفاع المدني في الولايات المتحدة لم تزد في السنة الماضية عن ستمائة الف دولار •

وهذه كلها شواهد لها معانيها ، وامور وراءها ما وراءها !

ومهما يكن فان « كارتر » سوف يجد اسلوبه في ممارسة سياسة الوفاق ، خصوصا وان الحوار بينه وبين « الكرملين » متصل منذ شهور • وفي الحقيقة فان هذا الحوار متصل منذ شهر مايو الماضي ، ومنذ تنبأ الاستاذ « أرباتوف » مدير معهد شئون امريكا التابع للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي ـ وهو اكثر المراكز السياسية في العالم خبرة بأوضاع امريكا ـ بفوز « كارتر » في الانتخابات على « فورد » في وقت كانت هناك عواصم عالمية فيه تراهن على فوز « فورد » باعتبار ان الرئيس « القاعد » في البيت الابيض تصعب هزيمته !

الحوار مستمر ـ كما قلت ـ مع اعتقاد الاتحاد السوفيتي ـ وهو اعتقاد صحيح ـ بان « كارتر » لن يحدد مواقفه ـ من ناحية الاسلوب ـ بطريقة نهائية ، الا بعد دخوله الى البيت الابيض ، لانه يدرك ـ كما يدرك معظم مستشاريه ـ ان هناك مسائل لا يمكن البت فيها قبل كامل الاطلاع على ملفات واوراق الحكومة الامريكية •

وكان ابرز نموذج لذلك ـ رآه الاتحاد السوفيتي وفهمه ، ولم نره نحن في العالم العربي ولا فهمناه ـ ان « كارتر » رفض ان يتورط في موضوع تحذير دول « الاوبيك » من رفع اسعار البترول •

وكان كيسنجر قد رجا الرئيس الامريكي المنتخب ان يوجه تحذيرا الى دول

« الاوبيك » حتى لا ترفع اسعار بترولها ، لان ذلك يضر باقتصاديات الغرب . وكان رأي « كارتر » انه لا يستطيع ان يفعل ذلك ، والا كان معناه انه يتخذ مواقف مسبقة ويتبنى سياسات رسمها النظام الذي سبقه . وهو لا يستطيع ان يفعل ذلك الا اذا كانت امامه جميع المعلومات يطلع عليها بنفسه ، ولا يقبل في شأنها شهادة احد حتى ولو كان « هنري كيسنجر » ٠

وقصارى ما رضي به «كارتر» هو ان يبعث برسول رسمي يمثله، وهو «جيمس اينكينز » ، يطوف بعواصم دول « الاوبيك » وينقل رسالة منه الى المسئولين فيها ترجوهم « ان يأخذوا في اعتبارهم ازمة الغرب الاقتصادية » لا اكثر ولا اقل !

ـ ٥ ـ

تجيء الاولوية الخامسة « لجيمي كارتر » ، واعتقد انها افريقيا !

ان ما يحدث في جنوب القارة له آثار بعيدة المدى على الاتجاهات السياسية لحركات التحرر الوطني فيها ، وعلى مصير الثروات الطبيعية الهائلة هناك ،وعلى مستقبل العناصر البيضاء التي تسكن عند الجنوب الاقصى من القارة السوداء ٠

ومن الواضح ان الغرب قد استسلم فيما يتعلق بروديسيا ٠

وفي نفس الوقت فانه من الواضح ان الغرب يريد ـ باي ثمن ـ ان يحافظ على جنوب افريقيا ٠

وفيما يتعلق بروديسيا فان على « كارتر » ان يتأكد من ان اتفاقا قد امكن التوصل اليه في جنيف لنقل السلطة من الاقلية البيضاء الى الاغلبية الساحقة السوداء ، وعليه ان يتاكد ان هذا الاتفاق سوف ينفذ ويتم انتقال السلطة فعلا الى عناصر معتدلة يستطيع الغرب ان يتعاون معها ٠

ذلك ان معنى عدم الوصول الى حل سياسي ـ هو ان الزمام سوف ينتقل الى ايدي « المقاتلين من اجل الحرية » يفرضونه بقوة السلاح ـ وهذا بدوره يعني الاعتماد على الاتحاد السوفيتي ٠

ولقد تعلمت الولايات المتحدة درس « موزمبيق » و « انجولا » ، وهي لا تستطيع ان تسمح ـ بسهولة ـ بتكرار ذلك في«روديسيا» ـ فتلك المناطق كلها هي ببساطة مناطق لا يمكن السماح بضياعها او بخروجها عن دائرة النفوذ الغربي ٠

والاسباب واضحة : في هذه المناطق ٧٠في المائة من ذهب العالم ، و ٩٠ في المائة من ماس العالم ، و ٥٠ في المائة من نحاس العالم ، و ٤٠ في المائة من يورانيوم العالم ، وهناك غير ذلك كثير تمثله مصالح واستثمارات غربية تبلغ

قيمتهـا ثمانمائة بليون دولار ·

والذين تحدثوا الى « جيمي كارتر » في شان افريقيا وجدوه شديد الاهتمـام بما يجري فيها لعدة أسباب :

● **العرض** على مصالح غربية معرضة الآن ومكشوفة ·

● **الخشيةمن** « دخول » سوفيتي الى جنوب القارة يؤدي الى قيام ما يسميـه انظمة راديكالية هناك ، يؤثر قيامها بدوره حتى على الانظمة «المتعاونة» فيمالاوي وفي زائير وفيكينيا الى اخره ·

● **الاهتمام** الذي يبديه زنوج امريكا ـ وهم من صلب قواعد « كارتر » ـ نحـو القارة الام التي تنبهوا اخيرا الى انتمائهم ـ جذورا واصولا ـ اليها ·

□

ولعلي كنت اقول ان ازمة الشرق الاوسط تنازع افريقيا في الاولوية الخامسـة من قائمة اولويات « جيمي كارتر » ·

لكن « جيمي كارتر » ـ فيما اظن ـ يرجح اسبقية افريقيا لان المشكلة ساخنة ، ولان حرب العصابات السوداء تزيد ، ولانها اذا زادت عن حد معين تعـذرت السيطرة عليها بحل سياسي معتدل ، ولان زعماء دول المواجهة السوداء بقيـادة « جوليوس نيريري » يضغطونبكل قواهم ·

وذلك في حين ان ازمة الشرق الاوسط شبه باردة ·

وانها مشغولة بصراعات الداخل السياسية والاجتماعية عن الصراع الرئيسي مـع العدو ·

ثم ان هناك في الشرق الاوسط ـ على عكس ما هو حادث في افريقيا ـ عناصر محلية لها مصلحة في السيطرة على تفاعلات الصراع وحصرها في نطاق معين ·

هكذا تتقدم افريقيا الى الاولوية الخامسة في قائمة « كارتر » ·

وتستقر ازمة الشرق الاوسط في المكانة السادسة من هذه القائمة ·

. . . . . .

. . . . . .

ثم تستحق ازمة الشرق الاوسط حديثا من اوله !

الحديث السادس

لا اعرف لماذا كان بعض الساسة العرب يفضلون نجاح « جيرالد فورد » على « جيمي كارتر » في انتخابات الرئاسة الامريكية ؟

وفي نفس الوقت فلست واثقا من انه كان الاوجب عليهم تفضيل نجاح « جيمي كارتر » على « جيرالد فورد » !

ولعل الاختيار الافضل بالنسبة لنا جميعا كان اتخاذ موقف الحيطة والحذر مدركين بأن « جيمي » و « جيرالد » يتساويان فيما يتعلق بنا ، وان ايا منهما لن يقدم لنا حلا على طبق من ذهب و فضة ، وانما سيقدم لنا ما يتناسب تماما مع حجم ارادتنا وقوة ما تملكه هذه الارادة من وسائل الضغط والتاثير ، وليس هناك – غير ذلك – اي اعتبار لشيء اخر ٠

ولو اننا فعلنا ذلك لوفرنا على انفسنا ظنونا نحن في غنى عنها ، كالظن باننا نقحم انفسنا على شئون الاخرين ، وكالظن باننا راهنا على الجواد الخاسر ، وكالظن بانا لا نعرف كيف نحسب او نحاسب !!

وهذه النقطة الاخيرة – نقطة اننا لا نعرف كيف نحسب او نحاسب – تعنيني على وجه التحديد بالنسبة لهؤلاء الذين فضلوا « جيرالد فورد » وتمنوا فوزه في انتخابات الرئاسة – ذلك انني ازعم ان اسرائيل لم تجد لها قط في البيت الابيض صديقا احسن ولا اخلص من «جيرالد فورد »، والارقام تتكلم ، والتصرفات ناطقة، والاعترافات تغني عن التفسير والتاويل !

● الارقام تقول (ومصدرها بيان انتخابي للرئيس جيرالد فورد بتاريخ ٢٤ اكتوبر ١٩٧٦ ، وقد نشر في كل الصحف الامريكية) – بما يلي :

□ في فترةسبعة عشر عاما متصلة من سنة ١٩٤٩ الى سنة ١٩٦٥ (رئاسات ترومان وايزنهاور وكنيدي) حصلت اسرائيل من الولايات المتحدة علىمساعدات مجموعها ١٠٦٥ مليون دولار – اي بمعدل ٦٠ مليون دولار كل عام ٠

□ في ميزانية ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧ (رئاسة جونسون) **حصلت اسرائيل على مساعدات قيمتها ١٥٠ مليون دولار ٠**

● **ونجيء الى رئاسة نيكسون (ومعه كيسنجر) ٠**

□ في ميزانية ١٩٧٠ ـ ١٩٧١ (رئاسة نيكسون الاولى) **حصلت اسرائيل على مساعدات قيمتها ٧٢٨ مليون دولار ٠**

□ فيميزانية ١٩٧٢ ـ ١٩٧٣ (رئاسة نيكسون الثانية) **حصلت اسرائيل على مساعدات قيمتها ٩٤٦ مليون دولار ٠**

● **ثم نصل الى رئاسة « جيرالد فورد » (ومعه كيسنجر) الذي تمنينا فوزه على جيمي كارتـر ٠**

□ في ميزانية ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥ (السنة الاولى لحكم فورد) **حصلت اسرائيل على مساعدات قيمتها ٢٣٩١ مليون دولار ٠**

□ وفي ميزانية ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧ (السنة الثانية لحكم فورد) **حصلت اسرائيل على مساعدات قيمتها ٤٤٦٠ مليون دولار ٠**

هذا ما تقوله الارقام !

● **فاذا ما وصلنا الى التصرفات** فانه يكفينا ان نتذكر تصريح المتحدث الرسمي باسم البيت الابيض بتاريخ ١١ اكتوبر ١٩٧٦ بعد اجتماع « جيرالد فورد » مع « ايغال الون » نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية الاسرائيلي ، وهو التصريح الذي اعلن فيه المتحدث الرسمي باسم البيت الابيض « **ان الرئيس الامريكي قدم لاسرائيل شحنة اسلحة خاصة ذات طبيعة متقدمة ومعقدة » ،ثم عرف بعد ذلك ان هذه الهدية تحتوي ضمن ما تحتوي عليه على القنبلة الخطيرة « سي بي ٥٥ » ـ قنبلة الارتجاج ـ التي استعملت في نهاية حرب فيتنام ، والتي اعتبرت حتى بشهادة جريدة « الجويش اجزامينر » بعدد ٣٠ اكتوبر الماضي : « اقذر سلاح استخدم في الحرب التقليدية ٠**

والقنبلة اخترعت في الاصل لكي تهوى على مساحة من الارض تسدك عاليها سافلها ، وعلى قطر واسع ، مما يجعل موقعها مهبطا سريعا لنزول طائـرات الهليكوبتر ٠ ثم بدأ استخدامها ضد تشكيلات المدرعات حيث كانت قدرتها على الفتك مروعة ، اذ تؤدي الى اختناق كل كائن حي في مجال تفجيرها !

والى جانب ذلك في الشحنة قدم « جيرالد فورد » لاسرائيل اجهزة « فلير » ،وهي تستخدم الاشعة تحت الحمراء لتوجيه صواريخ (ت٠١٠و) لكي تعمـل ضـد الدبابات ليلا ، ويمكن تركيبها على الدبابات او في طائرات الهليوكوبتر ٠

وفوق هذا كله ١٢٦ دبابة اضافية من طراز «م٦٠» ومعها ٦٠ مدفعا من طراز هاوتزر» المتحرك !!

وهذا نموذج من التصرفات !

● واما الاعترافات» فاخرها افصحها . وقد ورد في المؤتمر الصحفي الـــذي عقده «فورد» بتاريخ ١٤ اكتوبر في البيت الابيض . وكان نص ما قاله نقلا عـن المحضر الرسمي الحرفي للمؤتمر . وقد صدر في نشرة خاصة عن مكتب المتحــدث الرسمي باسم الرئيس «جيرالد فورد» ـ كما يلي :

« فيما يتعلق باسرائيل فانني فخور بان اقدم سجلا متصلا لمدة ٢٨ سنة في تاييد اسرائيل منذ اليوم الاول الذي بدات خدمتي العامة ... »

□

ومع ذلك فهذا كله الان مع الماضي .. والمستقبل اولى بالاهتمام . وهذا يقودنا الى «جيمي كارتر» وازمة الشرق الاوسط .

وفي حديث سبق فانني وضعت ازمة الشرق الاوسط في المرتبة السادسة مـــن اولويات الرئيس المنتخب الجديد : قبلها برنامجه الداخلي خصوصا بالنسبـــة لمشكلة البطالة . وقبلها ازمة الجنيه الاسترليني . وقبلها قضية التحالف الغربي . وقبلها مسالة ادارة العلاقات مع المعسكر الاخر . وقبلها الصراع على جنـــوب افريقيــــا .

ولعلي اضيف هنا انني رتبت اولويات «كارتر» على اساس معيارين واضحين: حجم الاهتمام الذي تلقاه من ناحية اتصالها بالاستراتيجيات العليا للولايـــات المتحدة ـ اولا ـ وثانيا ـ توقيت التناول . وعما اذا كانت الظروف الموضوعيـــة المحيطة بكل واحدة من اولويات «كارتر» تفرض عليه العجلة او نها تعطيه فسحة من الوقت مبسوطة .

على هذا الاساس : حجم الاهتمام ، وتوقيت التناول ـ فان المرتبة السادســـة تبدو لي موضعا دقيقا لازمةالشرق الاوسط ضمن اولويات «جيمي كارتر» .

ويبقى ان احاول استعراض خطوات علاقة «جيمي كارتر» بازمة الشـــرق الاوسط. وربما سمحت لنفسي ان اقول انني هنا لا افترض ولا استنتج ، وانمـا اعرض محصلة آراء ومعلومات كثيرين قابلتهم في لندن وباريس ، وبينهم بعـــض الذين عرفوا جيمي كارتر عن قرب ، وناقشوا معه ، واستمع اليهم كما استمعوا اليــــه .

□

واظن اننا نستطيع القول بان علاقة « كارتر » بازمة الشرق الاوسط مرت عبر الخطوات التالية :

١ ــ في البداية لم يعرف « كارتر »عن ازمة الشرق الاوسط الا وجهة نظر اسرائيل ، وقد شده اليها منطقه الديني المتاثر بالنزعات المتعصبة في جنوب الولايات المتحدة، وهكذا كان اول تصريح رسمي مسجل له عن اسرائيل هو قوله:

ــ انني ملتزم التزاما كاملا كانسان وكامريكي وكمسيحي متدين باسرائيل ··· ان اسرائيل هي مصداق نبوءة الانجيل ··· وان قيامها وفاء بعهد الرب لابراهيم هو تحقيق لوعد مقدس ! » ·

هكذا اكتشف « كارتر » اسرائيل ، ثم جاء اكتشاف اسرائيل « لكارتر » ·

ان اسرائيل بامكانياتها ووسائلها في المجتمع الامريكي اكتشفت « جيمي كارتر » مبكرا ، واحست انه يمثل احتمالا كامنا في المستقبل لا ينبغي اهماله ، وهكذا بدات تهتم به منذ سنة ١٩٧٣ اي منذ ثلاث سنوات ، وقبل ان تظهر مطامح « كارتر » في رئاسة الولايات المتحدة بسنة كاملة وربما اكثر · ومن هنا فانها سنة ١٩٧٣ قررت منح جائزة العلوم الانسانية « لاليانور روزفلت واسرائيل » الى حاكم ولاية جورجيا : جيمي كارتر . وتوجه السفير الاسرائيلي « سيمحا دينتز » الى اتلانتا عاصمة جورجيا لكي يسلم الجائزة بنفسه ونيابة عن حكومة اسرائيل الى « جيمي كارتر » الذي وقف في هذا الاحتفال ليقول بالحرف :

« ان حجر الزاوية في سياسة الولايات المتحدة في الشرق الاوسط بالذات ، وفي المجال الدولي عموما ، لا بد ان يكون المحافظة على قوة وتفوق اسرائيل » ·

٢ ــ عندما رشح « جيمي كارتر » نفسه لرئاسة الولايات المتحدة ، دعا الى حملته الانتخابية عددا من المثقفين الديمقراطيين الذين كانوا يعارضون سياسة « كيسنجر » وطلب اليهم مساعدته في رسم برنامج لسياسته الخارجية ، وازمة الشرق الاوسط ضمنها بطبيعة الحال ·

وكان بين من ساعدوه في هذا الهدف رجال من امثل «جورج بول» و «تشارلس هولبروك» ، وكلهم يعرفون عن ازمة الشرق الاوسط اكثر مما كان يعرف « كارتر» بطبيعة الحال ، واظنهم وضعوا امام « كارتر » حقيقة ان هناك في ازمة الشرق الاوسط وجهات نظر متعددة اكبر من مجرد وجهة نظر اسرائيل ·

ولست اظن ان « كارتر » اقتنع بما سمع ، ولكني لا اظن انه اهمل بالكامل كل ما سمع ·

٣ ــ عقب فوز « كارتر » بترشيح الحزب الديمقراطي له كانت ثقته بفوزه في الانتخابات غير محدودة ، وبدا اهتمامه بمشاكل السياسة الخارجية وازماتها ياخذ شكلا واضحا وجديا ·

وفيما يتعلق بأزمة الشرق الاوسط فانه كان يعتقد انها ازمة موحلة... خطرة، ولكن على المدى البعيد ، والمراجح انه كان في تلك الفترة يتصور ان ازمة الشـرق الاوسط لن تطرح نفسها عليه بطريقة ملحة الا في سنة ١٩٧٨ وربما بعدها ،ولكنه بشكل ما كان يفضل ان يحتفظ لنفسه باقصى قدر ممكن من المرونة . وفي يوم من ايام تلك الفترة ـ سبتمبر الماضي ـ سأله واحد من الذين التقـــوا به لاحاديث طويلة « ماذا ينوي عمله في ازمة الشرق الاوسط ؟ » . وكان رد « كارتر » تقريبـا كما يلـــي :

ـ ليست عندي خطة لهذه الازمة الان ... ولن اشغل نفسي بها في المراحـــل الاولى من وجودي في البيت الابيض » .
ثم استطرد كارتـــر :

ـ ومع ذلك فان الذي فهمته هو ان الازمة في حالة سيولة ، وقد تجد ظـــروف ليست في حسابي الان لتعطي فرصة لتقدم ،ولست اريد مسبقا ان اطرح حلولا لـم افكر فيها ، كما اني لا اريد ان اقفل الباب امام اية ظروف قد تجيء لنا بمواقــف ملائمـــة للحركة » .

٤ ـ في الاسابيع الاخيرة ذهب عدد من اعضاء الكونجرس الى مقابلة « كارتر » عائدين من زيارات الى الشرق الاوسط . ونقلوا للرئيس المنتخب انطباعاتهم . وبين هؤلاء «السناتور ريبكوف » ـ وهو من اكبـــر انصار اسرائيـــل في مجلس الشيوخ ـ وكان قد زار مصر وعددا من الدول العربية والتقى ببعض المسئوليـن فيها . وقيل له : ان العرب مستعدين لتوقيع اتفاقية سلام مع اسرائيل » . روى العائدون من الشرق الاوسط جميعا ـ وبينهم ريبكوف ـ انهم احسوا برياح التغيير تهب على فكر عدد من القادة العرب ، وان هؤلاء القادة العرب على استعداد الان للتعايش سلميا مع اسرائيل ـ وكان تقديرهم ان هذه فرصة يجب انتهازها ، فقـد اصبحت الغلبة ـ في رايهم ـ « للمعتدلين العرب » على « المتشددين العرب » ـطبقا لوصفهـم .

وليس هناك شك في ان ما سمى « بحملة السلام العربية » حقق تاثيرا فعليا ، اذ جعل كثيرين في الغرب يعتقدون بان العرب على استعداد الان لعقد صفقة بشـــروط « متهـــاودة » !

ولكن المشكلة في اي صفقة انها تقتضي توافر اربعة اشتراطات : بائع ومشتر واتفاق على السعر بينهما مباشرة او بواسطة سمسار . واخيرا بضاعة جاهزة للتسليم !

ولست واثقا تماما ان اشتراطات الصفقة موجودة في الوقت الحاضر .

وليكن ان العرب على استعداد ـ او هكذا يقول بعضهم ـ لبيع ضمانات سلام لاسرائيل في مقابل قطع من الارض ـ ذلك شرط واحد ، وهناك غيره ثلاثة ٠

اسرائيل ليست على استعداد في هذا الوقت للشراء ٠

ثم ان السعر غير محدد ، فلا اظن ان اسرائيل حددت ما تريد عرضه من الاراضي ، ولا حددتما تريده ـ مقابل هذه الاراضي ـ من ضمانات السلام ٠

من هنا فالبضاعة ليست جاهزة ـ فضلا عن ان السمسار الامريكي لم يفتح مكتبه بعد لاستقبال زبائنه !

ومع ذلك فلنقل ان العرب ارادوا من « حملة السلام » ان يعبروا عن بياض قلبهم وصفاء مقاصدهم ٠ واذا كان ذلك ، اذن فان « حملة السلام » ادت غرضها ، واحس كارتر ان هنا لفرصة سانحة وانها قد تضيع ٠

٥ ـ استجد على ذلك ان الدكتور « هنري كيسنجر » حينما ذهب الى « بلينز » ـ قرية كارتر ـ ليقدم له تقريرا عن احوال العالم ، تعرض لاوضاع ازمة الشرق الاوسط ، وكان رايه الذي قاله لكارتر ـ تعزيزا لما سمعه كارتر من ريبكوف وزملائه ـ ان هناك الان في الشرق الاوسط فرصة لتسوية سهلة !

واتذكر انني التقيت باحد اصدقاء كيسنجر في باريس ، وحينما سمعت منه فحوى ما قاله كيسنجر لكارتر عن ازمة الشرق الاوسط ـ فانني سالته :

ـ على اي اساس يبني كيسنجر تقديره عن الفرصة المتاحة الان لتسوية سهلة ؟ » ٠

وكان رد الصديق :

ـ ان كيسنجر يبني هذا التقدير على اساس عاملين :

اولهما ان الفلسطينيين في موقف ضعيف الان ، فقد نزفوا دمهم وحوصروا في لبنان ، وبالتالي فان قدرتهم على « التشهير » باي اتفاق لم تعد كما كانت ٠

والثاني ان هناك وفاقا الان بين مصر وسوريا والسعودية ، وقد تشكل منهم تحالف يقود العناصر المعتدلة في المشرق العربي » ٠

واتذكر انني قلت لهذا الصديق :

ـ اظن ان كيسنجر مخطىء في تقديره بأن الفلسطينيين في موقف ضعيف ، ثم انني اظنه مخطىء ايضا في فهم وفاق مصر وسوريا والسعودية ٠٠٠ هؤلاء الثلاثة في المشرق قرروا فيما اظن ان يتفقوا للدفاع عن الحق العربي ، وليس للتواطؤ عليه !! » ٠

٦ ـ ولقد امتلأت الاجواء في اعقاب ذلك كله باقتراح « ريبكوف » بان يطلب « كارتر » الى « كيسنجر » ان يظل مستشارا له مكلفا بازمة الشرق الاوسط ٠ ولم اتصور منذ البداية ـ ولا زلت ـ ان تكون لهذا الاقتراح فرصة للنجــــاح لاسباب متعددة ، منها ما يتعلق « بكارتر » ، ومنها ما يتعلق « بكيسنجر » ، ومنها ما يتعلق باطراف صراع الشرق الاوسط انفسهم ـ اي العرب واسرائيل ٠

● وفيما يتعلق « بكارتر » فهناك الاسباب التالية :

١ ـ ان رايه في « كيسنجر » وفي سياساته معروف مشهور من هجماتــــه المتكررة خلال الحملة الانتخابية على الاثنين : وزير الخارجية وسياساته ٠

٢ ـ ان اختياره « لانتوني ليك » ليتولى مهمة استلام وزارة الخارجية مــن « كيسنجر » اختيار له معانيه ودلالاته ٠ « فانتوني ليك » كان زميلا « لكيسنجر » في مجلس الامن القومي الامريكي ، ثم كان دبلوماسيا في وزارة الخارجية ، ثم اختلف مع سياسات « كيسنجر » في كمبوديا واستقال احتجاجا بسبب هــــذه السياسات . وانتقد « كيسنجر » علنا بعد استقالته الى درجة دعت « كيسنجر » الى وضعه في قائمة المشتبه فيهم ممن فرض الرقابة على تليفوناتهم ، مما ادى « بانتوني ليك » الى رفع قضية على الحكومة الامريكية لهذا السبب ٠ وان يختار « كارتر » هذا الرجل ـ ولا يختار سواه ـ لمهمة استلام وزارة الخارجية مــن « هنري كيسنجر »ومعاونيه ـ فتلك بادرة لا يمكن ان تفوت دون ان تؤكد معناها ٠

٣ ـ ان « كارتر » باختيار « كيسنجر لمواصلة » دوره « في ازمة الشـــرق الاوسط سوف يقع في المحظور الذي حاول ويحاول تجنبه ، وهو ان يجد نفســه منزلقا في سياسات وضعها غيره ثم يجدها مفروضة عليه دون ان يكون له خيار في بدائلها او حتى فرصة لدراستها ٠

● وفيما يتعلق « بكيسنجر » نفسه ، فهناك الاسباب التالية :

١ ـ ان كيسنجر لم يمارس جهدا في ادارة اي مشكلة الا بعد الاطمئنــــان الى ان سلطته في ادارتها مطلقة ٠ وكان ذلك متاحا له بوضعه في البيت الابيض، وعلى رأس وزارة الخارجية ، ومع رئيس مطعون في امانته مثل « نيكسون »، ورئيس اخر مشكوك في قدراته مثل « فورد » ـ الامر الذي اتاح لكيسنجر فرصة لم تتح قط لاحد قبله ٠

وهو لا يتصرف ـ ولا يعرف كيف يتصرف ـ بدون هذه السلطة المطلقة ٠

٢ ـ ان كيسنجر يفهم ـ قبل غيره ـ ان الاطراف التي سيتعامل معها فـــي الشرق الاوسط سوف تقيس مدى سلطته ، وسوف تكتشف ان هذه السلطـــة واهية ، ومن ثم فانها لن تتعامل معه الا في حدود معينة ، وخارج هذه الحدود فانها سوف تلف من وراء ظهره لتجد طريقها الى البيت الابيض او الى وزارة

الخارجية في عهدها الجديد ·

٣ ـ ان كيسنجر يستطيع من الان ان يتصور ان احدا في النظام الجديد لن يسمح له بفرصة نجاح ··· لا وزير الخارجية الجديد يسمح له بذلك على حسابه ، ولا مستشارو الرئيس الجديد في البيت الابيض يسمحون ··· ولا الرئيس نفسه · واذا حدث المستحيل وتحقق نجاح فان المسرح وخلفية المسرح واضواء المسرح سوف تحجز كلها للرئيس الجديد يلمع وسطها ويبرز ، وعلى كيسنجر ان ينتظر في الكواليس المظلمة ، وهذا ما لم يتعوده ·

● ومن ناحية اطراف الصراع ـ العرب واسرائيل ـ فهناك الاسباب التالية :

١ ـ ان كيسنجر لن يكون اكثر من رسول في دوره الجديد ، وعليه في كل كبيرة وصغيرة ان يعود الى السادة الحقيقيين في واشنطن ـ اقطاب العهد واساطينه ·

٢ ـ انه لا مصلحة لهم في التعامل مع دخيل على النظام الامريكي الجديد بمخاطرة مضايقة « الاصيل » فيه . واولهم « كارتر » نفسه ووزير خارجيته « سيروس فانس » ·

٣ ـ ان اختيار كيسنجر سوف يكون في حد ذاته اشارة الى ان « كارتر » ليس لديه حل لازمة الشرق الاوسط يعرضه ·

ومن الغريب ان بعض العرب ابدوا لاول وهلة حماسة للاقتراح وتلهفا الى قبوله · وكان ذلك فرط طيبة لا تعرف شيئا عن حقائق القوة داخل النظام الامريكي ، ثم كان ذلك ـ من وجهة نظر عملية ـ استعدادا ليس له ما يبرره لقبول اللدغ من نفس الجحر مرتين !!

٧ ـ المهم في النهاية ان « كارتر » الان تحت الظن بان هناك فرصة في ازمة الشرق الاوسط ، وانه اذا لم يمسك بها فانها ستفلت منه · لكن الحيرة تراوده من حيث انه ليس مستعدا بحل للازمة ، ثم انها ليست متقدمة في اولوياته ·

واتصور ان قراره حيالها ـ في احسن الاحوال ـ سوف يكون تعليقها في « سنارته » حتى لا تفلت ، ثم الانتظار بها تحت الماء حتى يتفرغ لشدها ويرى اي صيد تعلق بها ؟

و« كارتر » يرى العرب يركزون في « حملتهم السلامية » على عقد مؤتمر جنيف ، ثم انهم استطاعوا تعبئة الجو في الامم المتحدة للمطالبة بعقد مؤتمر جنيف ·

واذن ، فلماذا لا ينعقد مؤتمر في جنيف ؟

واي ضرر من عـقد هذا المؤتمر اذا كانت المطالبة بعـقده قد تحولت الى هدف في حـد ذاتـه ؟

ثم لعـل انعـقاده ان يكون اختبارا لمقولات تحتاج الى اثبات عـملي لتاكيدها: كاستعـداد العـرب للسلام وتصورهم لـه ··· وكاستعـداد اسرائيل لاعـادة اراض الى اصحابها ، وتصورها لخريطة المنطقة ··· وكصلابة التحالف بين مصر وسوريا ··· وكمدى قوة الفلسطينيين وتاثيرهم ··· وكموقف الاتحاد السوفيتي الان واهتماماته في الشرق الاوسط ··· الى اخره الى آخره ·

واذا جاء حـل سهل وسريع ، فمن يكره ؟

واذا لم يجيء حل سهل وسريع ، فعـلى الاقل يكون المطالبون بعقد مؤتمر جنيف قد حصلوا على ما طلبوه ، في كل الاحوال فهو وقت مكسوب ··· وفي كل الاحوال فهو وقت لم يضع في الفراغ ، وانمـا امتلأ بشيء ، اي شيء ، يعطي الاحساس ـ عـلى الاقل ـ بأن حركة ما تجـري بصرف النظر عن اتجاهها وغاية هذا الاتجاه ·

هكذا ، فاننا نستطيـع القول بان احتمال عـقد مؤتمر جنيف ليس مستبعدا الان ـ كما كان قبل شهور ـ من حسابات « كارتر » ، لكن علينا هنا أن نفرق بين أمرين :

- عقد مؤتمر جنيف في حد ذاته ··· وكارتر الان لا يمانع فيه ·

- وحل لازمة الشرق الاوسط ، وهي الاساس ··· وكارتر ليس عـنده حـل درسه بعناية وقرر أن يضع وراءه كل قوته · ولعـل توقيته للاهتمام بأزمـة الشرق الاوسط كان ينتظر الخريف القادم ، وبعـد الانتخابات الاسرائيلية ···

لكنه بالطبع لا يمانـع اذا جاءه الحـل سهلا وسريعـا ، واي صياد يمانـع اذا جاءت السمكة بنفسها وابتلعـت في جوفها سنارة الصيـاد ؟ !

المجموعة رقم (٣)

عالم بغير كيسنجر

(كتبت في أوائل يناير ١٩٧٧)

الحديث السابع

هناك اسباب كثيرة تدعوني ، وتدعو غيري الى الاقتراب هذه الايام من « هنري كيسنجر » ودوره المثير الذي يوشك الستار ان ينزل عليه مع خروج « جيرالد فورد » من البيت الابيض ودخول « جيمي كارتر » اليه ، وبالتالي قيام « هنري كيسنجر » من مقعد وزير الخارجية الامريكية تاركا مكانه لخليفته « سيروس فانس » ·

وبعض هذه الاسباب كما يلي :

●●● اولا :

● ان عددا كبيرا من الصحفيين والكتاب المهتمين عامة بالشئون الدولية يرون ـ ولهم الحق ـ ان « هنري كيسنجر » كان « النجم الذي لا ينازع على المسرح العالمي خلال السنوات الثمانية الاخيرة ، وذلك باعتباره مستشار « ريتشارد نيكسون » لشئون الامن القومي ثم وزير خارجيته ووزير خارجية « جيرالد فورد » بعده · وبما ان نيكسون كان « معطلا » بالتورط ، من فضيحة ووترجيت ، وان فورد كان « معطلا » بالتخبط ، نتيجة لقلة خبرته ـ فان « هنري كيسنجر » كان هو الرجل الذي امسك بدفة القيادة لسياسة امريكا الخارجية·

وكانت هذه هي الاضافة الاولى الى قوته الى جانب وضعه كمستشار للامن القومي ووزير لخارجية الولايات المتحدة الامريكية ·

● بل ان « هنري كيسنجر » اصبح هو الرجل الوحيد الظاهر على القمة الدولية ، وذلك لان المعسكر الآخر الذي يشارك امريكا في هذه القمة ـ وهو المعسكر السوفيتي ـ لا يحب ظهور النجوم ولا يساعد على ظهورها ، فكل شخصياته اجزاء من جهاز كبير متشابك ، كما ان ادواره مشاهد محددة من استراتيجية واسعة ومعقدة ·

وكانت هذه هي الاضافة الثانية الى فرصة كيسنجر في الانفراد بالقمة الدولية ·

● والى جانب ذلك ، فان ترتيب الاوضاع في المعسكرين ـ الغربي والشرقي ـ يعطي كل شيء للذين يملكون كل القوة ، وهذه طبيعة الاسلحة النووية التي تسيطر عليها واشنطن وموسكو . وتتولى أولاهما حماية الغرب بروادعها ، كما تتولى الثانية حماية الشرق بنفس الروادع على الناحية الاخرى • وطبيعي ان الكلمة المسموعة في أي معسكر هي للقوة الحامية وليست للاطراف المحمية • واذا كانت اي كلمة هي المسموعة في شئون الحرب . فهي المسموعة ايضا في شئون السلم • وهكذا فان أوضاع القوة في المعسكر الغربي فرضت أن يكون المتحدث باسم امريكا هو نفسه المتحدث باسم الغرب كله •

وكانت هذه هي الاضافة الثالثة لصالح هنري كيسنجر •

● وتصادف أن المعسكر الغربي ـ وربما العالم كله ـ كان يدخل في عصر جديد نما فيه دور البيروقراطيات وانكمش دور الزعامات ، وأكدت فيه الارقام سيادتها على الالهام الذي يعطيه صناع التاريخ وقادة التحولات الكبرى ، وهو عصر وصفه بعض الكتاب بانه عصر الرجال الذين « لا وجوه لهم » . واختاروا بريطانيا نموذجا كاملا له . فقد ذهب عصر رجال من امثال « دزرائيلي» و« لويد جورج » و« تشرشل » . وجاء عصر رجال ونساء من امثال «ويلسون» و« هيث » و« مرجريت تاتشر » !

ونفس الشيء على المسرح العالمي . فقد ذهب جيل العمالقة الذي ملأ الساحة بعد الحرب العالمية الثانية ••• اختفى رجال من امثال « ماوتسي تونج » و« جواهر لال نهرو » و« جمال عبد الناصر » و« شارل ديجول » و« كونراد اديناور » و« شوين لاي » و« نيكيتا خروشوف » وغيرهم غيرهم •

واحسّ صحفي بارز مثل « سيروس سالزبيرجر » بهذه الظاهرة فكتب كتابه المشهور : « آخر العمالقة » . ثم لم تلبث الظاهرة أن استفحلت فاذا « سالزبيرجر» يلحق كتابه « آخر العمالقة » بكتاب آخر تحت عنوان « عصر التفاهات » !

وفي الحقيقة فانه لم يكن باقيا من عصر العمالقة الا واحد فقط وهو زعيم يوجوسلافيا العنيد : « جوزيب بروز تيتو » •

وهكذا فان المسرح العالمي كان خاليا ••• مهيا لدخول وافد طاريء اذا استطاع هذا الوافد الطاريء أن يرتب نفسه وظروفه •

وكانت هذه هي الاضافة الرابعة الى فرصة « كيسنجر »•

● ومن الحق أن يقال ان « هنري كيسنجر » احسن ترتيب نفسه وظروفه ـ فقد بدا وكانه صانع معظم الاخبار ، وحامل كل أسرار الكون ، ورجل جميع الازمات ، وحلال اية عقد مستعصية •

ولم يحدث ان فهم سياسي دور اجهزة الاعلام في العصر الحديث كما

فهمها كيسنجر ·

فهم « كيسنجر » أن الصحفيين والمعلقين ـ كتابة وصورة وصوتا ـ هم الذين يملكون مفاتيح الاضواء الباهرة ، ولكنهم في حاجة الى القصص الاخبارية وخباياها ، وهو يعرف كل القصص والخبايا ، ولكنه في حاجة الى الاضواء الباهرة تسلط وتركز عليه طول الوقت ·

هكذا فان « هنري كيسنجر » كان أول سياسي جعل الاعلام جزء ا لا يتجزأ من دوره . ولم يكن يتحرك الا وقبله ومعه ووراءه قطعانا من حملة الاقلام والعدسات والميكروفونات ، وهو يتحدث اليهم طول الوقت ، وعن طريقهم يتحدث الى العالم كله ·

وكانت هذه هي الاضافة الخامسة الى الرصيد المتزايد « لهنري كيسنجر » ·

ومع ذهاب « هنري كيسنجر » فان عددا من الصحفيين والمعلقين يحاولون وداع النجم السياسي للسبعينات من هذا القرن بغير منازع ، فقد شغلهم وشغلوه، وبعضهم يعتبر أن تجربتهم معه كانت تجربة مشتركة لانهم عاشوها معه يوما بيوم وساعة بساعة ـ الى درجة أن بينهم الان من يحاول مسابقة « هنري كيسنجر » في رواياتها · فمن المعروف أن « هنري كيسنجر » سوف يكتب مذكراته ، وقد تعاقد بالفعل مع مجموعة من دور النشر تتقدمها « نيويورك تيمس» على حقوق مذكراته ، ووصل العرض الذي قدم له ثمنا لها الى ثلاثة ملايين دولار · وفي نفس الوقت فان كثيرين من الصحفيين اتفقوا مع دور نشر اخرى على كتابة التجربة كما بدت لهم ، مقابل مبالغ اقل طبعا ·

ولانهم جميعا يعرفون أن « كيسنجر » لم يبدأ في الكتابة بعد ، ولا ينتظر أن يبدأ فيها قبل الربيع القادم ، كما انه لا ينتظر أن يفرغ منها قبل الربيع الذي يليه ـ فانهم الان يحاولون أن يسبقوه الى النشر ·

بل أن بين هؤلاء من يطمحون الى مسابقة « كيسنجر » حتى في مستقبله بصرف النظر عن تجربته الماضية ··· يريد أولئك منذ الان أن يرصدوا الدراما القادمة في تجربة « كيسنجر » : حين يفقد سلطة مناصبه كلها ، وحين لا يعود صانع الاخبار الاسرار ورجل الازمات وحلال العقد ، وحين تنقطع عنه التقارير السرية للسفراء وادارات المخابرات ، وحين يتراجع مقعده في البروتوكول من الصف الاول الى صفوف تليه ، وحين تتحول عنه الاقلام والعدسات والميكروفونات ، وحين لا تظل تحت تصرفه الطائرة الخاصة والحراسة المشددة، الى اخره ·

ويبدو ان « كيسنجر » لن يستطيع مواجهة هذه التجربة بصدر رحب،وأن مرارتها في قلبه وعلى لسانه سوف تكون شديدة . وعلى سبيل المثال فانه طلب أن تستمر الحراسة عليه بعد خروجه من الوزارة لان « اخطارا تهدد

حياته ، خصوصا من جانب الفلسطينيين » ـ كما قال ـ وبهـذا الطلب فـان « هنري كيسنجر » عـرض نفسه لبعـض ما كان عـليه أن يتجنبه ، وبينه مثـلا أن يقف أحـد اعضاء الكونجرس ليرفض طلب « كيسنجر » ، ثم يضيف الـى الرفض قوله :

ـ من الذي يهمه بعـد الان ان يهدد هنري كيسنجر ··· لا اظن ان فلسطينيا سوف يذهب بمسدسه ليطارد رجلا لم يبق له ما يشغـله سوى ان يخرج كـل صباح الى شوارع جورج تاون ـ ضاحية واشنطن التي يسكنها كيسنجر ـ لكـي يعـطي لكلب زوجته نانسي فرصة ينطلق فيها » ·

· · · · · · ·

· · · · · · ·

هذا عـن اهتمام كثيرين من الصحفيين والكتاب هذه الايام « بهنري كيسنجر » ودوره الذي يوشك ان ينزل عـليه الستار ·

●●● ثانيا :

ومعـظم السياسيين في العـالم أيضا يبدون مثـل هـذا القدر من الاهتمـام « بهنري كيسنجر » ودوره الذي يوشك ان ينزل عـليه الستار ·

ان « هنري كيسنجر » بهرهم بسلطته ، وبطريقة ادارته لقوة الولايات المتحدة، وبوهج شهرته ، وباسلوب مناقشاته ، وبالمنطق الذي تناول به مشكلات العالم ، وفوق ذلك كله بشخصيته الغريبة الفريدة واكاد أقول المعـقدة ·

وكان بينهم من أعـجب به ، وبينهم من تحفظ عـليه ، وبينهم من اعتبره كارثـة بغير حـدود ·

وحين أحاول مراجعـة ما سمعته بنفسي من بعـض زعـماء العـالم وقـادة الفكر فيه عـن آرائهم في « هنري كيسنجر » ودوره ، فانني لا استطيـع أن املـك نفسي من الحيرة والتساؤل : كيف بدا نفس الرجـل لكل من هؤلاء في صـورة مختلفة ·

● في بكين مثلا كنت اتحـدث مع شوين لاي في بداية سنة ١٩٧٣ ، وكـان الزعـيم الصيني الكبير يبدي رايه في الصهيونية واسرائيل ، وقال :

ـ نحن نعـادي الاثنين عـلى طول الخـط ··· اننا نعـادي الصهيونيـة واسرائيل لا من موقف العـداء للسامية ، فنحن لسنا ضد اليهود ·

ثم استطرد « شوين لاي » يقول :

ـ ان هناك يهـودا ممتازين : ان كارل ماركس فيه د م يهودي ، واينشتيـــن يهودي ، وكيسنجر يهودي ! » ٠

واعترف انني دهشت لكون « شوين لاي » يضع « كيسنجر » عـلى نفس القياس مع « ماركس » و« اينشتين » ٠

● في لندن مثـلا كنت اتناول الغـداء مع « جيمس كالاهان » رئيس الـوزراء البريطاني ، وقادنا الحديث الى « هنري كيسنجر » ، وقال لي « كالاهان » :

ـ لن يتاح للعـالم وزير خارجية مثـله ٠٠٠ عـندما تسمعــه يتكلم ويستعرض احوال العـالم ، تحس فعلا أنك أمام استاذ تاريخ يعـرف ويشعـر بكل شـيء عـلى اطراف اصابعـه ـ لكن مشكلة « هنري » أنه يعيش في قلق داخـلـي لا يفارقه ٠٠٠ لا بد أن تطمئنه باستمـرار الى انك مـعجب به حتى يعطيك خير ما عـنده ٠٠٠ وانا شخصيا تعلمت أن اقـول له ثلاث مرات عـلى الاقل كل يوم : هنري انني أحبك ـ وبعدهـا فقط اطمئن الى أن عبقرية « كيسنجر » تعـمل دون أن تؤثر عـليها وساوسه ! » ٠

● في باريس مثلا جلست لعدة ساعات اناقش « ميشيل جوبير » وزير خارجية فرنسا السابق ـ مع الرئيس بومبيدو ـ في بعض المشاكل الدولية ، وعرضنـا بالطبع لهنري كيسنجر ودوره ، وقال لي « ميشيل جوبير » بطريقته وحماسته القاطعـة :

ـ هنري ٠٠٠ هنري ٠٠٠ »

ونفخ « جوبير » الهواء من انفه واستطرد :

ـ هنري مثل راكب دراجة ، لا يستطيع أن يتوقف عـن الحركة والا سقط على الارض ! »

واستطرد « جوبير » يقول :

ـ لا أعـرف ماذا فعـل لكم « عزيزكم » هنري ؟ لا أ عـرف الا أنه تبـادل القبل مع بعـض ساستكم ، ولست افهم عـادة تبادل القبل بين الرجال ، واما باقي ما فعـله فانه مزيج من أسوأ ما في أمريكـا : شارع ماديسون ـ شارع وكالات الاعـلان في نيويورك ـ ثم هوليوود عاصمة السينما الامريكية !! »

(من الطريف أن هنري كيسنجر كان يعـرف سوء رأي ميشيل جوبير فيه ، وقد عـلق عـليه ذات يوم أمام صحفي أمريكي صديق بقوله :

ـ مشكلة جوبير قصر قامته ٠٠٠ لو كانت الطبيعـة اضافت بوصة او بوصتين الى طوله لانفكت كل عـقدة !!) ٠

● في القاهرة وفي اخر زيارة قام بها اليها الجنرال « أندريه بوفر » القائـد

العسكري والمفكر الاستراتيجي الفرنسي الاشهر ـ وكان ذلك قبل وفاته باقل من شهر ـ قال لي ، وكان حديثنا عن التطورات في أزمة الشرق الاوسط ودور « هنري كيسنجر » :

ـ مشكلة هنري كيسنجر انه مثل لاعب شطرنج يلعب بكل قطعة في نفس الوقت ، انه يقوم بالعاب كثيرة لا يستطيع متابعتها فضلا عن اتمامها الى النهاية ·

انك تنظر الى ناحيته من رقعة الشطرنج فتجد التحركات عليها واسعة ، ولكنها جميعا تحركات مفتوحة لكل الاحتمالات ، وهو غير قادر على ان يحقق الفوز النهائي بحركة أو حركتين يركز عليهما ! »

لعلي اضيف الى هذه الاراء في « هنري كيسنجر » رأي زوجته الاولى في دورة العام ، وقد سمعته من « هنري كيسنجر » نفسه ·

قال لي « هنري كيسنجر » :

ـ ان ابني دافيد ذهب الى مدرسته في اليوم الذي حصلت فيه على نصف جائزة نوبل للسلام ، وتلقفه أصدقاؤه في المدرسة يقولون له :

« ان اباك لم يفعل شيئا يستحق عليه جائزة نوبل للسلام ·· ! »

واستطرد « كيسنجر » يقول :

ـ هل تعرف ماذا قال لهم دافيد ؟

قال لهم :

« ان امي قالت لي نفس الشيء وأنا اتناول الفطور معها هذا الصباح قبل أن اجيء الى المدرسة » !

كيف يمكن أن تختلف الاراء الى هذه الدرجة في نفس الرجل ، وكل هؤلاء من الساسة والزعماء تعاملوا معه وخبروه عن قرب وتابعوا سياساته ·

وهم الان جميعا مهتمون بالحديث عنه مع قرب نزول الستار على دوره ··· وعلى وجه القطع فان الرجل اثار فضولهم في أمره ·

□

● ● ● ثالثا :

ان دور هنري كيسنجر في ازمة الشرق الاوسط بالذات يفرض على كثيرين منا في هذه المنطقة ان نهتم اهتماما زائدا بالرجل وسياسته ودوره ، فازمة

الشرق الاوسط في الوضع الذي هي فيه الان ـ سواء كان خيرا او شرا ـ هي من صنع « هنري كيسنجر » ٠

وانا شخصيا لا اعتقد ان دور « هنري كيسنجر » في ازمة الشرق الاوسط كان خيرا ـ وبرغـم ذلك فاني اعترف بان نجاحه الحقيقي خـلال تجربته كلها لـم يتحقق الا في هذه الازمة !

لقد نجح فيها من وجهة نظره ، وهـذا هـو المعيار السليم للحكم على الامور!

ولم ينجح « هنري كيسنجر » في مشكلة فيتنام ، وانتهت المشكلة باعتبارهـا هزيمة كاملة للسياسة الامريكية ، وله شخصيا ٠

كذلك فان نجاح « هنر يكيسنجر » في فتح ابواب الصين لا يحسب له، وانما يجب انصافا ان يحسب لنيكسون قبل ان تطيح به فضيحة ووترجيت ، ثم انه كان استجابة تاريخية لنداء كادت فرصته ان تضيع ٠

ثم ان سياسة الوفاق لم تكن نجاحا لهنري كيسنجر بالذات ، فتلك عـمليـة بدات من قبله بكثير لدواعـي واضحـة من التوازن النووي بين القوتين الاعظم واستحالة الحرب بينهما ٠

اما الشر قالاوسط فهو نجاح لا شك فيه « لهنري كيسنجر » ، والحكم عـلـى النجاح فيه يكون من وجهة نظره وبحساب اهدافه ٠٠٠ لا من وجهة نظر الاخرين ولا بحساب اهدافهم !

ولقد كان النجاح الاول والاكبر « لهنري كيسنجر » في أزمة الشرق الاوسـط هو أنه حقق لنفسه « **القبول » بالنسبة للطرف العربي في هذه الازمة ٠**

حقق لنفسه القبول رغـم « ثلاثيته » المشهورة ، وهي كونه : يهودي ، ثـم الماني ، واخيرا امريكي :

● **يهودي في دينه وهواه** ، وليس هذا عيبا على اي حال ، ولكن المشكلـة تجيء حين يتصدى في الشرق الاوسط لازمة كان من اسسها استغـلال اسطورة يهودية قديمة لفرض وطنية جديدة لا جـذور لهـا عـلى منطقة غريبة عـليها !

● **الماني النشاة والطبع** ، وليس هذا عيبا ايضا ، ولكن المشكلة تجيء حيـن نتذكر ان المانيا النازية هي سبب الماساة الاوروبية التي فرضت عـلى الشعـب الفلسطيني أن يدفـع ثمنها في قلب العـالم العربي !

● **امريكي الانتماء والولاء** ، وليس هـذا عيبا كذلك ، ولكن المشكلة تجـيء من كون الولايات المتحـدة هي السند الحقيقي وربما الوحيد لاسرائيل ، وهـي مصدر كل معونة لها ابتداء من لقمة العيش الى الفانتوم ـ كما يقولون !

برغم هذه الثلاثية فان الرجل حاز « القبول » لدى اطراف عربية متعددة ، والغريب العجيب انه هو نفسه كان اول من لحقهم الشك ، في امكانية قبوله ، واتذكره وهو يقول لي بالحرف الواحد :

ـ انني كنت أرد نفسي دائما عن تناول أزمة الشرق الاوسط لاسباب عديدة تستطيع تصورها ، ولكن الازمة فرضت نفسها علي ولم افرض نفسي عليها !»

وربما كان « كيسنجر » نفسه اول المندهشين من القبل التي انهالت على وجنتيه في العالم العربي !

ولكن ذلك لم يحول « كيسنجر » عن اهدافه ، ولم يكن له ان يحوله لان السياسة الدولية مصالح ، وليست السياسة الدولية عواطف !

وكانت أهداف « كيسنجر » واضحة منذ البداية ، وأتذكر أنني عددتها في اكثر من مقال في نهاية سنة ١٩٧٣ وبداية سنة ١٩٧٤ .

وأذكر بالذات مقالا بتاريخ ٤ يناير ١٩٧٤ ، نشرته في الاهرام وقتها تحت عنوان « كيسنجر ومعنى النجاح » ، واوردت فيه اهداف « كيسنجر » على النحو التالي :

● ضمان أمن وسلامة اسرائيل .

● استمرار تدفق البترول العربي وفوائض أمواله الى الغرب ، وأمريكا في مقدمته .

● اخراج الاتحاد السوفيتي من المنطقة ، بدءا باخراج السلاح السوفيتي .

● التعامل مع العرب متفرقين وليسوا مجتمعين .

● كسب الوقت لامريكا واسرائيل لاعادة ترتيب اوضاعهما بعد احداث أكتوبر ١٩٧٣ .

ثم قلت قرب نهاية هذا المقال :

« انني أريد لهنري كيسنجر أن ينجح في أزمة الشرق الاوسط .

ولكني لا أريده ان ينجح وفق قانونه هو ، وانما أن ينجح وفق قانون اخر نفرضه نحن عليه » .

ومرت ثلاث سنوات .

هبت رياح وثارت رمال على الصحاري العربية .

وتدفقت مياه كثيرة في النيل والاردن وبردى .

واذا نظرنا الان الى الصورة العربية العامة ، فان أول الحقائق التي نجدها هي أن « هنري كيسنجر - قد نجح في أزمة الشرق الاوسط ، ونجح وفق قانونه هو ، وعلى اساس اهدافه هو ، وهذا هو معيار النجاح ٠

بل لعل « هنري كيسنجر » لم ينجح في ازمة اخرى قدر نجاحه في ازمة الشرق الاوسط ، وذلك بالتاكيد يدعونا - أكثر من غيرنا - الى الاقتراب هذه الايام من «هنري كيسنجر» ودوره المثير مع قرب نزول الستار عليهما ٠٠٠ مع العلم أن اثار الاثنين باقية علينا لزمان طويل !

□

●●● رابعا :

لعلى ادعى بعد ذلك كله ان هناك اسبابا خاصة تدعوني بالذات الى الاهتمام « بهنري كيسنجر » مع قرب نزول الستار على دوره الباقي معنا باثاره الى زمان طويل ٠٠٠

ذلك انني اختلفت مع « كيسنجر » ، او بمعنى اصح اختلفت مع ما كان « كيسنجر » يريد أن يفعله بأزمة الشرق الاوسط ٠

وحين تسنح الظروف فاني اعد برواية القصة كاملة ، واما في الوقت الحالي فاني اكتفي برواية مصدرين حول هذا الخلاف ٠

● اولهما الدبلوماسي والصحفي والكاتب السياسي « ادوارد شيهان » في كتابه الذي كثر الاستشهاد به والنقل عنه في الفترة الاخيرة ، وهو بعنوان « العرب والاسرائيليون وكيسنجر » ٠ وقد خصص « شيهان » لاسباب الخلاف عشر صفحات كاملة ، هي الصفحات من ٥١ الى ٦١ من كتابه ٠ ثم عاد الى نتائج هذا الخلاف في صحة ١١٢ ، وقال ان « محمد حسنين هيكل احتج على الاتفاق » الذي توصل اليه المفاوض المصري مع كيسنجر في اسوان في نهاية سنة ١٩٧٣ ، والذي سمى باتفاق الفصل بين القوات ٠ « وكان اعتراضه هو أن هذا الاتفاق سوف يجمد الموقف لصالح اسرائيل » ٠ واستطرد شيهان يقول :

- ان هيكل رفض أن يرضخ ، وسرعان ما فقد حظوته لدى الرئيس الذي اخرجه بعد ذلك من رئاسة تحرير الاهرام » ٠

● والمصدر الثاني هو الاستاذ « اموس برلموتر » استاذ السياسة العامة بالجامعة العبرية في القدس ، وكان استاذا زائرا للعلوم السياسية في جامعة كولومبيا . وقد وردت روايته عن هذا الخلاف في دراسة نشرتها له مجلة « الدراسات الدولية » التي تصدر في الولايات المتحدة وبريطانيا في

نفس الوقت . وقد نشرت هذه الدراسة في عـدد سبتمبر ١٩٧٥ ، واستغـرق الجزء الخاص بهذا الخـلاف صفحـة ٣٢٨ وصفحة ٣٢٩ ـ وقد قال الاستـاذ « برلوتر » :

ـ « ان كيسنجر اتخـذ لنفسه بثقة مكانة « ناظر مدرسة الدبلوماسية » ولـم يقم أحـد بتحدي هذه المكانة الا مرة واحـدة . وذلك حين تصدى محمد حسنين هيكل لكيسنجر اثناء مناقشة معـه ، واعترض عـلى هذا الدور الذي اتخـذه كيسنجر لنفسه ، وهو أنه فوق الصراع » ٠

ويستطرد « برلوتر » بعـد عرض تفصيلي ليقول :

ـ « ان تحـدي هيكل لكيسنجر بهذا الاسلوب من الصراحة اثبت فاعـلية ، ولكن هيكل عـندما رفض ان يدور في فلك سياسة كيسنجر مثـل غـيره ، اخرج من عـمله في الاهرام » ٠

ولقد اختصرت هذه الروايات كثيرا ، واكتفيت الان بمجرد اشارات اليها ٠

اختصرت بعض ذلك تادبا ، ولعـلي اتجاسر فاقول انني اختصرت البعـض الاخـر تواضعـا ، ففيه الكثير مما قـد يحسن الـي ، ولكنه قد يسيء الـى آخرين ، وهو ما لا اريده ، لان هـدفي من هـذه النقطة كان مجرد ذكر انـه كانت لدي اسباب اضافية للاهتمام « بهنري كيسنجر » وسياساتـه وادواره خصوصا في ازمة الشرق الاوسط ٠

. . . . . .

. . . . . .

وكانت هذه مقدمة في شرح دواعـي اهتمامي واهتمام غيري بالاقتراب هذه الايام من حكاية « عزيزنا هنري » ! ٠

الحديث الثامن

قبل ان التقي « بهنري كيسنجر » حاولت ان استعد لهذا اللقاء ٠

كانت أول محاولة لترتيب لقاء بيننا في سنة ١٩٧١ ٠ وقام بالمحاولة رئيس مجلس ادارة شركة « بيبسي كولا » ، وكان صديقا حميمـاً للرئيس الامريكـي ـ وقتها ـ « ريتشارد نيكسون » ، فقد اختاره في فترة التيـه من حياته محاميا لشركته بمرتب كبير ٠ وطرح « كاندال » عـلى فكرة اللقاء مع « كيسنجـــر » فيمناقشة بيننا في القاهرة في ربيع ١٩٧١ بحضور الدكتور زكي هاشم المحامي المصري ذي الكانة الدولية البارزة ووزير السياحة المصري فيما بـعد ٠

وبعد اسبوع من عـودة « كاندال » الى واشنطن طلب موعـدا من المشرف عـلى شئون الرعـايا المصريين في الولايات المتحدة ـ وهو سفير مصـــر الان في واشنطن : الدكتور أشرف غربال ـ واكد لـــــه حماسة الرئيس « ريتشارد نيكسون » لاقتراح اللقاء بين « كيسنجر » وبيني ، ثم حماسة « كيسنجر » نفسه لاتمام هذا اللقاء ٠ وكتب الى السفير اشرف غربال رسالة خطية بما دار بينــه وبين « كاندال » ٠

وبعد قرابة شهر طلب « كاندال » موعـدا مع السفير الدكتور محمد حسن الزيات مندوب مصر الدائـم في الامم المتحـدة وقتها ووزير الخارجية المصري فيما بعـد ـ لكي يستعجل وصولي الى واشنطن حتى يتم اللقاء المقترح الـذي حددو ا له موعـدا في عـطلة نهاية الاسبوع الاخير من شهر اكتوبر ١٩٧١ ، وكان الترتيب أن يتم اللقاء في مزرعـة يملكهـا« كاندال » في ولاية كونيتيكت الامريكية ٠٠٠ نقضي فيها معـا يومين كاملين ، ثـم نعـود الى واشنطن لمقابلة مع الرئيس الامريكي في البيت الابيض دون أن ينشر أو يذاع عـن هذا كلـــه شيء . والهدف من ذلك أن يكون استطلاعـا هادئا ومباشرا لوجهات النظـــر المصرية والامريكية في الحلـول الممكنة لازمة الشرق الاوسط ٠ وكتب الدكتـور الزيات تقريرا عـما دار بينه وبين « كاندال » في تقرير خـطي بعث به مع الامين العـام السابق للجامعـة العربية السيد « عبد الخالق حسونة » ليسلمه الـى رئيس الوزراء المصري في ذلك الوقت ، وهو الدكتور « محمود فوزي » ٠وعرض

الدكتور « فوزي » الامر على رئيس الجمهورية ، وكان على دراية كاملة بالموضوع، فأشار عليه بأن يسلمني التقرير لأنه سوف يناقشه بعد ذلك معي . وقد حدث ·

واعترف انني ترددت في قبول اقتراح اللقاء مع كيسنجر ـ رغم حماسة كل الاطراف له ـ ثم اعتذرت عنه أيامها لملابسات وأسباب شرحت بعضها من قبل في مقال بعنوان « كيسنجر ··· وانا مجموعة أوراق » ، نشرته في جريدة « الاهرام » في نهاية سنة ١٩٧٢ ، وكان ذلك في معرض الرد على حملة من تلك الحملات التي تعرضت لها وما زلت اتعرض . وتلك قصة او قصص اخرى · لكن المهم أنني قبل الاعتذار رحت احاول دراسة فكر « كيسنجر » وأسلوب عمله ، ثم ظل اهتمامي بالرجل قائما حتى التقيت معه فعلا في شهر نوفمبر ١٩٧٣ ـ في اعقاب حرب اكتوبر العظيمة · يومها دام اول لقاء بين « كيسنجر وبيني قرابة ثلاث ساعات ، ولم انم ليلتها الا بعد أن سجلت تفاصيل ما دار فيه كاملا وانطباعاتي حوله في مذكراتي ، وقد ملأت منها واحدة وستين صفحة· ثم نشرت في « الاهرام » أجزاءا مما دار بيننا في مقال بتاريخ ١٦ نوفمبر تحت عنوان « مناقشة مع كيسنجر » ، واحتفظت بالباقي لنفسي وللايام !

□

اتذكر ان اكثر ما لفت نظري خلال محاولتي لدراسة « هنري كيسنجر » كان : ايمانه بالقوة ، وفهمه لابعادها وحدودها ، واستيعابه لامكانيات ممارستها حتى في ظلال التوازن النووي وأحكامه الصارمة ، ثم سعيه طول الوقت للامساك بمفاتيحها في يده ، وتشوقه الى حد اللذة لممارسة العابها على المستويين الاستراتيجي والتاكتيكي معا !

واتذكر انني سألته في ذلك اثناء مناقشتنا الاولى · قلت له :

ـ ان اساتذة الجامعات قد يعرفون ، ولكنهم في العادة يعجزون عن الممارسة ··· وربما كنت انت النموذج الوحيد لاستاذ جامعة ، استاذ تاريخ وعلوم سياسية واتته الفرصة لممارسة علمه ··· لاول مرة في حالتك النظرية والتطبيق » ·

وقال كيسنجر :

ـ ان الفرص لا تجيء الى الناس ، ولكن الناس يذهبون الى الفرص ·

لقد كان ما افعله الان في خيالي دائما · كان حلمي ··· دعني اقول رغبتي ··· ان احول تصوراتي السياسية الى حقائق ··· لا تنسى ان تصوراتنا السياسية لا تجيء الينا من المجرد ، وانما تجيء الينا من دراسة التاريخ ···

ان التاريخ لا يكرر نفسه ، ذلك اعتقادي ، ولكني اوافق مع « سنتيانا » بان الذين لا يدرسون التاريخ هم وحدهم المحكوم عليهم بتكراره ...

هل انا واضح ؟ »

قلت :

ـ انك واضح جدا ، ولكنك ما زلت في مجال الاستاذ ، ما زلت في المجال الاكاديمي بما قلت حتى الان ، ما اسأل عنه في الحقيقة هو القوة : فهمك للقوة وممارستك لها ، اليس ذلك غريبا بالنسبة لاستاذ جامعة ؟ »

وقال كيسنجر :

ـ هل تستغرب اذا قلت لك انني كنت طول عمري اتصور أنني ساقوم بما اقوم به الان ... الافكار في حد ذاتها لم تكن هي شاغلي ، وانما شاغلي كيف توضع هذه الافكار امام اختبار التطبيق ، وهذا بالطبع يحتاج الى القوة ، ويخيل الي ان طلبها والسعي اليها كانا طول الوقت في دمي ، ولا اعرف كيف بدا ذلك عندي ، ولا متى ؟

ان كلا منا يمر بثلاثة اطوار فكرية ونفسية .

أن يعد الواحد منا نفسه لدور ما ، ثم ان يكون عنده ما يقوله عندما يمسك بفرصته ، وأخيرا يكون التحدي الذ يواجهه هو : كيف يؤدي دوره ، وبأي اسلوب في اطار الواقع وظروفه ؟ ! »

□

كيف اعد « كيسنجر » نفسه لدوره ؟ وكيف تولد لديه هذا الشعور بمقاديره؟ وكيف خرج ليمسك بالفرصة « التي لا تجيء وانما يذهب اليها اصحابها » ؟

اسئلة صعبة ، ولكن نظرة سريعة على قصة حياة « هنري كيسنجر » تستطيع أن تعطي بعض الاشارات والتلميحات ، مع العلم بأن التاريخ ـ حتى في رأي كيسنجر ـ لا يلغي اهمية عنصر المصادفة ، أو الحادثة ـ على حد تعبيره هو ـ وان كانت المصادفة أو الحادثة لا تقع في فراغ من التاريخ :

صبي يهودي : هنريش كسينجر ، في الثالثة عشرة من عمره في مدينة فورت في المانيا سنة ١٩٣٦ ، وادولف هتلر في عنفوان قوته في المانيا النازية . والعاصفة بدأ هبوبها ضد اليهود ، والجحيم الذي كان ينتظرهم في معسكرات الاعتقال على وشك أن يفتح أبوابه .

والصبي يعلق على صدره نجمة داود باللون الاصفر تقول لكل الناس

انه يهودي ··· هكذا كانت الاوامر ، والنجمة الصفراء على صدر اي انسان رجلا او امرأة او طفلا دعـوة لاضطهاده ·

والصبي يتعرض لكل انواع الاضطهاد حتى من زملائـه في مدرسة فـــورت الثانوية الى درجة السب والضرب ·

وابوه يفكر في الهجرة الى أمريكا ، ويهاجر فعـلا ، ويصل هنريش الـــى نيويورك واحساسه بالخـطر ، بعـدم الامن يلاحقه طول الوقت لدرجة انه كـان ينتقل من رصيف الى رصيف في نيويورك عـندما يرى جماعـات من الصبية قادمين في اتجاهه ، كانهم حتى هنا في أمريكا يتربصون به !

ويغير ابوه اسمه من هنريش الى هنري ، كانما التخلي عـن الاسم الالماني القديم خلاص من التجربة الالمانية القاسية ، ثم يلحقه ابوه بمصنع اعداد فـــراء يعـمل صبيا في مخزنه ، يعـد الداخـل والخارج من الجلود اليه ومنـــه · ولكن الام تريده ان ينتهز الفرصة التي تتيحهـا له أمريكا ، ويذهب الى المدرسة، يدرس المحاسبة على اصولها حتى يكون على الاقل موظفا في المخزن وليس مجرد عامل فيه ، وهكذا يلتحق هنري بمدرسة ليلية لتعليم المحاسبة ومسك الدفاتـــر واعداد قوائم الجرد !

والى هنا وحياة « هنري كيسـنجر » عادية ، كحياة اي مهاجر يهودي اخـــر من المانيا النازية ، لا اعـد نفسه لدور ، ولا المصادفة او « الحادثة » فتحت امامه بابا للفرصة يدخل منه ليمسك بها !

□

وتقوم الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ وعمر كيسنجر ستة عشر عاما ·

وتشترك امريكا فيها مع نهاية سنة ١٩٤١ وعمره اكثر من تسعة عشر عاما ·

ويستدعي للخدمة العسكرية سنة ١٩٤٣ ، وتبدا التحولات الكبرى في حيـــاة كيسنجر وعمره احدى وعشرون سنة ·

الولايات المتحدة تستعد لغزو اوروبا والاعداد للخطة « أوفرلورد » على قدم وساق ، وهدف الخطة ارغام المانيا النازية على الاستسلام بلا قيـــد او شرط ، واحتلال ارضهـا لاقتلاع جذور النازية من اعماق تربتها الخصبة للدكتاتوريـــة الشموليـــة ·

وفي معسكر التجنيد والتدريب يكتشفون ان كيسنجر يتكلم الالمانية كالمانـــي بالطبـــع ·

وهكذا يدخل مدرسة للمخابرات تعده للعمل في ارض العدو المحتل ، وهـــو

اتجاه يتفق مع رغبة كيسنجر في ان يعود غازيا الى الارض التي خرج منها مضطهدا وهاربا ٠

وبالفعل فانه بعد استسلام المانيا وجد نفسه حاكما عسكريا ـ من المخابرات ـ لدينة المانية صغيرة ٠

كانت مهمته بالدرجة الاولى في هذه المدينة مطاردة النازيين، وتصفية النازية٠

وكان في هذه الفترة يعمل تحت قيادة ضابط من اصل الماني ايضا ـ وان لم يكن يهوديا ـ اسمه « فريتز كرامر » ، وكان في حياته المدنية قبل الجيش استاذا في جامعة هارفارد ٠

ويعجب الضابط « كرامر » بنشاط الجاويش كيسنجر وتكانه ، ويحاول اقناعه باكمال تعليمه بعد الخروج من الجيش، والالتحاق بجامعة حقيقية وليس بمدرسة ليلية في نيويورك تعلمه الحسابات ومسك الدفاتر وجرد المخازن ٠

وكانت هناك تسهيلات في امريكا للمجندين العائدين من الحرب تيسر لهم اعادة تاهيل انفسهم للحياة المدنية بعد سنوات القتال ، وبين هذه التسهيلات فرص متاحة لهم في الجامعات ٠ واستفاد كيسنجر من الفرصة ودخل الجامعة يدرس التاريخ !

ونلاحظ هنا ان ثالوث الفرص الذي اتيح لكيسنجر ربطه بثلاثة من اهم مؤسسات القوة :

- الجيش : الاداة المسلحة للقوة ٠
- المخابرات : المعلومات التي تستطيع القوة ان تتحرك على هديها ٠
- الجامعة : التي تمنح العلم الذي يستطيع خلق « التصورات العامة » التي تكملها المعلومات وتمكنها القوة المسلحة من تحقيق نفسها ٠

الجيش والمخابرات والجامعة : لقد بدا سعيه الى القوة !

□

وانكب كيسنجر على محاضرات التاريخ ، لكنه لا يريد ان يعيش مع الماضي، وانما يريد ان يرتب نفسه للمستقبل ويقتنع « بأن الحاضر لا يكرر الماضي وانما قد يتشابه معه وكذلك المستقبل » ، ثم يصل الى ان « مهمة المؤرخ ان يعرف ويحدد اوجه التشابه واوجه الخلاف بين الماضي والحاضر ٠٠٠ والمستقبل ايضا » ٠

وهكذا يختار موضوع رسالته للماجستير في دراسة التاريخ ٠

لقد اختار ان يكتب رسالته عن محاولة « مترنيخ » ـ مستشار النمسا العتيد ـ و « كيسلري » وزير خارجية بريطانيا الذي تعاون معه على اقامة سلام المائة عام الذي عاشت فيه اوروبا بعد هزيمة نابليون وحتى قامت الحرب العالمية الاولى · واختار كيسنجر لرسالته عنوان « عالم اعيد بناؤه » ·

ولم يكن الاختيار اعجابا بـ « مترنيخ وتاريخه » كما تصور كثيرون ، وانما كان اهتماما « بفترة تاريخية » معينة ·

واذا تذكرنا اقتناع كيسنجر « بان الحاضر لا يكرر الماضي وانما قد يتشابه معه وكذلك المستقبل ··· وان مهمة المؤرخ ان يعرف ويحدد اوجه التشابه واوجه الخلاف بينها جميعا ، اي الماضي والحاضر ··· والمستقبل ايضا ···»

اذا تذكرنا هذا الاقتناع عند كيسنجر فلا يظل لدينا سبب للتساؤل عن دواعيه في اختيار موضوع رسالته ؟!

اليس هناك تشابه ـ ولا اقول تماثل ـ بين الفترة التي ظهر فيها نابليون في بداية القرن التاسع عشر ، والفترة التي ظهر فيها هتلر في الثلاثينات من القرن العشرين ؟

كلاهما رفض النظام الذي وجده قائما في القارة الاوروبية ، وحاول هدمه وتغييره بالقوة المسلحة ، مما قاد اوروبا الى حمام دم خرجت منه تبحث عن سلامها الضائع وعن مستقبل اكثر امانا ·

نابليون رفض سيطرة الامبراطورية البريطانية والامبراطورية النمساوية والامبراطورية الروسية القيصرية ·

وهتلر رفض سيطرة بريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفيتي ·

نابليون وجه جيوشه كل صوب في اوروبا وغزا وسيطر ·

وهتلر وجه جيوشه كل صوب في اوروبا وغزا وسيطر ·

نابليون فوجيء بان الذين غزتهم جيوشه رفضوا التسليم بانتصاره واستمروا في المقاومة حتى غرق في ثلوج روسيا امام ابواب موسكو ·

وهتلر فوجيء بان الذين غزتهم جيوشه رفضوا التسليم بانتصاره واستمروا في المقاومة حتى غرق في ثلوج روسيا امام ابواب موسكو ايضا ·

هناك تشابه في الظروف التي ادت الى الحرب وفرضتها في بداية القرن التاسع عشر ـ والظروف التي ادت الى الحرب وفرضتها في الثلاثينات من القرن العشرين ·

وبنفس المقدار فان عالم ما بعد الحرب في التجربتين يحمل نفس التشابه ،

واوله رغبة عارمة في بناء سلام يدوم. وقد نجح « مترنيخ » في بناء سلام المائة عام بالتعاون مع « كيسلري » وزير خارجية بريطانيا على ايامه ، فهل يمكن ان ينجح قادة عالم ما بعد هتلر في نفس الشيء الذي تحقق في عالم ما بعد نابليون ؟! ·

لم يكن كيسنجر اذن يريد ان يكتب عن التاريخ ، وانما كان يريد ان يتعلم منه·

ويلفت النظر ان كيسنجر كان مطالبا في رسالته للماجستير بأن يكتب مائة وخمسين صفحة ، ولكن دراسته خرجت اخيرا في حوالي الخمسمائة صفحة ، مما جعل كثيرين يعتقدون انه كان يكتب لنفسه ··· يكتب ليتعلم ، ولا يكتب للاخرين وبينهم ممتحنوه ·· ولا يكتب ليسجل ما جرى في الماضي قبل اكثر من قرن من الزمان !

وقد خرج كيسنجر من دراسته لهذه الفترة بنظرية عن امكانية صنع السلام ، **يمكن تلخيصها في النقط التالية :**

١ ـ ان اكثر العصور بحثا عن السلام هي اكثرها تعرضا للقلق ، لان السلام ليس هدفا في حد ذاته ، ولكنه ينشا كنتيجة لقيام نظام دولي مستقر · واذا اصبح السلام هدفا في حد ذاته فان المجتمع الدولي سوف يجد نفسه تحت رحمة اكثر اطرافه عنفا ، لان الاطراف الاخرى سوف تحاول تهدئته باي ثمن ـ صيانة للسلام ـ وهذا يؤدي في الحقيقة الى عدم الاستقرار وضياع الامن الدولي

٢ ـ ان الاستقرار الذي يصنع السلام لا يجيء الا نتيجة الرضى بشرعية دولية مقبولة تصونها ترتيبات عملية واتفاق على الوسائل والاهداف المسموح بها في السياسة الدولية ـ وهذه مهمة الدبلوماسية ·

٣ ـ ليس هناك انفصال بين الدبلوماسية والقوة المسلحة ، لان الدبلوماسية ليست مباراة على مائدة المفاوضات بين رجال مهذبين ، وانما هي حوار بين مصالح متعارضة تستند كل منها الى رادع حقيقي يحميها ويفتح طريقها ، ولا بد من التوفيق بينها ، وقد عبر كيسنجر عن ذلك في النهاية بقوله « هناك زواج بين الدبلوماسية والقوة المسلحة ، وليس بينهما طلاق » !

كان « مترنيخ » في راي كيسنجر قد نجح في اقامة شرعية نظام ما بعد نابليون ، وحصل على سلام المائة عام ، وكان يمكن لاي قاريء مدقق ان يلمح من خلال رسالته عن العالم الذي اعيد بناؤه ـ ان السؤال الملح عليه هو : **ما هي الاسس والوسائل التي يمكن ان تقوم عليها شرعية نظام ما بعد هتلر ؟**

كان التاريخ في تقديره معملا للمستقبل

تجربة اكتملت ··· تنير الطريق الى تجربة ما زالت في دور التشكيل ··

□

وخطا كيسنجر بعد ذلك خطوة اخرى ٠

٠٠٠ اذا كان الحاضر لا يكرر الماضي ولكنه قد يتشابه معه ٠٠٠ واذا كانت مهمة المؤرخ ان يعرف ويحدد اوجه التشابه والخلاف ـ فكيف يستطيع كيسنجر ان يقوم بدور المؤرخ الحقيقي بالمعنى الذي يفهمه ؟

لقد وجد ان القوة المسلحة هي النقطة المركزية في نظريته عن صنع السلام كلها ٠

● اليس صنع السلام ـ في رايه ـ مجرد نتيجة لقيام نظام دولي مستقر ؟

● اليس قيام نظام دولي مستقر مرهون بالرضى بشرعية دولية مقبولة تتوصل اليها الدبلوماسية ؟

● اليست الدبلوماسية مربوطة رباطا لا ينفصم بالقوة المسلحة وموازينها بين الاطراف ؟

ـ اذن فان القوة المسلحة هي فعلا النقطة المركزية في نظرية السلام من اولها الى آخرها ، وهنا ـ في هذه النقطة ـ يختلف الحاضر عن الماضي ولايتشابهان٠

لماذا ؟

لان القوة المسلحة في العصر الحديث ، وبين الاطراف التي خاضت الصراع ضد هتلر وتريد ان تصنع سلامها بعده ، هي القوة النووية ، وهي شيء جديد على البشرية لم تعرفه من قبل ولا اعدت نفسها لاحتمالاته ٠ لكن العالم كله كان يطل على العصر النووي ويحول بصره بسرعة عنه رعبا منه وتطيرا ٠

وراح كيسنجر يقول :

ـ ان الرادع الذي يخاف اصحابه من استعماله لا يعود رادعا !

ثم بدا يفكر في استراتيجية جديدة لاستخدام القوة في العصر الحديث تواجه التناقض المخيف الذي وجدته القوى النووية ـ وامريكا على راسها امام عينيها وامام فكرها ٠

كان ذلك التناقض يتمثل في حقيقتين :

● اذا استعملنا السلاح النووي فهو الدمار الشامل ٠

● واذا لم نستعمل السلاح النووي فهو الاستسلام الكامل ٠

ولا بد ان يكون هناك طريق اخر بين هاتين الحقيقتين ٠٠٠ لا بد ان تكون هناك حقيقة ثالثة ٠

ولم يصل الى شيء ، ولكنه راح يفكر ، وراح يجيل النظر من حوله في هارفارد

حيث اصبح مدرسا مساعدا ، ثم راح يجيل النظر خارج هارفارد ·

وتوصل الى نتيجة اكتسبت فيما بعد قوة القانون في حياته وفي مسلكه، وملخص هذه النتيجة :

« ان اعظم الافكار تظل حبيسة في رؤوس اصحابها ، ولكنها لا تنطلق الا اذا انتقلت منهم الى قناعات الرجال الاقوياء الذين يستطيعون تحويل الدراسات الى سياسات ، والتصورات الى قرارات ·

ان حملة الافكار عليهم ان يسعوا الى حملة السلطة، واذا اقتنع هؤلاء فالفكرة حياة او حقيقة ، وبدون اقتناعهم فالفكرة سحاب او سراب !

واذن فان مكان صاحب الفكرة ان يكون قريبا من صاحب السلطة وليست هناك وسيلة اخرى ! »

وبدأ كيسنجر يمد بصره الى واشنطن حيث كل السلطة ·

□

وعرف كيسنجر ان المشكلة التي شغلته حول طبيعة السلاح النووي تشغل غيره ايضا ·

كانت المشكلة في ذلك الوقت ـ ١٩٥٤ ـ هي شاغل « مجلس العلاقات الخارجية » ، وهو هيئة من اقوى الهيئات السياسية نفوذا واكثرها هيبة واحتراما ·

وكان مجلس العلاقات الخارجية ـ وما زال ـ مؤسسة خاصة تضم عددا ضخما من كبار الشخصيات المهتمة باحوال العالم في الولايات المتحدة ··· وكانت قائمة اعضائه هي قائمة الرجال الاقوياء في الولايات المتحدة الامريكية ، وبالذات ما يعرف اصطلاحا باسم « المؤسسة الشرقية » وهي الارستقراطية المالية والاقتصادية والسياسية فوق قمة المجتمع الامريكي ، ومعظمهم من ولايات الساحل الشرقي لامريكا ، ومن هنا وصفهم ـ وعن هذا المجلس كما يتذكر كثيرون تصدر مجلة « العلاقات الخارجية » ذات السمعة العالمية والتأثير النافذ ·

المجلس ايضا كان مشغولا بالمشكلة التي شغلت المدرس المساعد في هارفارد ·

وكان المجلس قد كون من اعضائه حلقة مناقشة خاصة اجتمعت مرات عديدة في مقره، وتحاور اعضاؤها وتناقشوا، ولكنهم احسوا ان محاوراتهم ومناقشاتهم لا تتبلور في شكل نهائي ، لانه ليس بينهم من هو متفرغ لهذه المهمة ·

وكان رئيس لجنة الطاقة الذرية الامريكية وهو جوردون دين ـ في ذلك الوقت ـ

قد التقى بكيسنجر وسمع منه ، وكان جوردون دين في نفس الوقت عضوا في حلقة المناقشة الخاصة في مجلس العلاقات الخارجية ، وخطر له ان تستعين الحلقة بكيسنجر ، يكون مديرا متفرغا لها وتكون مهمته بلورة محاوراتهم ومناقشاتهم ، ووافقت اللجنة ٠

وتلقى كيسنجر هذا العرض وهو يشعر انها فرصته التي اعد نفسه لها ، وما هي الا اسابيع قلائل حتى حزم حقائبه من هارفارد وتوجه الى نيويورك ٠

كانت مهمته ان يعد النقط التي تستحق المناقشة في كل جانب من جوانب المشكلة ٠٠٠ مشكلة القوة النووية ٠ ثم ان يجهز في كل نقطة منها ورقة افكار عامة تكون منطلقا للمناقشة ٠ ثم يجلس مع الرجال الاقوياء حول المائدةيسمعهم وهم يبدون اراءهم بغير تحفظ ٠ ثم يكون عليه ان يبلور هذا كله في نتيجة نهائية، وبعد ذلك يفعل بها هو ما يشاء لان هؤلاء الرجال الاقوياء لا يريدون ان ينسب اليهم علنا ما يقولوه داخل القاعة المغلقة لحلقة المناقشة ٠

ولمدة سنتين تفرغ كيسنجر للعمل في مجلس العلاقات الخارجية ، وهو يصف هذه الفترة بانها اخصب سنوات عمره ٠

كان في صحبة الفكرة الاساسية للعصر ولكل عصر ٠٠٠ القوة النووية ، والقوة بصفة عامة ٠

وكان في صحبة الرجال الاقوياء في المجتمع الامريكي كله ٠

وبذل جهدا خارقا لكي يقدم عمله لهم ، وفي الحقيقة فانه كان يريد ان يقدم نفسه لهم ٠

وعندما انتهت اعمال حلقة المناقشة بعد عامين ، كانت النتيجة مزدوجة :

● اصبح الاقوياء جميعا اصدقاء له ، ورفعته هذه الصداقة من مدير مناقشة في خدمة اللجنة الى عضو فيها على قدم المساواة مع الاصدقاءالاخرين٠

● ثم تبلورت المناقشة في دراسة ضخمة تحت عنوان « الاسلحة النووية والسياسة الخارجية » ، ولما كان اسهامه فيها كبيرا ، ثم ان الكل تركوا له ان يفعل بها ما يشاء ، فقد اصبحت هذه الدراسة هي نفسها رسالته للدكتوراه قدمها لهارفارد حين عاد اليها بعد غيبة سنتين ٠

وبدا كيسنجر يدعي الى لجان كثيرة في واشنطن تشكل لبحث مشكلةاو اخرى من مشاكل السياسة الخارجية ، وهكذا اصبح نجما من نجوم ذلك المجتمع الذي يتحرك بين كراسي الاساتذة في الجامعات وكراسي السلطة في المؤسساتالحاكمة في واشنطن ، وهو مجتمع قدم لصناع القرار في الولايات المتحدة كوكبة من النجوم مثل « ماك جورج باندي » مستشار الامن القومي لكنيدي ، و « والت

روستو ، مستشار الامن القومي لجونسون ، وكثيرين غيرهما ·

□

وكان كيسنجر اكثر طموحا من كل هؤلاء الاساتذة النجوم ·

وحين عاد الى هارفارد خطرت له فكرة اخرى يقدم بها نفسه للعالم ، وهكذا بدأ مشروعه الشهير ـ في اطار الجامعة ـ لحلقة الدراسات السياسية الخاصة للقادة الشبان في العالم · كانت فكرة هذه الحلقة ان تدعو « هارفارد » كل سنة ما بين ثلاثين واربعين من الشباب الذي ينتظره المستقبل في قارات العالم المختلفة : من اوروبا وآسيا وافريقيا ومن امريكا ايضا : شباب من الدبلوماسيين والعسكريين والصحفيين والاقتصاديين والاساتذة الشبان في الجامعات ـ ثم يعيش هؤلاء جميعا لمدة ستة شهور في حلقة دراسية خاصة عن « الحكم والسياسة » يشرف عليها الدكتور هنري كيسنجر · وبعدها يعودون الى بلادهم والى اعمالهم ·

وقال لي كيسنجر نفسه مرة :

ـ لقد دعوتك في سنتين متعاقبتين لحضور حلقة الدراسات الخاصة لهارفارد، ولكني تلقيت منك اعتذارا بعد اعتذار ·

واستطرد :

ـ ان هذه الحلقة افادتني كثيرا ··· لم اكن اشرف عليها فقط ، ولكنني كنت تلميذا فيها طول الوقت ·

لقد تكلمت فيها كثيرا ولكني سمعت فيها اكثر ، وكونت لنفسي من خلالها صداقات واسعة في العالم كله ، وربما كان لهذه الحلقة فضل انها اقنعتني عمليا بالحقيقة البديهية ، وهي ان لكل مشكلة من المشاكل وجهتي نظر » ·

وكان من تلاميذ كيسنجر على سبيل المثال في هذه الحلقة « دنيس هيلي » وزير المالية البريطاني الحالي ، و« ييجال اللون » نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية في اسرائيل الان ، و « جيوفاني انيللي » رئيس مجلس ادارة شركة فيات واكبر المساهمين فيها ··· ومئات غيرهم ·

كان هؤلاء جميعا يسمعون محاضرات كيسنجر ، ثم تطول مناقشاتهم معه ، ويخرج في صحبة مجموعات منهم الى مطعم صغير او الى بيته في هارفارد لفنجان شاي لكي يتصل الحوار طليقا من اي قيد ، ثم كان بعد ذلك لا يفقد صلته بهم ، وانما يستمر تبادل الود والفكر بينهم عن طريق المراسلات ·

□

كان كيسنجر يعد نفسه لدوره ·

لقد اكتشف عصره ومجاله في هذا العصر ، ثم قدم نفسه للاقوياء في الولايات المتحدة ، ثم مد خطوطا بينه وبين رجال لهم مستقبل في العالم كله · **وبقي ان يقترب اكثر من القمة وان يخطو في اتجاهها ·**

وفي ذلك الوقت كانت اسرة روكفللر » ـ كجزء من خدمتها العامة للمجتمع الامريكي ومصالحه ، وكجزء من عملية اعداد احد رجالها وهو نيلسون روكفللر لرئاسة الولايات المتحدة ـ تحاول انشاء لجنة دراسات خاصة للخيارات المطروحة امام الولايات المتحدة في السبعينات وبعدها ·

واقترب كيسنجر من مشروع اسرة روكفللر ، ثم التصق التصاقا كاملا بنيلسون روكفللر نفسه ·

لم يصبح مدير لجنة الدراسات الخاصة فقط ، وانما اصبح مستشارها الاول في السياسة الخارجية ، وكان هو الذي وضع البرنامج السياسي الخارجي لمشروع حملته الانتخابية للرئاسة سنة ١٩٦٨ ·

بل ان كيسنجر كان في صحبة روكفللر الى مؤتمر الحزب الجمهوري في ميامي سنة ١٩٦٨ . ولكن روكفللر لم يحصل على ترشيح الحزب ، وفاز نيكسون بهذا الترشيح ، ونجح في انتخابات الرئاسة · وغادر كيسنجر ميامي عائدا الى هارفارد حزينا اسفا لانه كان يعتقد ان نيكسون « رجل صغير تافه لا يمكن ان يكون موضع ثقة من احد ، وهو كفيل بان يقود الولايات المتحدة الى كارثة » ، وكانت هذه اوصاف كيسنجر لنيكسون نصا وحرفا ! ·

□

ثم كانت المفاجاة الكبرى ·

ذلك ان نيكسون ـ الذي اعجب ببرنامج روكفللر للسياسة الخارجية وهو البرنامج الذي وضعه كيسنجر ـ دعاه الى مقابلته وعرض عليه ان يعمل مستشارا له لشئون الامن القومي ، ولم يتردد كيسنجر في ان يمسك بالفرصة ·

وهكذا فانه حصل من روكفللر على شيك بمبلغ خمسين الف دولار مكافاة له في اعداد برنامجه الانتخابي للرئاسة ·

ثم ذهب ليعمل مع نيكسون ـ الذي نافس روكفللر وهزمه ـ ولينفذ معه نفس برنامج السياسة الخارجية الذي قبض ثمنه من روكفللر !

وانطلقت الصيحة في معسكر روكفللر تتهم كيسنجر « بالانتهازية » ، وكان رد كيسنجر ان اشار الى فقرة من كتابه « عالم اعيد بناؤه » يقول فيها عن مترنيخ :

ـ نعم ، ان مترنيخ كان انتهازيا ··· وكل سياسي يريد ان يوجه الحوادث لا بد له من قسط من الانتهازية والمعيار الحقيقي هو ان نفرق بين الذين يطوعون اهدافهم للامر الواقع ، او الذين يريدون تطويع الامر الواقع لاهدافهم» !

واقتنع البعض بهذه الفلسفة ، ولكن البعض الاخر لم يقتنع ، وكان بينهم من بلغت به القسوة على كيسنجر حدا جارحا ·

واتذكر انني ناقشت شخصية كيسنجر مرة مع احد وزراء نيكسون القريبين منه وقتها والمطلعين على دقائق الامور ، وكان تقييم محدثي لهنري كيسنجر كما يلي بالحرف :

ـ «ان هنري ليس مجرد شخصية ، ولكنه مشكلة ، ولعلي اقول ازمة ·

وازمة هنري انه لا يشعر باي امان داخلي ، ولذلك فهو دائما يبحث عن غطاء ، او فلنقل يبحث عن سيد ، وربما كانت تجربته في المانيا النازية هي التي طبعته مبكرا بطابع القلق والتوتر ·

وهو طاقة في العمل لا مثيل لها ··· ثم هو شعلة ذكاء ، ولكن الجلد والذكاء لا يعطيان وحدهما لاي انسان امانه النفسي ، لان هذا الامان تصوغه التجارب الاولى والبيئة والانتماءات والولاءات ·

والظروف لم تعط هنري انتماءا محددا او واضحا ، فهو لا يعرف ان كان المانيا ، او كان امريكيا ، او كان يهوديا ، وهو يستسلم لهذه الولاءات المتداخلة احيانا ، وفي احيان اخرى يتمرد عليها ويكرهها ويكره نفسه فيها !

··· سالني احد زملائنا ـ الكلام ما زال لمحدثي ـ في مجلس الوزراء مرة :
ـ كيف نسلم امن امريكا لرجل لم يولد في امريكا ؟

وقال لي سياسي اوروبي بارز ذات يوم :

ـ ان هنري عن طريق تحكمه في القوة الامريكية يريد اذلال اوروبا · لا ينسى انها طردته مرة من ارضها ايام المانيا النازية ·

وقالت لي شخصية اسرائيلية عرفته عن قرب ـ والكلام ما زال لمحدثي ـ :

ـ احيانا اتصور ان هنري نموذج لليهودي الذي يكره نفسه ويريد اثبات ذاته عن طريق تدميرها !!

وفي كل هذه المناسبات دافعت عن هنري بحكم ضرورات اللياقة ·

ولكن هنري في الحقيقة رجل لا ولاء له ·

لو سالتني عن ولاءاته لقلت لك :

ـ ولاؤه الاول لهنري كيسنجر ··· وولاؤه الثـــاني لهنري كيسنجر ··· وولاؤه الثالث لهنري كيسنجر ·

لكي اكون منصفا ، فانا اعتقد ان له ولاءات تتعدى شخصه بعد ذلك ، وتجيء في الدرجة الرابعة والخامسة والسادسة ·

بعد ولاءاته الثلاثة لهنري كيسنجر ، يجيء ولاؤه لاي سيـد يستخدمه ··· ومدة ولائه لهذا السيد هي بالضبط مدة خدمته معه ·

وأتصور ان لديه ولاءا بعد ذلك لامريكا التي اعطته الفرصة ·

ثم يجيء ولاؤه لشعبه » ·

وسالت محدثي :

ـ ما هو الفارق بين ولائه لامريكا وولائه لشعبه ؟

وكان رده :

ـ امريكا ليست شعبه ··· شعبه هو الشعب اليهودي !!

الحديث التاسع

كل عصفور لا يغني الا على شجرته ،وكل نسر لا يحلق الا في السماء التي يعرفها ، وكل سمكة لها بحرها الذي خبرت تياره وموجه ·

ونفس هذه الصورة في السياسة ، فكل سياسي له شجرته وسماؤه وبحره ··
اي ان كل سياسي لا يتحرك الا في اجواء معينة ، والا تحت مؤثرات محددة ، والا داخل حدود وتخوم يقيس بها ويستهدي بما يعرفه عليها من شواهد ومعالم ·

وعندما نحاول فهم دور اي سياسي فانه من الضروري اولا ان نبحث عن شجرته وسمائه وبحره ، لكي نصل ـ ثانيا ـ الى تحديد موقعه ومدى رؤيته ومجال حركته ·

ونضرب امثلة :

كان « تشرشل » يرى كل شيء من منظور القضاء على هتلر والمانيا النازية·

وكان « ديجول » لا يرى من اية مشكلة الا تاثيرها على عظمة فرنسا ودورها الخاص في القارة الاوروبية ·

وكان العالم كله بالنسبة « لتيتو » هو وضع يوجوسلافيا الدقيق والحرج على خط التماس الجغرافي السياسي بين موسكو وواشنطن ·

وبالنسبة « لهنري كيسنجر » فان الشجرة والسماء والبحر اصبحت : قضية السياسة والاسلحة النووية ···

كل شيء من خلال منظور هذه القضية ، وكل مشكلة تقود اليها ، واي حركة تبدا منها او تعود لها ·

□

ولقد نتذكر اننا اتفقنا ـ في حديث سبق ـ على ان القوة المسلحة هي النقطة

الرئيسية في نظرية « هنري كيسنجر » للسلام . وبما ان الخصم الاساسي الذي تواجهه الولايات المتحدة في هذا العصر هو الاتحاد السوفيتي . وبما ان القوة المسلحة لدى الاثنين خصوصا في مواجهة بعضهما هي السلاح النووي ـ اذن فهما بالنسبة « لهنري كيسنجر » : الجو والافق والحدود والتخوم ٠

وباختصار اكثر ، فاننا نستطيع القول بما يلي :

« ان كل الحوادث والتطورات تهم كيسنجر وتحركه بمقدار ما تقترب او تبتعد عن لمس العلاقات بين القوتين الاعظم في هذا العصر ، وعن التاثير في الميزان الدقيق والخطر بينهما » ٠

المشاكل التي شدته اليها او انجذب هو نحوها ـ هي المشاكل التي اقتربت من هذه العلاقات ولمست ذلك الميزان الدقيق والخطر : كمشكلة الامن الاوروبي ، وحرب فيتنام ، وازمة الشرق الاوسط بالذات سنة ١٩٧٣ ٠

واما غير ذلك من المشاكل فقد تركه « هنري كيسنجر » جانبا مهما بلغتدرجة الحدة فيه ، او حتى درجة المأساة ٠

وربما كانت افريقيا اوضح نموذج لمعايير كيسنجر في الاهتمام بالمشاكل او اهمالها ، فقد ظلت القارة بعيدة عن اهتمامه حتى سجل الاتحاد السوفيتي انتصاره المشهود في انجولا واصبح طرفا في حرب تحريرها ٠٠٠ ساعتها فقط التفت كيسنجر بسرعة نحو القارة السوداء وهرول يحاول انقاذ ما يمكن انقاذه في روديسيا وجنوب افريقيا ، وهدفه قفل الباب في وجه الاتحاد السوفيتي ٠

□

ولقد نقلنا كثيرا في العالم العربي واستشهدنا بعبارة مشهورة « لهنري كيسنجر » قال فيها :

ـ انني لا اقترب من الازمات الا وهي ساخنة ٠٠ الازمات الباردة لا تهمني»!

ولكني اشك في ان البعض منا فهم تماما معنى هذا الذي قاله هنري كيسنجر٠

تصورنا سخونة الازمات « في حد ذاتها » ٠٠٠

واما هو فقد كانت « السخونة » في رايه هي القرب او البعد عن لمس العلاقات بين القوتين الاعظم والتاثير في الميزان الدقيق والخطر بينهما ٠ ولناخذ نموذجا حيا يشرح هذه النقطة من ازمتين عشنا معهما هنا في الشرق الاوسط ٠

كانت هناك ازمة في عمان في شهر سبتمبر من سنة ١٩٧٠ ٠

وكنات هناك ازمة في بيروت امتدت ما بين سنة ١٩٧٥ وسنة ١٩٧٦ وما زالت مستمرة معنا حتى الان ، سنة ١٩٧٧ ٠

ولست اريد ان اقارن او احكم في حقائق او دقائق الازمتين ، ولكني اقــول انه كانت بينهما وجوه ظاهرة للتشابه ، كما انه كانت هناك وجـوه اخــرى للخلاف · ومن وجوه التشابه الظاهرة انه كان هناك :

- عامل فلسطيني متداخل في حياة عمان وبيروت تسنده وتؤيده عناصر عربية·
- وهذا العامل الفلسطيني ـ لسبب او آخر ـ مشتبك مع السلطة المحلية ·
- وفي الحالتين تدخل سوري مسلح له منطقه واسبابه ·
- وكان كيسنجر مسئولا عن توجيه السياسة الامريكية عندما حدث ما حدث في عمان ، ثم عندما حدث ما حدث ـ وما زال يحدث ـ في بيروت ، وفي المرتين كان تصرفه مختلفا ·

في المرة الاولى في عمان تحرك بسرعة ، وتحركت الحوادث بسرعة !

في المرة الثانية تحرك بهدوء ، وسارت الحوادث على مهل ، وظلت تفاعـلات الازمة جارية على هواها تشعل النار وتسيل الدم ، والعالم يتفرج !

الازمات الخطرة لا بد من تطويقها وبكل جهد ممكن ·

والمآسي الدامية يتابعها المتفرجون بعواطفهم الحزينة ، وربما بدموعهم ،وهذا كل شيء لان خطرها عليهم محدود ·

لماذا كان ما حـدث في عمان ازمة خطرة ، ولماذا كان ما حدث في بيروت مجرد مأساة حزينة ؟!

السبب ، او جزء هام من السبب ، ان ما حدث في عمان في سبتمبر سنـة ١٩٧٠ اقترب بشكل او آخر من لمس العلاقات بين الاطراف الاعظـم والتاثير في الميزان الدقيق والخطر بينهما ·

وقتها كان الاتحاد السوفيتي مشدودا الى مجال الازمة بحكم ارتباطاته باطراف عربية مهتمة بها وداخلة في تفاعلاتها ·

واما ما حدث ـ وما زال يحدث ـ في بيروت ، فـقد ظـل بعيدا عـن لمس العلاقات بين الاطراف الاعظم والتاثير في الميزان الدقيق والخطر بينهما ··· لان الاتحاد السوفيتي بعيد او مبعد عن الاهتمامات والتفاعلات ·

ولم تكن ازمة عمان اكثر سخونة ـ في حد ذاتها ـ من مأساة بيروت ·

واذا اخذنا معيار الدم وحده فان الدم الذي سال في بيروت يزيد اربعين مـرة تقريبا عن الدم الذي سال في عمان ، ومع ذلك فان كيسنجر اخذ الامور علـى مهل ، وعندما كانت الاصوات تناديه بان يظهر اهتمامه بازمة لبنان كان يكتفـي

بقوله : « ان الطبخة لم تنضج بعد » . ثم تبين ان الطبخة لا تنضج في تقديره الا بعد ان يكون كل الفرقاء في لبنان قد انهكوا قوى بعضهم البعض واستنزفوها .

واذن فهي ليست السخونة في حد ذاتها .

وانما هي السخونة عند نقطة معينة قرب علاقات القوتين الاعظم والميزان الدقيق والخطر بينهما ، فهنا شجرة كيسنجر وسماؤه وبحره !

□

ولعل هذه النقطة تتضح امامنا اكثر اذا رفعنا البصر درجة او درجتين في اتجاه الشمال من شرقي البحر الابيض المتوسط ، وحيث التوتر الشديد بين تركيا واليونان .

قامت تركيا بصرف النظر عن الاسباب بغزو قبرص عسكريا تحديا لليونان .

والحرب بين الاثنين يمكن ان تنشب في اية لحظة ، وكلاهما – تركيا واليونان – عضو في حلف الاطلنطي .

ولم يتحرك كيسنجر على عجل ، وانما تحرك على مهل .

لم يكن الموضوع في رأيه ازمة ، وانما كان خلافا ، رغم ان الحرب وقعت في قبرص ، وهي محتملة الوقوع في اي يوم بين اليونان وتركيا .

وكان الموضوع خلافا – وليس ازمة – لانه ظل بعيدا عن علاقات القوتين الاعظم والميزان الدقيق والخطر بينهما – ذلك لان كل الاطراف المباشرين في صراع بحر ايجه بعيدون او متباعدون عن القوة الاعظم الاخرى .

هكذا بقي صراع بحر ايجه محصورا في اطار الاسرة الواحدة .

والولايات المتحدة في هذا الصراع لا تواجه احدا ، وانما هي تقوم بدور رب الاسرة او الحكم في خلافات الاطراف المحليين . وهذه عملية تمارس دون احساس بأي ضغط من خطر داهم او محتمل على القمة الدولية .

وعندما وضع هنري كيسنجر في قائمة اهداف سياسته في الشرق الاوسط ان يخرج الاتحاد السوفيتي من المنطقة ، فانه لم يكن يفعل ذلك لمجرد الانتقام منه ، وانما كان الى حد كبير يريد ان يحتوي تفاعلات المنطقة بحيث لا تؤثر في علاقات القوتين الاعظم والميزان الدقيق والخطر للعلاقات بينهما .

ذلك يعطيه فسحة الوقت التي يريدها بغير ضغط من خطر داهم او محتمل على القمة الدولية ، ثم لعل ذلك يمكنه من تحويل ازمة الشرق الاوسط الى خلاف في الشرق الاوسط تلعب فيه الولايات المتحدة دور الحكم الذي تتجه اليه كل اطراف النزاع في المنطقة ليفتي ويقضي بينهم .

ولعل عبارة وردت على لسان هنري كيسنجر في خلال مناقشات لجنة الشئون الخارجية للكونجرس الامريكي حول اتفاقية سيناء الثانية ـ ان تكون دليـــلا ومؤشـــرا ٠

قال كيسنجر في هذه العبارة :

ـ ليس لدي حل نهائي للصراع العربي الاسرائيلي ٠٠٠ ولكن هدفي ان اجعل مخاطر هذا الصراع محتملة بالنسبة للولايات المتحدة حتى تتاح لنا ظـــروف نعثر فيها على حـــل » !

معنى العبارة واضح ، لا يحتاج الى شروح او تفصيلات ٠

واول ما تعنيه العبارة هو ان كيسنجر يريد ان يتراجع بما جرى ويجري على ارض الشرق الاوسط من درجة « حرب عربية اسرائيلية » الى درجة « صراع عربي اسرائيلي» ٠٠٠ ليصل بهذا كله اخيرا الى درجة «خلاف عربي‌اسرائيلي»٠

واذا نجح فانه بذلك يحول « الازمة » في اسوا الظروف الى مجرد « ماساة » من الدم والدموع ٠٠٠ لا اكثرولا اخطر !

□

٠٠٠ شجرته وسماؤه وبحره : قضية السياسة والحرب النووية ٠٠٠

كل شيء من منظورها ، وكل مشكلة تقود اليها ، واي حركة تبدا منها وتعود بهـــا !

وهي هي وليس غيرها صلب وصميم نظريته حول صنع وصيانـــة السلام في العصر النووي ، وهي نظرية تتكشف خطوطها العريضة شيئـا فشيئا كلمـــا زادت درجة متابعتنا لكتابات هنري كيسنجر واقواله وممارساته ، ولعلي اجازف بعرض الخطوط العريضة لهذه النظرية على النحو التالي :

١ ـ كان الانسان طوال التاريخ يسعى باستمرار الى تسخير قوى الطبيعـــة لخدمته ، ولقد عاقبته الهة المقادير « نيمسيس » بان حققت له اكثر ممـــا تمنى ، فوصل الى سر القوة النووية (هذا الوصف الشاعري هو لهنري كيسنجر فـــي فاتحة الفصل الاول من رسالته للدكتوراه بعنوان « السياسة والاسلحة النووية» ، وهذا الفصل بعنوان « تحديات العصر النووي ») ٠

وبوصول الانسان الى القوة النووية ، فانه لم يحصل فقط على قوة لم تخطر بخياله من قبل ، وانما حصل على قوة اكثر من قدرته على استعمالها ، لانهـــا قادرة على اي شيء ابتداء من الدمار الشامل الى التطوير الكامل ، وما بيـــن الاثنين ـ الدمار والتطوير ـ مرهون بالانسان وبان يعرف كيف يستعمل هـــذه القوة الهائلة وكيف يسيطر عليها ٠

٢ ـ ان استعمال القوة النووية عسكريا ـ اي في صنع اسلحة نووية ـ كان بمثابة توقيع ميثاق عدم اعتداء ، لان الحرب ـ على حد تعبير دوايت ايزنهاور ـ اصبحت مستحيلة ولم يعد هناك بديل عن السلام . ولكن هذا لا يعني ان السلام اصبح ممكنا ، ولا ان صيانته اصبحت تلقائية ·

٣ ـ ان الدبلوماسية كانت دائما مرتبطة بمنع الحرب الذي هو هدفها ، وخطر الحرب هو الدافع الى التحرك من اجل السلام · ولكن القوة النووية تغير هذا الوضع نظرا لاستحالة الحرب · ولهذا فلا بد من تطوير الدبلوماسية ، والا فان المجتمع الدولي سوف يكون تحت رحمة الاكثر عنفا من اطرافه او الاقلمسئولية. ذلك انه نتيجة لاستحالة الحرب لم يعد هناك رادع للتجاوز ، ثم ان بعض السياسيين قد يكونوا مذعورين الى حد خطير من القنبلة الذرية ، والى درجة ترغمهم على تقديم تنازلات تصل الى حد الاستسلام حتى يجنبوا شعوبهم خطر الحرب النووية !

٤ ـ لا بد لكل الاطراف في العصر النووي من فهم مسالتين حيويتين :

● من ناحية : لا بد من فهم وتحديد القضايا التي لا مفر من الحرب اذا جرى تحديها او تهديدها ·

● ومن ناحية اخرى : لا بد من فهم تكنولوجيا الاسلحة الجديدة ومدى تاثيرها على الخيارات الدبلوماسية والسياسية المتاحة ·

وهذه مسائل لا يمكن تركها للعسكريين ، ومع ان هناك بعد عسكري في هذه المسائل الا انه ليس البعد الاصلي، والحقيقة انالتحدي الاصلي فكريوسياسي·

٥ ـ ان الولايات المتحدة يجب ان تتوصل الى تطوير عقيدة جديدة لاحتياجات الدفاع عن نفسها تاخذ في اعتبارها حقائق الظروف المتغيرة ، وبينها :

● ان امريكا لم تعد كما كانت ، جزيرة تحميها المحيطات وتعطيها فسحة كافية من الوقت قبل ان يصل اليها اي غاز على فرض انه كان يستطيع قطع الطريق اليها ·

● ان أمريكا لم تعد كما كانت ـ في الحرب العالمية الاولى والثانية ـ قادرة على الانتظار على التهديد ينشغل عنها في مواقع اخرى قبل ان يصل اليها ، ومن ثم يعطيها الفرصة لتراقب وتقرر وتعبيء مواردها وتستعد ·

ان الحرب النووية الغت هامش « السلامة الامريكية » التقليدي ، واصبحالان محتما على امريكا ان تكتشف الخطر مبكرا ، لان انتظاره حتى يتاكد قد يجعل اي جهد يبذل لمقاومته متاخرا جدا ٠

٦ ـ والمشكلة في الحرب النووية ان الكارثة قد تنقض بدون الظواهر التقليدية التي تنبه الى نوايا الحشد والزحف واحتلال ارض اكثر ملاءمـــة للهجوم · فالاسلحة الجديدة كامنة في اوطانها لا تخرج منها الا اذا انطلقت وفـــات الاوان لوقف نوايا العدوان او حصرها ·

٧ ـ ان الرادع النووي لم يتحقق فقط بوصول السوفيت الى القنبلة الذريـــة والصاروخ الذي ينقلها ، وانما تحقق الرادع في نفس اليوم الذي القيت فيـــه القنبلة الذرية الامريكية الاولى على هيروشيما في اليابان ـ ذلـــك لان امريكـا عجزت عن تحويل القوة النووية الجديدة ـ حتى حين كانت تحتكرها وحدها ـ الى ميزة سياسية ، لانها لم تكن تعرف كيف تستعملها الا في حالة الدمـــــار الشامل ، وهكذا فان امريكا اصبحت في مازق بملكيتها للقنبلة الذرية ·

- لم تستطع ان تتصور سلاحا غيرها في هذا العصر ·
- ولم تستطع ان تتصور امكانية استعمالها ·

اي ان امريكا اضافت القنبلة الذرية الى ترساناتها الحربية بدون استيعـاب حقائقها ومعانيها في التفكير السياسي الامريكي ·

٨ ـ ان الخطا الاكبر الذي وقعت فيه امريكا هو انها اضافت القنبلة الذريـة الى ترساناتها كأداة جديدة في مفهوم الحرب القديم ، وهو المفهوم الذي لم يعرف للقوة المسلحة هدفا غير احراز النصر الكامل في حرب لا يمكن الا ان تكـــون شاملـــة ·

وكانت الدنيا قد تغيرت لان الحرب الشاملة اصبحت مستحيلة ، ولان النصر الشامل لم يعد له من معنى الا الدمار الشامل ·

وهكذا فان سياسة امريكا اصبحت دفاعية ··· سلبية ·

٩ ـ ان هذه الاوضاع كلها تركت اثارها على حلفاء امريكا في الغرب ، فقـد شعروا جميعا ان القوة الامريكية لن تستخدم الا في الدفاع عن تهديد موجه ضد امريكا نفسها ، وهكذا بدا هؤلاء الحلفاء يتحركون كل منهم في اتجاه ·

فرنسا بعد السويس بدات تحلم بقوة نووية فرنسية مستقلة ·

والمانيا الغربية بدات تتحسس طريقها نحو الشرق ·

وبريطانيا حاولت ان تاخذ دور السمسار في العلاقات بين روسيا وامريكا ·

لم يتفكك الحلف الغربي فقط ، وانما اصبح اطرافه عناصر ضغط على امريكا وليس على الاتحاد السوفيتي ·

١٠ ـ ان هذه الاوضاع هيأت المسرح لظهور عدد من الزعماء والقادة في دول

العالم الثالث ليخرجوا بفكرة وسياسة عدم الانحياز ، وقد اعطتهم ظـــروف الشلل الذي صنعته القوة النووية ،والخوف منها لدى الكبار ، فرصة للتاثيــر في العالم الواسع في اسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية ، واستطاع هؤلاء الزعمـــاء والقادة انيمنحوا انفسهم فرصة وحريةفي الحركة لم تكن تملكها الدول الصغيرة عادة (وكان نجاح جمال عبد الناصر في تاميم قناة السويس وانتصاره الكامــل في حربها الكبيرة اشهر النماذج التي ساقها كيسنجر في شرح هذه النقطة) .

١١ ـ ان سياسة الردع الشامل التي اتخذتها الولايات المتحدة في عصـــر ايزنهاور ووزير خارجيته دالاس ، اصبحت سياسة عقيمـــة لان اي سياسة لا تسندها قوة مسلحة قابلة للاستعمال فعلا تفقد هدفها وتضل عنه .

وهكذا خسرت امريكا عصر الحرب الباردة كله ، فقد بدت عدوانية فيمظهرها بالاعتماد على الردع الشامل ، وانتهت عاجزة في حقيقتها لانها لوحت بســـلاح غير قابل للاستعمال .

١٢ ـ في مقابل ذلك فان الاتحاد السوفيتي فهم مبكرا معنى العمل السياســي في العصر النووي ، فقد راح يتخذ مواقف تحد لامريكا ، ولكنه تحد لا يصل الى درجة تهديد حياتها ذاتها ، وبالتالي فقد ضمن ان لا تتحرك ضده بروادعهـــا النوويـــة .

وكان الاتحاد السوفيتي ينجح في تحقيق اهدافه ويترك لامريكا الخيار المؤلـم بما اذا كانت قادرة على مواجهة التحدي « المحسوب » بحرب شاملة لا يمكـــن السيطرة على نتائجها ، بل ان هذه النتائج دمار محقق لكل الاطراف .

وكانت امريكا تضطر الى التراجع عن حافة الهاوية ، وكان الاتحاد السوفيتي يفوز كل مرة بالغنيمـة .

وكان خروشوف ـ في راي كيسنجر ـ هو ابرع ساسة الاتحـاد السوفيتي في تلك المرحلة ، وقد استطاع ان يجعل من سياسة ايزنهاور ودالاس اضحوكـــة العالـــم .

وكان ايزنهاور يدعى ان خروشوف مجنون ـ يعرض الدنيا للخطر النووي ـ واما هو (ايزنهاور) فعاقل حريص على السلام .

وراي كيسنجر ان امريكا كان يجب ان تاخذ موقف الاتحاد السوفيتي وتترك له موقفهـا .

كان يقول : لا بد ان نتصرف نحن كالمجانين ونترك للسوفيت ان يتصرفـــوا كعقـــلاء » .

اي لا بد ان تخطو امريكا وتفعل ما تريد دون ان يبدو منه ان حياة الاتحـاد

السوفيتي في خطر ، ثم تترك له الخيار المؤلم فيما اذا كان على استعداد للـــرد على تحد محسوب له بحرب غير محسوبة !

١٣ ـ وكان اخر ما وصل اليه كيسنجر في نظريته هو انه نتيجة لما سبق فـانه من المحتمل ان تقع حروب محدودة ، وقد عرف الحرب المحدودة بانها « حــرب من اجل اهداف محددة ، وهي تخلق علاقة بين طاقة القوة المستعملة وبين الهدف المراد تحقيقه · وهي تمثل محاولة التاثير على الخصم وليس سحقه ، وهدفهـا هو ان تجعل الشروط المعروضة للمفاوضات اكثر اغراء من استمرار القتال ·· اي انها ـ باختصار ـ حرب تستهدف اعادة ادخال العنصر السياسي في الصراع والقضاء الى الابد على التصور القديم بان السياسة تتوقف حين تبدا المعارك ، او ان الحرب يمكن ان يكون لها هدف آخر غير اهداف السياسة الوطنية » ·

وقد تصور كيسنجر في البداية ان الحرب المحدودة يمكـــن ان تكون نووية ، وكانت تلك في الحقيقة خلاصة منطقه في كتاب « السياسة والاسلحة النووية » ـ لكنه بعد ذلك في كتابات اخرى ، بينها « ضرورة الاختيــــار » و « السلام على الارض » ، تراجع الى حرب محدودة بالاسلحة غير النووية ، وفضل ان لا تكون بين القوتين الاعظم وانما الافضل ان تدور ـ اذا دارت ـ بين غيرهم مع احتمال ان تكون كل واحدة من القوتين الاعظم وراء طرف من اطراف الحرب ·

و في مطلق الاحوال فقد كان راي كيسنجر انه ليست هناك دبلوماسية تستطيع ان تحل محل قوة ردع عسكرية كافية ·

□

هذه هي نظرية كيسنجر لصنع وصيانة السلام ·

هذه هي الشجرة عنده والسماء والبحر ·

وهذا هو الجو والافق والحدود والتخوم ·

الحديث العاشر

كل منا يمر بثلاثة اطوار فكرية ونفسية :

أن يعد الواحد نفسه لدور ما ...

ثم ان يكون عنده ما يقوله حين يمسك بفرصته ...

واخيرا يكون التحدي الذي يواجهه هو : كيف يؤدي دوره ؟ وباي اسلوب ضمن معطيات الواقع وظروفه ؟ »

هكذا قال لي « هنري كيسنجر » ، كما رويت في حديث سبق !

وقد راينا من قبل كيف اعد كيسنجر نفسه لدوره . ورأينا كيف استعد بما يقوله اذا امسك بفرصته . وبقي علينا اخيرا ان نحاول دراسة اسلوبه . وهذا موضوع حديثنا اليوم .

□

عندما نحاول دراسة اسلوب كيسنجر فسوف نصطدم على الفور بظاهرة جديدة .

هذه الظاهرة هي اننافي الحقيقة أمام اسلوبين « لهنري كيسنجر » وليس اسلوبا واحدا كما هو الحال بالنسبة لغيره من المفكرين أو الساسة .

والسبب واضح ، وهو أن « كيسنجر » كان « الاثنين في واحد » داخل نفس التجربة : المفكر والسياسي .

ان كيسنجر كان استاذ تاريخ وعلوم سياسية ـ ومن هنا كانت له اجتهادات نظرية في الاسلوب الذ يجب ان يمارس به اي سياسي دوره ...

لأن كيسنجر أصبح هو نفسه دورا سياسيا ـ فلقد كانت له بالفعل ممارسات في الاسلوب لم يتميز بها عن غيره فقط ، ولكنه اختلف فيها مع نفسه في كثير من الاحيان .

لهذا اقول انه كان « لهنري كيسنجر » اسلوبان :

« الاسلوب » الذي كتب عنه وحاضر في اجتهاداته النظرية ·
و« الاسلوب » الذي تصرف به وفعـل في ممارساته العـملية ·

وبتصوير عملي اخر :

فان « كيسنجر » قام لعدة سنوات بتدريس مادة : **ادارة الازمات السياسية ·**

ولكنه ولعدة سنوات بعد ذلك ـ وحتى الان ـ قام بدور : **مدير الازمـــات السياسية ·**

اي ان استاذ الادارة ··· اصبح مديرا ·

وهذه هي التجربة الجديدة المثيرة !

□

ان البحث عن « الاسلوب » كما راه استاذ « علم ادارة الازمات السياسيـة » سهل ومراجعه كثيرة في كتب « هنري كيسنجر » ومقالاته وتقاريره ومحاضراته ، وقد تتبعت كثيرا منها حتىفي المذكرات الاصلية لبعض طلبته في جامعة هارفارد، وقد سجلوها وهو واقف امامهم في مدرج الجامعة يحاضر ويشرح ويستطرد ·

وربما استطعنا ان نقول ان اسلوب « هنري كيسنجر » الاستاذ في « علـم الازمات السياسية » يستند بداية الى تصور عام لملامح الصورة الدولية كمـا يراها من موقعه وكما تبدو له في تطورها التاريخي المستمر ·

ويرى « هنري كيسنجر » ان العالم المعاصر ينقسم اساسا الى كتلتيـــن كبيرتين ، لكل منهما مجموعة قيمها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية الخاصة بها ·

كتلة الغرب تحت قيادة الولايات المتحدة الامريكية ·
وكتلة الشرق تحت قيادة الاتحاد السوفيتي ·

ويرى كيسنجر ان بين الكتلتين صراع : ايهما تنتصر وتسود مجموعة قيمها على العالم كله ، لان هذا العالم كله بفعل وسائل المواصلات وبينها وسائل نقل الاسلحة النووية قد اصبح ميدانا لهذا الصراع ، **وهكذا فان التناقض الرئيسي في العالم المعاصر اصبح يدور على مساحة الكرة الارضية كلها ، وهو وضـع يحدث لاول مرة في التاريخ الانساني ·**

ويرى « كيسنجر » ان ظروف الصراع اعطت لكل طرف مناطق مقفولـــة تمس امنه المباشر ، وبالتالي لا ينبغي تهديده فيها ، والمناطق المقفولة للاتحاد السوفيتي هي اوروبا الشرقية ، كما ان المناطق المقفولة للولايات المتحدة هـــي

اوروبا الغربية • ومن هنا كان قلقه وهو يرى الاحزاب الشيوعية في اوروبا الغربية تقترب يوما بعد يوم من السلطة بواسطة اللعبة الديمقراطية • وبصرف النظر عن الديمقراطية فقد بدا ذلك له دخولا شيوعيا غير مشروع الى مناطق يجب ان تكون مقفولة لحساب امن الولايات المتحدة ، وهو اخلال بالتوازن الدولي القائم ، خطير في مضاعفاته وعواقبه •

ثم يرى « كيسنجر » أن هناك بين الكتلتين الكبيرتين والمناطق المقفولة لحساب امن كل منهما ـ عالما ثالثا مفتوحا ، وهو في الحقيقة مجال المنافسة والسباق وطلب النفوذ الاقتصادي والسياسي ـ بينهما • وكان هذا العالم الثالث في معظمه تحت حكم وسيطرة الامبراطوريات الغربية الكبرى ،ولكنه ناضل للحصول على استقلاله وخرج يحاول أن يجد لنفسه مكانا تحت الشمس • والمشكلة أن هذا العالم الثالث يجد نفسه طبيعيا أقرب الى الاتحاد السوفيتي منه الى الولايات المتحدة ، فهو ـ حتى مع اختلاف الرؤية العقائدية ـ ثوري ، بمعنى انه يحاول تغيير النظام العالمي القديم وفرض نظام اخر اكثر نزوعا الى المساواة منه ، ثم انه يشك في ارتباط الولايات المتحدة بالامبراطوريات الاستعمارية القديمة ، فضلا عن انه يخشى من قوة امريكا المالية والاقتصادية ، ويتصورها نوعا من الاستعمار الجديد •

ومن محصلة ذلك يصل « كيسنجر » الى أن الولايات المتحدة ـ على راس المعسكر الغربي ـ تواجه تحديا من قوتين ثوريتين :

- **قوة الثورة الشيوعية ـ وعلى راسها موسكو •**

- **وقوة الثورة الوطنية في العالم الثالث ـ وهي في كثير من الاحيان تجد نفسها اقرب الى موسكو •**

وكاستاذ تاريخ فان « هنري كيسنجر يشعر أن الغرب يواجه تراجعا تاريخيا، فقد مضت ذروة ازدهاره ، ومالت شمس حضارته من وسط السماء منحدرة في اتجاه الغروب •

ولكنه كاستاذ علوم سياسية يدرك أن الغرب لا يستطيع ان يحل مشكلة تراجعه التاريخي بالحرب •

الحرب ضد الاتحاد السوفيتي مستحيلة الا في حالة خطر موجه الى قلب الولايات المتحدة ذاته ـ لانها سوف تكون حربا نووية •

والحرب في العالم الثالث صعبة ـ وان لم تكن مستحيلة ـ ففي الامكان ان تجري الحرب هناك محدودة ـ الا اذا ادت الى تاثيرات على العلاقات بين الكتلتين الكبيرتين •

وهنا نصل الى المفاتيح الرئيسية في أسلوب « كيسنجر » كأستاذ لعلم ادارة الصراع السياسي :

● بالنسبة للتناقض الرئيسي بينه وبين الاتحاد السوفيتي فأسلوبه كما يلي :

١ ــ استبعاد الحرب الا كملجأ اخير وحين يكون التهديد موجها الى قلب الولايات المتحدة ذاته ·

٢ ــ التخلي تماما عن فكرة « التفوق » ، لان « التفوق » في العصر النووي خرافة بعيدة المنال ، فضلا عن انها بالغة الخطورة ، ذلك ان مجرد « التعادل » في التسليح النووي يجعل كل طرف قادرا على تدمير الطرف الاخر سواء بالضربة الاولى او بالضربة الثانية · واذا كان معنى التفوق أن تكون لدينا القدرة على قتل عدونا مرتين أو ثلاث مرات ، فهذه بلاهة لان القتل لا يحدث الا مرة واحدة ·

والسعي وراء التفوق لن يؤدي الا لسباق تسلح مرهق ·

٣ ــ لا بد اذن من سعي الى تحديد الاسلحة النووية ، وهذا لا يحدث الا في ظل ضمانات متبادلة ، والضمانات المتبادلة لا يمكن الوصول اليها الا في جو من « الوفاق » يدرك فيه الاطراف أن تكديس الاسلحة النووية أو السباق لتطويرها في جو من الشكوك ــ سوف تؤدي الى كوارث انسانية أو اقتصادية تقصم الظهور ·

٤ــ هناك مسالة اخرى بالغة الاهمية ، وهي أن تحديد الاسلحة النووية ووقف السباق الى تطويرها وتخفيف حدة التوتر بعد ذلك في جو « الوفاق » ــ سوف تؤدي جميعا الى تحويل موارد ضخمة في الاتحاد السوفيتي من بند الانتاج الحربي والدفاع الى بند الانتاج المدني والاستهلاك ، وهذا سوف يفتح شهية شعوب الشرق لمطالب استهلاكية ناعمة تتآكل معها نزعات الثورة عندها ، ويتحول لهيبها الى رماد · وتحول المجتمعات الى الترف الاستهلاكي يؤدي الى تغييرات سياسية تمس نظم الحكم وتغير طبائعها ·

وهكذا فان اسلوب كيسنجر في «الوفاق » لا يستهدف منع الحرب فحسب ، ولا منع سباق التسلح فحسب ، ولا منع تكديس الاسلحة المتطورة فحسب ، ولكن مطلبه النهائي هو تغيير المجتمع الشيوعي عن طريق الاغراء بالاستهلاك ·

و « كيسنجر » يعتقد ان ذلك ممكن ··· خصوصا اذا اتيحت للعملية كلها فسحة الوقت الكافية ·

وهكذا فان هدفه ازاء الثورة الشيوعية هو : أن يكسب وقتا ·

● وبالنسبة للتناقض الثاني بينه وبين العالم الثالث فأسلوبه كما يلي :

١ ـ ان شعوب العالم الثالث لديها الحق في بعض ما تشعر به من اثار الظلم والسيطرة الاستعمارية القديمة ٠

٢ ـ ولكن هذه الشعوب ليس لديها الحق في أن تميل طبيعيا ناحية الاتحاد السوفيتي ، لانها بذلك تدخل في لعبة اكبر من قدراتها واوسع من طاقاتها ٠

٣ ـ ان الولايات المتحدة يجب أن تعطي نفسها حرية في الحركة تمنع هذه الشعوب ـ مهما كان ما تشعر به من عدالة مطالبها او ما تراه حقا لها ـ من اللعب في ميدان الكبار وقرب ساحتهم ٠ وتستطيع الولايات المتحدة ان تتصرف بما يبدو أنه « الجنون » في سبيل ان تمنع الاتحاد السوفيتي من الحصول على ميزات في العالم الثالث ـ وتترك له اذا شاء ان يخوض حرب الدمار الشامل في قضايا لا يصل التهديد فيها الى قلبه ٠ وهو يرى ان الاتحاد السوفيتي سوف يتراجع قبل حافة الهاوية ، وليس امامه غير أن يتراجع ٠

٤ ـ ان الثورة الوطنية ـ من هذا كله ـ يمكن احتواؤها بالغواية بالتخويف ، كما يمكن ضربها بالحروب المحدودة حتى بغير اشتراك الولايات المتحدة ، وعلى الولايات المتحدة أن تتأكد انه يوجد لها في كل منطقة من العالم الثالث « كرباج » مستعد في كل لحظة ان يهوي على اي ظهر يحاول أن يرفع راسه بعد حد معين ٠

وهكذا فان اسلوب كيسنجر ازاء العالم الثالث لا يستهدف تأجيل الثورة فحسب ، ولا احتواءها بالغواية أو بالعنف فحسب ، ولكن مطلبه النهائي هو ابعاد تفاعلاتها عن التاثير في العلاقات بينه وبين الاتحاد السوفيتي ٠

واذن فهو يريد بكل الوسائل أن يؤجل ساعة الحسم ٠٠٠ أي انه بطريقة اخرى يريد هنا ايضا أن يكسب وقتا ٠

هكذا فاننا نستطيع الان ان نفهم معنى العبارة المشهورة المأثورة عن هنري كيسنجر ، والتي يقول فيها بالنص :

ـعلينا أن نفهم ان معظم الصراعات الكبرى في هذا العصر ليس لها حلول ٠٠٠ ليس لها حلول حاسمة ٠٠٠ ليس لها حلول سياسية ، وان كانت لها حلول تاريخية » !

وهذه هي المفاتيح الرئيسية في اسلوب كيسنجر كاستاذ لعلم ادارة الصراع السياسي !

□

ونصل الى مفتاح اخر في « اسلوب » كيسنجر حين نسمعه يقول :

ـ ان الحروب تنشا من دواعي حقيقية لدى الاطراف ، ولا تنشا من نزعات شريرة وفردية لطلب السيطرة ٠

ولو كان سوء النية هو الداء في الحرب ، فان حسن النية يصبح الـــدواء للسلام ·

وليس هذا صحيحا » ·

ويخرج كيسنجر بان البديل للحرب هو « المفاوضات » على ان لا يكـــــون موضوعها الدواعي الحقيقية للحرب لدى الاطراف ·

وهو يصف المفاوضات بقوله :

ـ ان المفاوضات ليست مباراة بالنصوص بين رجال اذكياء ، ولكنها تعبير بالنصوص عن قوى حقيقية لا بد من التوفيق بين مصالحها » ·
ويستطرد بعد ذلك اكثر ليقول :

ـ ليست هناك مفاوضات تستطيع نتائجها ارضاء كل الاطراف ··· ومـن الواجب أن يشعر كل طرف بقسط من عدم الرضا ·

لكننا يجب أن نفرق بين « عدم الرضا » و « الغضب » ـ لانه اذا كان هنـاك طرف غاضب ، فان هذا الطرف سوف يشعر دائما باغراء الخروج على نتيجـــة المفاوضات عند اول منعطف ·

وبالتالي فان هدف المتفاوضين يجب أن يكون اقرار وتامين اتفاق طوعـــي يتعاملون جميعا داخل حدوده ·

ومعنى ذلك انشاء شرعية جديدة » ·

ويصل ايمان كيسنجر « بالمفاوضات » الى ما وراء الحدود التقليدية التــي كانت تتصور أن المفاوضات لا تبدأ الا حين تنتهي المعارك ـ وهنا نجده يقول :

ـ ليس هناك زحف الى الابد · ولا بد أن نكون قادرين على النظر الى السلام من خلال دخان الحرب ونارها ·

ويخطيء الذين يتصورون أن الاحتكام الىالقـوة يعني التخلي عن العمـــل السياسي ، او أن الالتجاء الى العمل السياسي يعني التخلي عن القوة ·

ان القوة عنصر واحد وليس وحيدا في عناصر الامن ، والسياسة المعزولة عن القوة المسلحة هي سياسة عقيمة ، والحقيقة انه ليست هناك دبلوماسيـــــة تستطيع أن تحل محل قوة ردع كافية ·

□

لكن المفاوضات ليست موائد مستطيلة اومستد يرة في أسلوب كيسنجر كأستاذ

في علم ادارة الصراع السياسي ـ وهكذا نجد أمامنا مفتاحا اخر من مفاتيح اسلوبه ·

يقول كيسنجر :

ـ ان مصالح الدول ترتبط بقوتها ، والقوة مزيج مركب يتكون من القدرة العسكرية والموارد الاقتصادية · وممارسة القوة تعتمد بالدرجة الاولى على نوعية القيادة السياسية في اي دولة ·

ويمضي كيسنجر بعد ذلك الى ما يشبه الاعتراف :

ـ اذا كنت تتفاوض مع طرف اخر فعليك قبل الجلوس الى مائدة المفاوضات معه ، وقبل أن تقرأ مذكراته وتستمع الى حججه وشواهده ـ ان تفعل شيئا اخر وهو أن تنظر من خلال الطرف الاخر على المائدة وتدرس ما وراءه ·

عليك أن تجد الاجابة على اربعة اسئلة حيوية عن الطرف الاخر قبل أن تتفاوض معه ، لكي تعرف كيف تتفاوض :

١ ـ ما هي رؤيته الاستراتيجية والسياسية التي يصنعها وضعه الجغرافي وظروف هذا الوضع ؟

٢ ـ ما هو مدى التاييد الداخلي الذي تلقاه سياساته ؟

٣ ـ ما هي علاقاته باطراف اخرى : ما هي صداقاته مع الاخرين او تحالفاته ··· ثم ما هي عداواته ، ومع من ، ودرجة قوتهم ازاءه وضغوطهم عليه ؟

٤ ـ ما هي نوعية القيادة السياسية التي تحكم في بلاده ـ ما هي مدى قدرتها على تحقيق الاهداف التي قررتها لنفسها او اعلنتها لشعبها ؟

وبعد أن تجيب على هذه الاسئلة بدقة ، تستطيع بدء المفاوضات عارفا على اي ارضية تتحرك » !

ثم يمضي كيسنجر الى تفصيل اكثر فيقول :

ـ انه من اهم الامور وانت تتفاوض مع دولة اخرى ان تعرف لماذا اختارت هذه الدولة سياسة معينة ولم تختر غيرها :

هل لان المسؤولين فيها وجدوا هذا المسلك اكثر امانا من غيره بالنسبة لهم ؟

هل لان قادتها يريدون اختبار رد فعل خصومهم ؟

هل لان هناك راي عام في بلادهم يلح في اتجاه سياسة معينة ؟

هل لان زعماءها مرتبكون ويريدون باي ثمن خلق الانطباع أو الايهام بانهم ما زالوا قادرين على الحركة ؟

□

ثم نقابل حلقة مفاتيح اخرى سريعة لهنري كيسنجر ـ نعثر عليها في ثنايا ما قاله وكتبه وحاضر فيه :

● « السياسة لا تقوم على الاخلاق وحدها ، ولا تقوم على القوة وحدها ·

وانما لكل منهما دوره في تحقيق الهد ف·

الاخلاق تعطي للهدف غطاءه الشرعي ، والقوة هي التي تمنحه فاعليته الحقيقية » ·

● « لا فائدة من اي قوة مسلحة لا تعززها الارادة السياسية ·

بدون الارادة السياسية تتحول القوة الى مخزن سلاح !

ولذلك فلا بد ان تدع خصمك يرى حجم ارادتك قبل ان يرى حجم قوتك ·

واذا بدت دولة من الدول ضعيفة ، فانها تدعو غيرها للعدوان عليها ، حتى وان لم تكن بالفعل ضعيفة ، وهكذا فان ما لديها من قوة رادعة تفقد قيمتها في التاثير المسبق على الحوادث ·

وفي الحقيقة فانه حتى « التهويش » اذا اخذه الخصم جدا يصبح اكثر فاعلية من الجد الذي ياخذه الخصم « تهويشا » ! » ·

● « لم تعد هناك اسرار كبرى نستطيع اخفاءها عن خصومنا ، ولذلك فمن المهم ان ننشط خيال هؤلاء الخصوم بمخاطر الحرب . ذلك لانهم اذا لم يستطيعوا تخيل الحرب عجزوا عن تفادي حقائقها ! » ·

● « الصراعات الجاهزة للحل هي الصراعات التي اصبحت غالية التكاليف بالنسبة لاطرافها جميعا » ·

● « في اي مفاوضات لا يحق لاي طرف ان يصر على ضمان امنه المطلق لان الضمان المطلق لاي طرف هو تهديد لطرف اخر ، وفوق ذلك فان احساس اي طرف بامانه المطلق يجعله يعيش في جو مزيف من الطمانينة · والسلام لا يتحقق الا مع احساس كل طرف بشيء من القلق على امنه ·

حتى الحرب في العصر النووي ـ لم تعد امرا مطلقا · وهكذا فان السلام لا

يمكن الا ان يكون مسالة نسبية ! » ٠

● « لا استطيع في اي مفاوضات ان اعتمد على رجل واحد مهما كانت قيمته ، لانه لا يوجد في اي بلد سياسي يستطيع حمل اعباء وطنه كلها على كتفيه » ٠

● « لا اومن بالذين يريدون حل كل المشاكل على مستوى القمة ٠

لا يستطيع الرؤساء في ساعات ان يحلوا مشاكل تراكمت على مر السنين ، وهم لا يستطيعون ذلك اكثر امام ضغوط وسائل الاعلام الحديثة التي تضعهم امام طلب النجاح باي ثمن ، والنجاح باي ثمن له مظهر النجاح ولكن ليس له جوهره ٠

على مستوى القمة نستطيع توقيع اتفاق جرى التفاوض عليه قبلها لسنوات ، ولكننا على هذا المستوى لا نستطيع صناعة هذا الاتفاق ٠

وعلى وجه التاكيد فان حل القضايا على مستوى القمة لا يصلح بيننا وبين الاتحاد السوفيتي ، ولعله يصلح في التعامل مع بعض زعماء الدول الصغرى لان الشكل يرضيهم والاضواء تخطف ابصارهم واهتمام لحظة بعينها يرضي كبرياءهم وغرورهم » ٠

□

واخيرا نصل الى مفتاح لا يتحدث فيه « هنري كيسنجر » عن القضايا وانما يتحدث عن الناس ٠

يتحدث عن السياسي الجديد الذي يحتاجه العصر ٠ ونشعر هنا وكانه يتحدث عن نفسه كما يتمناها او كما يريدها ان تكون ٠

يقول « هنري كيسنجر » :

ـ هناك نوعان من الساسة ٠٠٠ اولهما يكون « صانع تاريخ » ، وثانيهما يكون مجرد « اداة في يده » ٠

النوع الاول يبني ، والنوع الثاني يناور ٠

والغرب يحتاج الان الى النوع الاول لان لديه كفاية من النوع الثاني ٠٠٠ الغرب يحتاج الى البنائين والمنشئين ! » ٠

ويستطرد « هنري كيسنجر » :

ـ ان معظم الذين اداروا سياسة امريكا كانوا من طائفتين : اما محامين او رجال اعمال ، خصوصا من بداية عهد روزفلت وبعده ، ورجال الطائفتين في رايي لا يصلحون لان تجربتهم لا تهيئهم لتجربة السياسة الدولية الجديدة .

المحامي يريد فتوى او حيلة قانونية ، وهذا لا يحل الصراعات الجديدة ·

ورجل الاعمال لا يفهم الا حلا وسطا ، والحل الوسط ليس وصفة ناجعة لكل مشكلة » ·

ويستطرد « هنري كيسنجر » :

ـ وكذلك لا يصلح الموظفون البيروقراطيون مهما بلغت درجة تخصصهم وخبرتهم ·

ان رجل الدولة يحتاج الى عنصر الالهام ·

ان رجل الدولة يجد نفسه في الوضع الصعب ، فهو يرى المستقبل ويشعر به في عظامه ، ولكنه لا يستطيع تاكيد رؤيته كحقيقة ثابتة · والمشكلة ان الامم لا تتعلم الا بالتجارب ، ولكنها حين تتعلم يكون الوقت قد اصبح متاخرا جدا للتصرف ·

ان رجل الدولة عليه ان يتصرف قبل ان تتحول رؤيته الى حقيقة ، وهذا يجعل الرجل العادي لا يفهمه ، بل ويشك فيه · ورجال الدولة في التاريخ شاركوا الانبياء في مصيرهم ، فلم تعرف فضلهم الا اجيال لاحقة ·

ان رجل الدولة « معلم » ـ وواجبه ان يبني جسرا بين تجربة شعبه في الماضي وبين رؤيته هو للمستقبل ·

ان الحقائق وحدها لا تحدد لاي رجل دولة ما ينبغي له ان يصنعه ، وانما الحقائق مجرد مرشد له في اختياره لما يفعل ، وكفاءة اي مجتمع تعتمد على مقدرته على صنع توازن بين مقتضيات « التنظيم » وبين ضرورات «الالهام » ·

ان روح السياسة تختلف تماما عن روح البيروقراطية ·

البيروقراطية تريد ان تظل دائما في اطار ما تعرفه ، وهي تبالغ في مخاطر ما لا تعرفه حتى تؤمن نفسها ، ومنطقها دائما قواعد الجمع والطرح ·

واما السياسة فهي شيء اخر : هي البحث عن الجديد ورؤيته بالبصيرة قبل رؤيته بالبصر ، وهي قبول المخاطر ، وهي الاعتماد على تقدير المواقف وتفاعلاتها ، وهي اكبر من حسابات الجمع والطرح ! » ·

□

هكذا كان تفكير كيسنجر الاستاذ في علم ادارة الصراع السياسي » ·

فكيف تصرف كيسنجر بعد ذلك حينما اصبح مديرا فعليا للصراع السياسي ؟ اين اتفق استاذ الادارة مع المدير ، واين اختلف ؟

واي نوع من الساسة كان كيسنجر وهو يتعامل فعلا مع التاريخ ، ولا يكتفي بمجرد دراسته ·

هل كان صانع تاريخ ··· او كان مجرد اداة في يد التاريخ ·

سؤال بالغ الاهمية ، خصوصا اذا تذكرنا تصريحا له صدر عنه قبل ايام ، وقال فيه :

ـ ان اكبر نجاح احرزته في عملي كوزير للخارجية الامريكية هو الطريقة التي ادرت بها الصراع العربي ـ الاسرائيلي ! » ·

الحديث الحادي عشر

لا اظنني ابالغ اذا قلت ان « هنري كيسنجر » كان منذ زمن طويـــل يشتهي الاقتراب من ازمة الشرق الاوسط ، ويتمنى لو اتاحت له الظروف فرصة ليضع « اصبعا في العجين » كما يقولون ·

ولم يكن اشتهاؤه لها راجعا الى مجرد ما تحركه هذه الازمة في خياله كاستاذ في علم ادارة الصراع السياسي يرى امامه ازمة تتشابك فيهـــا مصائر اسم وشعوب ، وترتهن بها قضايا سلم وحرب ، وتتصارع بالقرب منها قوى عظمـى على جوائز استراتيجية لا مثيل لها في العالم ·

كان ذلك كله بالقطع يحرك خياله ··· ولكن كان هناك الى جانبه نداء اخـر في الازمة يسمعه « هنري كيسنجر » ويشعر به في اعماق اعماقه ··· نداء غامض مثير ··· له قوة جذب غلابة تشد نحو مجهول بعيد محفوف بالمخاطر !

ومنذ سنوات طويلة خلت ونحن نلمح كيسنجر يحوم حول الازمة واطرافها :

● في سنة ١٩٥٧ كان كتابه « السياسة والاسلحة النووية » ـ رد فعل مباشر للسويس ، وفي الحقيقة فان السويس تظهر كعلامة بارزة على طريـــق تفكير كيسنجرفي قضايا كثيرة كبيرة، ابتداء من موازين الردع النووي ـ الى ضرورات تحديد انتاج وتكديس الاسلحة النووية ـ الى اهمية البحث عن سبيل للوفـــاق يقوم على اساس الاعتراف بالمخاطر المتبادلة والمصالح المشتركة بين الدولتيـــن الاعظم ـ الى استراتيجية الحرب المحدودة ·

● في سنة ١٩٦٧ نجد هنري كيسنجر يقوم بزيارات متعددة لاسرائيل ،ويحاضر عن نظرياته في ادارة الصراع ، ويدير مناقشات واسعة هدفه منهـــا مساعـدة قيادات اسرائيل السياسية على فهم واستيعاب وتقدير اهمية علم ادارة الصراع، وكان بين « تلاميذ » كيسنجر في هذه المناقشات ثلاثي « ديـــان » و « اللـــون » و « بيريز » ، وانضم اليهم « رابين » فيما بعد ·

واعد كيسنجر في هذه الفترة منهجا دراسيا سريعا خاصا حضرامامه جمع مختار من مكتب رئيس الوزراء ومن المخابرات ، ومن قيادات القوات المسلحة ،

ومن كبار المسئولين في وزارة الخارجية .

● والغريب انه في هذه السنة نفسها كتب كيسنجر خطابا الى جمال عبد الناصر يطلب مقابلته ، وابدى كيسنجر فيه تفهمه لسياسة مصر ودواعيها ، وانه وان كان هو نفسه يهوديا فانه يتمنى ان يقابل الزعيم العربي الكبير لكي يسمع منه مباشرة وان يفهم منه اكثر .

وكان كيسنجر نفسه هو الذي اخبرني عن خطابه الى جمال عبد الناصر ، واضاف انه لم يتلق ردا ، ولكنه تصور ان ظروف ما بعد معارك يونيو ١٩٦٧ لم تكن تسمح لجمال عبد الناصر ان يقابله ، واتذكر انني قلت لكيسنجر يومها :

خسارة انك لم تلتق معه ... وكان يمكن للقائكما في حد ذاته ان يكون حدثا في الفكر السياسي يستحق المتابعة .

● وطوال ١٩٦٩و١٩٧٠و١٩٧١ كان كيسنجر في مكتبه في البيت الابيض كمستشار لشئون الامن القومي لنيكسون . ومع ان ازمة الشرق الاوسط لم تكن في اختصاصه الا ان اهتمامه بها كان وثيقا ، وكان هو الذي قتل مشروع روجرز ـ وزير الخارجية الامريكي ـ قبله ـ في المهد ، وكان هو الذي اسقط مبادرة روجرز بعد مشروع روجرز . وكان هو الذي ادار ازمة بناء حائط الصواريخ على حافة قناة السويس، كما كانهو الذي ادار علىالناحية الامريكية ازمة عمان بين الحكومة الاردنية والمقاومة الفلسطينية ، ثم كان هو اخيرا واضع العراقيل التي وجدها « روجرز » اثناء رحلته في الشرق الاوسط في مايو ١٩٧١ .

وكان روجرز يشعر بدور كيسنجر السلبي في ازمة الشرق الاوسط ، واتذكر ان روجرز كان عنيفا في نقده لكيسنجر الى درجة ملفته للنظر ، الى درجة انه ذات يوم في مكتبي واثناء زيارته المشهورة للقاهرة قال لي بحضور جوزيف سيسكو مساعد وزير الخارجية لشئون الشرق الاوسط وقتها :

ـ ان هنري يريد ان يلعب بالازمات ، لا ان يحلها ! » .

ورويت هذه الواقعة للرئيس انور السادات بعد انتهاء المقابلة واضفت بعد ذلك ضاحكا :

ـ يظهر انهم اصبحوا مثلنا يهاجمون بعضهم امام الاخرين ! »

واعترف انني ظلمت روجرز بهذه الملاحظة ، فلم اكن وقتها اعرف عن الجراح التي اصابه كيسنجر بها ، وكان كلاهما نقيضا للآخر .

● وفي سنة ١٩٧٢ كان الرسل الى القاهرة بالوحي والايحاء يحملون اليها رسالة ولا يتغير مؤداها :

ـ لا فائدة في اي تحريك لازمة الشرق الاوسط ما لم يهتم بها « هنري » ... اهتمامه يعني اهتمام الرئيس الامريكي شخصيا بها ... باب كيسنجر

وليس باب روجرز ـ هو الباب الذي دخلت منه مسالة الصين ··· ومشكلة الوفاق ··· وحرب فيتنام ··· وهو الباب الذي لا بد ان تتجه اليه ازمة الشرق الاوسط ··· كيسنجر وحده ولا احد سواه هو المؤهل والقادر وصانع المعجزات » !

وفهم صانع القرار المصري هذه الرسائل ومغزاها ، وبدأت فكرة اول اتصال مع هنري كيسنجر . وكان مقررا ان اقوم بها واعتذرت عنها ··· ثم تقرر ان يقوم بها السيد حافظ اسماعيل مستشار الرئيس للامن القومي وقتها . وقد قام بها فعلا خلال زيارته الرسمية لواشنطن في بداية سنة ١٩٧٣ ، وكان اهم بند فيها اجتماعه سرا ليومين بهنري كيسنجر في مزرعة رئيس مجلس ادارة « بيبسي كولا » ·

● وطوال سنة ١٩٧٣ ، وقبل حرب اكتوبر ، كانت الاتصالات بين كيسنجر وصانع القرار المصري في القاهرة متصلة بالرسائل المتبادلة عبر المخابرات المصرية والمخابرات الامريكية . ولذلك فانه حينما وقعت حرب اكتوبر كانت الابوات مفتوحة بدون اية عوائق ، حتى مع احتدام المعارك على جبهات القتال·

● واخيرا ، فان هنري كيسنجر كان صريحا الى ابعد حد وهو يحدثني ذات مرة عن علاقته بازمة الشرق الاوسط ، واتذكر انه قال لي :

ـ لقد كانت ازمة الشرق الاوسط هي الازمة التي تمنيت طول الوقت ان اجرب حظي فيها ··· ومن الذي لا يستجيب خياله لحلم اعادة واقرار السلام في الارض المقدسة ؟ »

ويستطرد كيسنجر :

ـ ولكني ردت نفسي عن الاقتراب من هذه الازمة لاسباب ليس من الصعب فهمها . لم اقترب الا حينما تاكدت ان الزعماء العرب على استعداد لقبول دوري فيها دون تحفظات او حساسيات مسبقة ترجع الى كوني يهوديا ! » ·

. . . . . .

. . . . . .

كانت العقدة كلها هنا ·

كان يشتهي الاقتراب من ازمة الشرق الاوسط لانه يهودي ·

وكان يتجنب الاقتراب من ازمة الشرق الاوسط لانه يهودي ·

وجدانه كان يجذبه اليها ·

وعقله كان يصده عنها ·

ولفترة طويلة كانت الازمة بالنسبة له نوعا من الفاكهة المحرمة : اللذة والخطيئة في نفس اللحظة ! !

ونصل الان الى السؤال الاهـــم :

ـ كيف ادار هنري كيسنجر ازمة الشرق الاوسط حينما اقترب منهـــا ... ومد يده الى الشجـــــرة ؟ !

سؤال كبير وخطير ، ولكني في الحقيقة لا اريد الان ان اجيب بنفســـي عليه، ولعلى اوثر ان اؤجل الاجابة عليه لفرصة استطيع فيها رواية القصة الكاملـة وكما رايتها كشاهد عيان اتاحت له الظروف ان يعيش الوقائـــع يوما بيـــــوم. بل ساعة بساعة .

لكن السؤال يحتاج الى اجابة ... فهذا سياقه في هذه الاحاديث وذلــــك موضعه .

وهكذا افعل شيئا اعتذر عنه مقدما ... وهو ان اترك غيري يجيب على هذا السؤال ويشرح لنا الطريقة التي ادار بها هنري كيسنجر ازمة الشرق الاوسط حين اقترب منها ... ومد يده الى الشجرة .

اترك الاجابة « لاستاذ اخـــر » في علم ادارة الازمات ، وكان من تلاميـــذ «الاستاذ هنري كيسنجـــر » ، ثم اصبح بدوره استاذا كبيرا يقـوم بتدريـــس العلم بعد ان تلقاه عن سيد العارفين !

« الاستاذ الاخـــر » يهودي ايضا ، بـــل هو اسرائيلي ، يقوم الان بالتدريس في الجامعات الاسرائيلية ، وينتدب محاضرا زائرا عديد من الجامعـــــــــات الامريكية .

ان هذا « الاستاذ الاخـــر » وهو البروفســور « اموس برلموتــر » قام ـ ولمدة سنة ـ بدراسة واسعة ومفصلة عن هنري كيسنجر وادارته لازمة الشــرق الاوسط ابتداء من حرب اكتوبر ١٩٧٣ وحتى التوصل لاتفاقيات فك الاشتبــاك على الجبهة المصرية والجبهة السورية في النصف الاول من سنة ١٩٧٤ .

وقد نشر «اموس برلموتر » دراسته في عدد شهر سبتمبر ١٩٧٥ من مجلـــــة « الدراسات الدولية » التي تصدر في امريكا وبريطانيا في نفس الوقـــــت ، واستغرقت الدراسة اكثر من ثلاثين صفحة من هذا العـــدد من مجلــــــة «الدراسات الدولية » ، وكان نشرها تحت عنوان :

« ادارة الازمـــات

مفاوضات كيسنجـر في الشرق الاوسط

اكتوبر ١٩٧٣ ـ يونيو ١٩٧٤ » .

يبدأ « اموس برلموتر » دارسته المتعة بمقدمة عامة عن ادارة الازمـــات فيحدد ثلاث نقط اساسية :

١ـ ان علم ادارة الازمات تطور بالدرجة الاولى لمواجهة الازمـات التـي تؤثر في الدول الداخلة في موازين القوة النووية ٠

٢ـ ان عملية ادارة الازمات بين القـوى النوويـــة ليست مبـــاراة حبية بين الاطراف ، انما هي صراع عنيف يستند على الوعي بوجود مصلحــة مشتركة (في تجنب الدمار الشامل) ، الى جانب وجود مصالــح اخــرى متعارضة (نابعــة من اختلاف النظم والعقائد والمطامــع) ٠

٣ـ ان الهدف الاساسي من ادارة الازمات هو البحث عقلانيـا عن وسائـل يمكن بها إعداد بدائل « تقلل من تهديد العدو وتزيد من تاكيد مصالحنا بغير التورط في حرب » ٠

ثم يدخل «اموس برلموتر » بعد ذلك الى مدير الازمــة او « الدبلومـاســي الاعظم » ـ باعتبار ان ادارة الازمات هي اعلى درجـــات الدبلومـــاسية ـ فيقول ان هذا الدبلوماسي الاعظم قبل الدخول لحل ازمة بين طرفين يجـــب ان يتاكد مما يلي :

١ ـ ان لديه اكبر قدر من المعلومات عن الطرفين ، بما في ذلك اوضاعـهمـا الداخلية ، ومطالبهما الخارجية ، ونواياهما البعيدة المدى ، ورغباتهمــــا القريبة المدى ٠

٢ ـ ان وراءه جهازا لجمع اخر المعلومات يزوده بها فيما يتعـلق بالطرفين بحيث يكون في استطاعــته ان يسبق كل طرف منهما في العلم بشئون هـــذا الطرف ٠

٣ـ ان تكون امامه دراسة لشخصية المتفاوضين الذين سيلقاهـم والضغـوط التي يتعرضون لها وعلاقاتهم مــع مراكـز القوى والتاثير في بلادهـم ٠

كل ذلك لكي يختار اسلوبه في ادارة الازمة ٠

ثم يصل « اموس برلموتر » الى ان « هنري كيسنجــر » اختار اسلوبين فـــي نفس الوقت لادارة ازمة الشرق الاوسط ، ومــع انه مزج بين الاسلوبين الا ان التمييز بينهما كان ممكنا طوال مراحل ادارته للازمة ٠

واول هذين الاسلوبين هو : اسلوب التعاطف والفهم ٠

ثاني هذين الاسلوبين هو : اسلوب التهديد والضغــط !

□

وانتقل « اموس برلموتر » الى تحليل عناصر الاسلوب الاول ، وهو اسلوب التعاطف والفهم ، ووجد ان عناصره كانت على النحو التالي :

١ـ شبكات الاتصال : كانت اول خطوة قام بها « الدبلوماسي الاعظم » هي انه اختبر شبكات الاتصال التي تخدم ادارته للازمة ، وقد وجد ان له في الشرق الاوسط تلاميذ ومريدين كثيرين ممن عرفهم وقام بالتدريس لهم في هارفارد خلال الستينات. وفي السبعينات كان بعض هؤلاء في المراكز الحساسة على كل رقعة الشرق الاوسط : كان السيد زيد الرفاعي مثلا رئيسا لوزراء الاردن ، وكان ايجال اللون وديان ورابين على القمة في اسرائيل. وكان هناك من هؤلاء التلاميذ والمريدين عدد كبير يعملون كمستشارين للملوك ورؤساء المنطقة ، وكان كيسنجر ينادي بعض هؤلاء باسمائهم الاولى (فضلا عن ذلك فان كيسنجر كان قد تعرف فعلا على عدد من وزراء الخارجية وتبادل الرسائل والرسل مع نخبة من القادة والزعماء) .

٢ـ المتفهم : حرص « الدبلوماسي الاعظم » على ان يقنع عددا من المتخاصمين انه « يتفهم » مطامحهم ، واهدافهم ، وانه مستعد لان يغير من اهدافه هو نتيجة لتفهمه لهم .

٣ـ المحامي : ان« الدبلوماسي الاعظم» بذل جهده في اقناع الخصوم بانه يعلم وساوسهم في دخيلة نفسهم ، خصوصا فيما يتعلق بمصالح امنهم ، بل انه وصل الى درجة انه حاول ان يحدد امام بعضهم الحدود العليا والحدود الدنيا لمصالح امنهم الوطني .

٤ـ الوكيل : تصرف « الدبلوماسي الاعظم » على اعتبار انه وكيل لكل طرف في مصالحه ، حتى اذا ضحى هو شخصيا في سبيل ذلك . وهو يحاول وضع شخصه فوق المعركة ، لانه الحكم في مخاوف كل طرف ، فهو الرجل العالمي الذي يستوعب ويتقبل كل الاهداف ، ولكنه ينقل هذه المشاعر لديه الى كل طرف على حدة وفي اطار المكاشفة الحميمة . وهو لهذا لا يجمع كل المتخاصمين في قاعة واحدة . وهو لا يثق في العمل الدولي الجماعي ولا في المؤتمرات التقليدية . وهو يفضل التقارب بين اثنين . راسان تقتربان من بعضهما والحديث همسا وثقة وسرا يحرص الكل عليه .

٥ـ الوسيط : ان « الدبلوماسي الاعظم » يتصرف وكانه الوسيط الوحيد في كل مقترحات اطراف التفاوض . وهو « يحب » الصينيين والروس في نفس الوقت وعلى نفس الدرجة ، وهو كذلك مع المصريين والاسرائيليين، وهو كذلك ايضا مع الفيتناميين في الشمال والجنوب . وبما ان هؤلاء جميعا «لسوء الحظ » يكرهون بعضهم بعضا ، فانه يجد نفسه الشخص الوحيد الذي يستطيع ان يتوسط بينهم . وهو لا يطلب مغنما لنفسه ، وانما كل المغانم لا بد لها ان تذهب الى الاطراف المتخاصمين .

٦ـ الصفى : ان « الدبلوماسي الاعظم » عندما يأخذ دور الشخص الوحيد الذي تلتقي عنده ثقة كل الاطراف الى درجة يصبح معها « الثقة مجسدة» بالنسبة لكل منهما ـ يكون من حقه على هذا النحو ان يطلب من الاطراف مكافاته بمزيد من الثقة فيه ·

هذا عن الاسلوب الاول : اسلوب التعاطف والفهم ·

□

وينتقل « اموس برلوتر » الى الاسلوب الثاني : اسلوب التهديد والضغط، ومقصد « الدبلوماسي الاعظم » منه ان ينقل الفشل ـ اذا حدث ـ الى مسئولية الاخرين ، تاركا اياهم تحت الاحساس بانهم سوف يصبحون بلا حول ولا قوة اذا قرر الوسيط ان ينهي خدماته لصالح المتخاصمين · ويقسم « اموس برلوتر » اسلوب التهديد والضغط الى العناصر التالية :

١ـ التهديد : (والكلام كله هنا حرفيا للاستاذ اموس برلوتر) ومن نماذج اسلوب التهديد ان نرى هنري كيسنجر يحذر الجنرال ديان قائلا له خلال المفاوضات : « جنرال ديان ، بهذا الاسلوب فلست اعرف اذا كانت الولايات المتحدة في اي حرب قادمة سوف تكون في وضع يسمح لها باقامة جسر جوي لتوصيل الاسلحة الى اسرائيل كما فعلت في اكتوبر ١٩٧٣ » ؟·

ثم نراه يقول للسادات : « اذا لم تثق في . فكيف استطيع ان امنع الاسرائيليين من شن حرب وقائية ؟ »

ثم نراه يقول للاسد : « اذا لم تثق في ، فكيف استطيع ان اضمن اعادة مرتفعات الجولان التيتحتلها الان اسرائيل ؟ وكيف استطيع ان اعيد حقوق الفلسطينين ؟ »

وعندما يلقي « الدبلوماسي الاعظم » بتهديده في الساحة ، فان خطوته التالية ان يتقدم باقتراحه هو الحل · وكان كيسنجر مستعدا في كل قضية للتقدم بما يعرف « بالمبادرة الامريكية » او « بالاقتراح الامريكي » · ذلك انه بعد ان يكون كل الاطراف قد افضوا اليه بما لديهم ، وبعد ان يكون قد عرف من خلال ذلك نقط ضعفهم ، فانه يبرز الخطة الامريكية · وفي الواقع فانه يخرج من كمه ارنبا كان فيه طول الوقت ومنذ غادر واشنطن متظاهرا بان تصرفه الان هو ابن ساعة واحدة · وفي الحقيقة فانه عن طريق التهديد باسوا ما هو محتمل يكون قد نجح في« اقناع » المتخاصمين بان ما يطرحه عليهم الان ـ وكنتيجة لجهوده ـ هو افضل الحلول التي يستطيعون الحصول عليها !

ـ القاء المسئولية على الاخرين : من المهم بالنسبة « للدبلوماسي الاعظم» ان يجعل الفشل في المفاوضات اذاحدث مسئولية واقعة على غيره من الاطراف · ولا بد له ان يقنع هؤلاء الاطراف بانهم لو قدروا المواقف كما يقدرها هو لكانت نتيجة المفاوضات ايجابية ·

ومن هذا المنطق فاننا نستطيع ان نرى كيسنجر يقول لاطراف الازمة في الشرق الاوسط :

« انتم هنا في اسرائيل وفي العالم العربي لا بد لكم ان تخططوا مستقبلكم بنفسكم · كل ما استطيع ان افعله لمساعدتكم هو ان اضع افكاركم مع بعضها حتى لا تكون مطامح اي طرف منكم على حساب طرف اخر · ولكنكم اذا عجزتم عن رؤية الامور كما هي فعلا (مبادرة امريكية) اذن فلا تجيئوا الي ··· لا تجيئوا الى ايها الاسرائيليون في طلب مزيد من الاسلحة ، ولا تجيئوا الي ايها العرب في طلب انسحاب اسرائيل من اراضيكم المحتلة · اذا لم تقبلوا المبادرة الامريكية ، فانتم وشانكم.لكنكم سوف تكونون تحت رحمة مصالحكم المتضاربة · لا تجيئوا الي في وقت الخطر ما دمتم لم تقبلوا مقترحات معقولة قدمتها اليكم على مائدة المفاوضات » ·

وهكذا تقع المسئولية على اطراف اخرى وليس على الوسيط · ليتحمل هؤلاء الاطراف مسئولية سوء نواياهم ، فلقد اجرموا سياسيا حين رفضوا الاستجابة الى نصيحة الوسيط المتجرد عن الهوى ، والذي حاول بالعدل ان يحكم بينهم · اما هو فقد فعل كل ما كان مطلوبا منه واكثر انسانيا واخلاقيا ·

٣ـ ارهاق قوة الاحتمال : ان التدقيق في دراسة عمل « الدبلوماسي الاعظم » يظهر ان تهديداته قد لا تكون قابلة للتنفيذ الا نادرا · ومع ذلك فان هذه التهديدات تصبح لها قوة ضغط لا تقاوم على الاطراف وهم يرون اسوأ مخاوفهم على وشك ان تقع · ويكون على « الدبلوماسي الاعظم » ان يدفع عجلة الحوادث بسرعة اكبر ـ عن طريق زيادة الايقاع في دبلوماسية المكوك ـ وهذا يؤدي الى تشديد الضغط النفسي على اعصاب الاطراف الذين يصبحون تحت رحمة التصور بانه اذا فشلت المفاوضات فان الاسواء ما لا يمكن التفكير فيه ـ اقرب الاشياء الى الوقوع · وبواسطة التحركات الخاطفة وضغوطها فان « الدبلوماسي الاعظم » يحصل على امضى اسلحة !

٤ـ المهدئات : ان ابرز مناورات « الدبلوماسي الاعظم » يمكن تسميتها بمناورة « الحبوب القاتلة للالم » ، ذلك انه بعد ان يسحق اعصاب كل الاطراف بالتحركات الخاطفة والامال المتعلقة في الهواء ، والمخاطر القابلة للانفجار في اي لحظة اذا لم يقبلوا بما يريد ـ يكون عليه اسعافهم بالمهدئات المضادة للانقباض !

وهكذا نرى كيسنجـر يقول للاسرائيليين : الان وقد انسحبتم من القنيطرة ولبضعة كيلومترات في الجولان ، فانكم في مواقـع اكثر امانـــا ··· ان السوريين لن يستطيعوا اطلاق النـار بعد ذلك » ·

ثم نرى كيسنجـر يقول للسوريين : الان وقد انسحبت اسرائيـل من بعض اراضيكم المحتلة ، فهذه بداية حياة جديدة لسوريـــا » ·

ونراه يقول للمصريين : الان وقد انسحبت اسرائيل بعيدا عـــن قناة السويس، فانكم تستطيعون تركيز جهودكم على اعادة تعمير مـــدن منطقـة القناة » ·

هكذا فان اسرائيل تكون قد وعــدت ببعض الهدوء ، وكذلك مصـر وسوريا· لقد كان الثلاثة مرهقين بدبلوماسية المكوك الخاطفة ، وقد اختلطت الوعـــود والاماني · ولكن المهدئـــات ليست دواء طويل الامـد وحين يتوهم الاطـراف ان الاسوا بالنسبة لهم قد انتهى فان تاثيرات المهدئات للالـم في التبخـــر !

٥ـ التوابـــع : ومن اهـم اساليب الضغط المعنوي التـي يلجا اليهـــا « الدبلوماسي الاعظم » هي ان يخلق توابـع له يتاثرون « بموضته » : يرتدون ازياءه ويقلدون كلماته ويتحولون ـ ولو باوهامهم ـ الى مديري ازمات على نمط « الاستاذ الاكبر » ·

ولقد نجح كيسنجر في ان يقنع عددا كبيرا من الزعماء والقـادة في الشـرق الاوسط بانهم اصبحوا « توابع » فـي الدبلوماسية الجـــديدة ، وكيسنجـــر يشجعهم على التمادي في ذلك عن طريق الاطراء ، فاحدهم يصبح في تقديره « محلل استراتيجي بارع » ، والاخـر يصبح رجلا مليئـــا بالافكـار الخلاقة»· وهكذا ينشا نظام من التوابع يدور فيفلك الشمس الكبيرة ··· شمس «الاستاذ الاكبـــر » !

□

ثم ينتهي «اموس برلوتر » الى عرض حي وعملي لمارسـات « هنـــري كيسنجـر » الفعلية في « ادارة ازمة الشرق الاوسط » على اساس الاسلوبيـن: اسلوب التعاطف والفهم ، واسلوب التهديد والضغط ـ والمزج بينهمـا معـا ·

وهنا يقول « اموس برلوتر » ان اسلوب هنري كيسنجـر النهائي مـــــر باربعـة مراحــــل :

١ـ تهيئة الاطراف واعدادهم نفسيا لما يريده منهـــم ·

٢ـ اثارة مخاوفهـــم ·

٣ـ اثارة امالهـــم ·

٤ـ القيام باختراق جبهتهم وتحقيق المبادرة الامريكية (الحل الامريكي)٠

ويمضي « اموس بولموتر » في استعراض المراحل الاربعة التي مر بها اسلوب «هنري كيسنجر » ، ويسوق الواقعة بعد الواقعة حتى يشرح ما يريد ، ولعلى اوفر ـ تجنبا لحرج شديد ـ ان اتجاوز عن هذا الجزء من دراسة « اموس بولموتر » ، ولعلى احيل اليه بعض الذين تعاملوا مع هنري كيسنجر في العالم العربي ، لعل بعضهم يراجع الذاكرة ويتامل ويستفيد لمستقبل الايام ! !

لكن المهم فيما يقوله « اموس برلموتر » عن المراحل الاربعة في اسلوب هنري كيسنجر هو المرحلة الاخيرة :

« القيام باختراق جبهات الاخرين وتحقيق المبادرة الامريكية ((الحل الامريكي) » ٠

اذن فالهدف النهائي هو الحل الامريكي ٠

واذا ما ذكرنا ان اهداف كيسنجر الاساسية في ازمة الشرق الاوسط وباعترافه هو ـ كانت كما يلي :

١ـ ضمان امن ومستقبل اسرائيل ٠

٢ـ اخراج الاتحاد السوفياتي من المنطقة ، بدءا باخراج السلاح السوفياتي ٠

٣ـ اعادة النفوذ الامريكي وتثبيته في المنطقة ٠

٤ـ التعامل مع كل بلد عربي على حدة ٠

٥ـ ضمان استمرار تدفق البترول العربي باسعار مقبولة ، مع بقاء فوائض امواله في نطاق الامان ٠

فان الصورة تبدو الان واضحة شديد الوضوح ٠

حل امريكي لتحقيق اهداف امريكية ٠

وليس في ذلك عيب على هنري كيسنجر ، بل ان هذا هو واجبه ، فهو وزير خارجية الولايات المتحدة الامريكية ليحقق اهداف السياسة الامريكية اولا وقبل اي اعتبار ٠

هذا واجبه وحقه ، على ان يظل للاخرين من الاطراف ان يسائلوا انفسهم عما اذا كان الحل الامريكي يتسق او يتعارض ، يتفق او يتناقض مع حقوقهم هم وواجباتهم ! !

الحديث الثاني عشر

اصل الان الى الحديث الختامي في هذه السلسلة عن العالم بغير كيسنجر ·

وهذا الحديث هو مجموعة ملاحظات شخصية كل مقصدي منها هو رسم صورة انسانية لاسلوب هنري كيسنجر ، واتحفظ مقدما باني لا اروي من خلالها قصة مفاوضات هنري كيسنجر في الشرق الاوسط ، فلقد سبق وقلت انني احتفظ بالحق في روايتها كاملة ــ كما رايتها ــ لوقت اخر تكون الحوادث فيه قد ابتعدت قليلا بحيث تزيد الحرية ويقل الحرج !

وسوف اقسم هذه الملاحظات الى مجموعات من اللمسات اتمنى لو انها ساعدت على تحديد ملامح الصورة العامة وابرزت قسماتها واظهرت تعبيراتها حية وبالالوان الطبيعية ·

لفت نظري في اول لقاء مع هنري كيسنجر قوله خلال الحديث :

ــ انت لا تتصور صعوبة التعامل مع « اليهود »·؟ !

وبعدها في موضع اخر من الحديث قال :

ــ ان « اليهود » لن يقبلوا ، وهم قوم في منتهى الغرابة يسهل عليهم تدمير انفسهم على الاعتراف بامر واقع يرفضونه !

كان ما لفت نظري هو انه كان طوال الحديث يتحدث عن « اليهود » بالضمير الثالث ، وكانه هو نفسه ليس واحدا منهم ·
ساءلت نفسي كثيرا : لماذا؟

□

لفت نظري ان هنري كيسنجر كان شديد القسوة على بعض زملائه ، شديد الغيرة ان ينسب فضل لغيره :

●ورد ذكر سلفه ويليام روجرز ، وقال :

ــ انا لا اعمل باسلوب روجرز ··· اسلوب روجرز لا يؤدي الى نتيجة ،فهو

يقدم للاطراف مشروعين من الفراغ ذلك اسلوبي ·

●ورد ذكر مساعده جوزيف سيسكو ، وقال :

ـ لقد وقعتم في خطا انكم تصورتم « جو » وكانه واضع سياسة .ربما كان يفعل ذلك ايام روجرز ، ولكنه معي لا يضع سياسة وانما ينفذ سياسة ··· هو موظف ينفذ سياستي وفي الحدود التي ارسمها له ··· فقط ·»

●وحدث اثناء مفاوضات اسوان في مارس ١٩٧٥ ـ وهي المفاوضات التي فشلت ـ ان امريكيا بارزا هو جورج بول ـ المساعد السابق لوزير الخارجية الامريكية ـ ظهر فجاة في المشتى الجنوبي زائرا ، وارتفع صوت هنري كيسنجر يقول :

ـ ما الذي جاء بهذا الرجل هنا الان ··· انه يهاجم سياستي في الشرق الاوسط ··· ولا اريده ان يقابل السادات ·

● وورد ذكر قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ ، وقال كيسنجر :

ـ ما الذي يدعوكم الى التمسك بهذا القرار ··· ليس فيه غير مجموعة عبارات كل واحدة منها تتعارض مع الاخرى ، وهذه عبقرية الانجليز في الصياغات ·

لم تعد لديهم القوة لصنع حلول للازمات ، واستعاضوا عن الحلول بلعبة الصياغات التي تصور لكل طرف انه حصل على شيء ، وفي الحقيقة فان احدا من الاطراف لم يحصل على شيء ! »

□

لفت نظري ان اكثر دراسة اعجب بها هنري كيسنجر قبل بدء رحلاته في الشرق الاوسط كانت دراسة تدور حول تحكم عقلية «الخيمة» والسوق في المنطق العربي : « الخيمة » يتصدرها شيخ القبيلة وجوها هو جو الكرم والمجاملات المتبادلة والاحاديث المرسلة على هواها مع اقداح القهوة المرة ـ والسوق هو المجال المفتوح للمساومات والايمان المغلظة بان البائع ظلم نفسه اكراما للمشتري ، والاسعار القابلة للتخفيض الى النصف والربع في بعض الاحيان !

ولست اعرف اذا كان هنري كيسنجر قد حاول الاستفادة من هذه الدراسة عمليا في دوره في حل ازمة الشرق الاوسط ، او انه اعجب بها عندما قراها ثم نسيها بعد ذلك بكل تفاصيلها . ولكن لفت نظري ما يلي :

● كانت المغرب اول بلد عربي زاره هنري كيسنجر في طريقه الى المنطقة وعندما التقى بالملك الحسن ـ وهو بالقطع من اذكى الملوك والرؤساء واكثرهم

ثالثة ـ قال له :

ـ ان لي عند جلالتكم مطلبا ارجوكم ان لا تردوني فيه » ٠

وقال الملك الحسن « انه على استعداد لاجابة كيسنجر لاي شيء يطلبـــه »

وكان طلب كيسنجر الى الملك الحسن ان يبعث بخطابات منه الى الرؤســاء الذين كان مقررا ان يقابلهم هنري كيسنجر ، « يقدمه لهم ويوصيهم به خيرا !!»

●بعد ان صدرت قرارات الرباط التي اكدت لمنظمة التحرير الفلسطينيــة حق التمثيل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني ، كان هنري كيسنجــر فــي ضيق شديد ، وكان يعتقد ان عقبة كبيرة قد وضعت امام مهمته ٠

وذهب الى الرئيس السادات والى الملك فيصل ـ رحمه اللــه ـ يقول لكـل منهما :

ـ لم يعدفي مقدوري ان استمر في عملي الا اذا احسست انك تؤيدنــي تاييدا كاملا . وكل ما ارجوه منك ان تصدر بعد اجتماعنا الان تصريحا يؤكد ثقتك ورغبتك الاكيدة في ان اواصل دوري ، لان هذا الدور مطلوب وضروري للازمة » ٠

● قال كيسنجر لكل رئيس دولة عربي تفاوض معه او التقى به في اي مرحلة من مراحل دوره في الازمة :

ـ اني اريدك ان تظل على صلة كاملة ومتابعة دقيقة لكل مراحل مهمتي ٠٠٠ ولهذا فاني استاذنك في ان ارسل اليك دواما صورا من « تقرير التقدم » التــي ابعث بها الى الرئيس نيكســون »

وكان بعض الزعماء العرب في قمة السعادة ، ولم يتبينوا ان ما كانوا يتلقونه من كيسنجر لم يكن « تقارير تقدم » ، وانما كان « مرضوعات انشاء حماسيــة كتبت خصيصا لتلائم مزاج كل منهم ٠

« وزادها كيسنجر حبتين » بعد ذلك ، فقد وصل الى حد القول لسياسي عربي :

ـ انكم تعرفون السوفيات اكثر مما نعرفهم ، وقد تعاملتم معهم لمدة اطول ، ونحن الان معهم في مفاوضات شاقة حول تحديد الاسلحة الاستراتيجية ، وبعد ان ننتهي اليوم من كلامنا عــن مشكلتنا نحن تعطيني بعض الوقت لنتحدث عن مشكلتنا نحن مع السوفيات حول تحديد الاسلحة الاستراتيجية » .

ويستطرد كيسنجــر :

ـ اريد منك درسا في كيفية فهمنا السوفيات وكيفية التفاوض معهم ؟ ! »

ولست اريد ان اقلل من خبرة بعض الساسة العرب بالاتحاد السوفياتـــي ، ولكني اظن ان ما يعرفه كيسنجر عــن السوفيات يفوق عشرات المـرات مـــا يعرفونه ، ومع ذلك فقد داعب غرورهم وتركهم يعتدلون في مقاعدهــم ويتخذون سمت الاساتذة ويحدثونهحديث الخبراء المقتدرين الى التلاميذ المستجدين

●كانت خطابات كيسنجر دورية منتظمة متلاحقة الى كل الوزراء العـــرب الذين تعامل معهم . وقد ظهر فيما بعــد ان الخطابات كانت كلها نسخة واحــدة تغيرت فيها الاسماء ولم تتغير الصفات . فقد اكتشف كل وزير انه « عبقـــري فذ » و« استراتيجي نافذ البصيرة » و «ومفاوض عنيد لا تلين له قناة » ، وان التفاوض معه اصعب من التفاوض مع « لـــي دوك تو » في حرب فيتنـــام ٠ ولكن التعويض الوحيد ان المفاوض العربي « خفيف الدم » اكثر ، ومن ثـــم فصعوبة المفاوضات معه مكسوة بالسكـــر ! !

● ولست متأكدا اذا كان كيسنجر ما زال متأثرا بتقرير « الخيمة » و«السوق» عندما فشلت مفاوضاته في مارس سنة ١٩٧٥ لتحقيق اتفاقية ثانية للفصل بين القوات في سيناء بين مصر واسرائيلـ وكان سبب الفشل هـــو العنـــــاد الاسرائيلي ـ ولكن اعرف ان هنري كيسنجر مر بلندن في طريقه الى واشنطنبعد فشل هذه المفاوضات . وكان ثائرا على اسرائيل مهتاجا ضد قياداتها ، وكـــان قوله لكالاهان ـ وزير الخارجية البريطانية وقتها ورئيس الوزراء في بريطانيا اليوم ـ ما نصـــه :

ـ انني لا اقبل هذا الذي فعلوه بي في اسرائيل ، بعد كل هذا العنــــاء ذهابا وايابا بين اسوان والقدس ينسفون لـي كل شيء ٠٠٠ لن اعـود بعـد ذلك الى مهانة ديبلوماسية المكوك ...من يريدني بعد الان عليه ان يجيئني في واشنطن ...اما انـا فلـن اذهب الى احـد ، ولـن ارضى بـان يتحـول وزيـر خـارجيـة الولايات المتحدة الى بائع سجاجيد متجول « !!

هل احس ان اسرائيل تعيد تصدير بضاعته اليه ؟ ٠٠٠ مهما يكن فلم تمض غير ثلاثة شهور حتى عاد كيسنجر الى ديبلوماسيـة المكوك فـــــي الشـرق الاوســـط !

□

لفت نظري ان هنري كيسنجر كان شديد التجاوز لحدوده احيانا تجـــاه المؤسسات وتجاه الاشخاص :

● كان يقول بالحـــرف :

ـ فيما يتعلق بالسياسة الخارجية للولايات المتحدة فان عليكم ان تتعاملـوا

معي باعتباري الرئيس ··· انني رئيس الولايات المتحدة في كل مسائل السياسة الخارجية »

● **وسمعه اكثر من وزير خارجية في المنطقة يقول :**

ـ انهم هناك ـ الطرف الاخر ـ يعاندون ، ولكني سوف احطم عنادهم .. ثم يخرج هنري كيسنجر من جيبه ورقة مطوية ويقول :

ـ هذانص خطاب سوف ابعث به الان الى نيكسون لكي يضع توقيعه عليه ويرسله لهم باسمه ، حتى يعودوا الى رشدهم ·

وقد كانت جولدا مائير رئيسة وزراء اسرائيل هي التي كشفت هذا الاسلوب، فقد وصلها ذات يوم خطاب شديد اللهجة من نيكسون ، وانتظرت كيسنجر حتى ذهب اليها ضمن زيارات المكوك وقالت لـه :

ـ هنري ··· انك لا تستطيع ان تخدعني ··· ان الرئيس لم يكتب هذا الخطاب ··· كل حرف فيه ينطق باسلوبك !

● **سمعه كل مسئول عربي يتحدث عن زعماء اسرائيل بطريقة تصور انها ترضيه ·**

وقد حدث ان شكا اليه احد كبار المسئولين العرب من تصريح متشدد على لسان احد زعماء اسرائيل ، وكان رد كيسنجر :

ـ سوف اجعل « ابن ···· » هذا يقفل فمه ولا يتكلم » !

وامام مسئول عربي اخر تحدث كيسنجر عن مشاكله مع الاسرائيليين، وقال :

ـ لقد قضيت الليل كله احاول اقناعها ··· تصور طول الليل كله مع امراة واحدة ··· وان تكون هذه المراة هي «جولدا » » ! »

لكن جولدا مائير سمعته يقول شيئا اخر ·

كانت قد قالت لـه :

ـ هنري ··· انك لم تقبلني ··· يظهر انك فقدت عادة تقبيل النساء ، ولم تعد تعرف الا تقبيل الرجال من كثرة تعاملك مع العرب ؟ »

وكان رد هنري كيسنجر :

ـ لا اعرف ماذا سيحدث لي من كثرة ما يقبلني هؤلاء الرجال ··· اريد ان ارحل من الشرق الاوسط باسرع ما يمكن ··· قبل ان افقد عفتي ! ! »

وسمعه غير جولدا مائير من زعماء اسرائيل يقول كثيرا عن كل زعيم عربي، لا يستثني منهم احدا !

واذا حدثت المعجزة يوما وجلس الزعماء العرب مع الزعماء الاسرائيليين، وتبادل الطرفان فيما بينهما ما سمعاه من هنري كيسنجر هناك عن العرب وهنا عن الاسرائيليين ، لكانت النتيجة مثيرة وممتعة ومسلية الى الابد !

□

ولفت نظري ان هنري كيسنجر كان يخشى دائما من القوة المعنوية ، وكانت فكرة القومية العربية تخيفه ، فهي تضع امامه حسابات قوة لا يستطيع فهم مركباتها

ولعل تفضيله ان يتعامل مع كل دولة عربية على حدة كان نوعا من الرغبة في نزع المجهول عن القوى التي كان يتعامل معها ، وتحويل كل عنصر من عناصرها الى كم محدد يستطيع ان يفهمه ويتعامل معه ٠

ولا اظن ان كيسنجر احس بكره نحو زعيم عربي تعامل معه كما احس بالكره تجاه الملك فيصل ، فقد كان الملك فيصل يمثل بالنسبة له كما محددا هو قوة السعودية ، ولكنه في الوقت نفسه كان يمثل شيئا معنويا غير محدد ٠٠٠ مجهولا بالنسبة له ولكنه قوى ٠٠٠ واعني به « الاسلام » ٠

واتذكر انني التقيت بهنري كيسنجر قبل ان يسافر الى السعودية اول مرة لمقابلة الملك فيصل ، وكان قوله لي :

ـ انني استطيع ان اجد طريقي مع كل من اقابلهم في هذه المنطقة الا هو الملك فيصل ٠٠٠ لا اعرف كيف ادير المناقشة معه ، واشعر انه ليست هناك لغة للتفاهم معه ٠

وسافر كيسنجر الى الرياض ، واسمعه الملك فيصل نظريته المشهورة عن العلاقة بين الصهيونية والشيوعية ، وكيف ان الصهيونيةهي الاصل والشيوعية هي الفرع ، ولذلك فوجه العجب من سياسة امريكا قائم ـ في رأي الملك ـ فهي تعادي الفرع وتنسى الاصل وتعتبره صديقها الكبير ـ الصهيونية هي اصل البلا واساسه ٠

وفيما بعد كان كيسنجر يعتبر اضطراره للذهاب الى السعودية محنة لا سبيل الى تجنبها ، وكان يشكو لطوب الارض قائلا :

ـ انني لست مستعدا ان اذهب لكي اسمع محاضرة عن الصهيونية والشيوعية من غلاة المتعصبين المسلمين ! !

□

واصل اخيرا الى قصة لفتت نظري ، فقد كانت معبرة الى اقصى حد عن اسلوب كيسنجر في التعامل مع العرب • ومن سوء الحظ ان احدا في العالم العربي لم يدرس هذه القصة بشكل كاف ، ولا أعطاها ما تستحقه من عناية باعتبارها نموذجا يمثل اسلوب كيسنجر في ادارة وحل ازمات الصراع في العالم العربي •

والقصة التي اعنيها هي قصة هنري كيسنجر مع الاكراد في العراق •

ان مستندات هذه القصة ووثائقها السرية ـ بما في ذلك ما صدر عن وزارة الخارجية او وكالة المخابرات المركزية الامريكية ـ موجودة كلها وبالكامل في ملفات وتقارير اللجنة الخاصة التي شكلها الكونجرس الامريكي برئاسة « اوتيس بايك » عضو الكونجرس الامريكي عن ولاية نيويورك للتحقيق في النشاط السري لاجهزة المخابرات الامريكية •

وكانت هذه اللجنة الخاصة قد قدمت تقريرها الى الكونجرس بتاريخ ١٩ يناير ١٩٧٦ ، ولكن الرئيس فورد بعث برسالة الى الكونجرس يعترض على نشر تقرير اللجنة ، لان نشره سوف يكون مدمرا لمصالح عليا تحرص عليها حكومة الولايات المتحدة . وكانت رسالة فورد الى الكونجرس بتوصية من هنري كيسنجر عززتها المؤسسة العسكرية الامريكية كلها • وبالفعل فان الكونجرس في جلسة عقدها بتاريخ ٢٩ يناير وافق على حجب نشر تقرير لجنة « بايك » الا بعد موافقة السلطة التنفيذية على النشر نظرا لحساسية المعلومات الواردة ، ولانها تكشف تفاصيل كثيرة عن خبايا النشاط السري الامريكي في مناطق توجد فيها مصالح امريكية حساسة ودقيقة •

وبرغم هذه الاحتياطات كلها فان تقرير لجنة « بايك » نشر بالكامل في احدى صحف الرفض التي تصدر في قرية جرنيتش قرب نيويورك واسمها « صوت القرية » •

ولكن اجهزة الامن الامريكية حاولت جمع كل اعداد هذه « المجلة » ،كما ان الصحفي الذي سرب نسخة التقرير اليها قدم للمحاكمة •

واظن ان الحكومات العربية ـ بما لديها من وسائل ـ تستطيع الحصول على نسخة من هذا التقرير اذا لم تكن قادرة على الحصول على صورة كاملة من اوراق اللجنة ووثائقها ومحاضرها ـ ولو انها فعلت لاستفادت وتنبهت اكثر!

□

ان الجزء الخاص بقصة كيسنجر مع الاكراد في العراق موجود في تقرير لجنة « بايك » في القسم «ج» ، وعنوانه « ثلاث مشروعات ، وهذا الجزء الخاص بالاكراد يرد في فصل مستقل من هذا القسم بعنوان « الحالة

رقم ٢ : مساعدة السلاح» ـ وسوف احاول فيما يلي تلخيصه بمنتهى الدقة والامانة :

● يبدأ هذا الجزء برسالة من قائد محطة المخابرات المركزية في ايران الى مدير الوكالة في واشنطن ، تفيد بان الملا مصطفى البرازاني ـ قائد الحركة الكردية وقتها ـ اتصل طالبا المعونة الامريكية في حربه ضد حكومة العراق ، وان هذه الحرب تساعد الولايات المتحدة لان حكومة العراق تتعاون مع الاتحاد السوفياتي · (كانت هذه الرسالة في اغسطس ١٩٧١) ·

● عاد الملا مصطفى البرازاني فجدد اتصاله بقائد محطة المخابرات المركزية في ايران ملحا في اجابه مطالبه بالمساعدة ، وعاد قائد المحطة فكتب الى رئاسته في واشنطن مؤيدا ومبرزا اهمية مساعدة الملا مصطفى · (كانت هذه الرسالة الثانية في مارس ١٩٧٢) ·

وقد حولت رسالة اغسطس ١٩٧١ ورسالة مارس ١٩٧٢ الى لجنة الاربعين التي تشرف على كل النشاط السري لاجهزة الامن الامريكية ، والتي يراسها الدكتور هنري كيسنجر بوصفه مستشارا للرئيس للامن القومي ورئيسا لمجلس الامن القومي ذاته · وقامت اللجنة ببحث الرسالتين ، ولكنها لم تقرر شيئا ، أو على الاقل لم تسجل ملفات اللجنة أنها توصلت الى قرار ·

● في شهر مايو ١٩٧٢ كان الرئيس الامريكي ريتشارد نيكسون يزور طهران ومعه الدكتور هنري كيسنجر ، وفتح شاه ايران بنفسه مع الرئيس الامريكي موضوع المساعدة للاكراد ، وقال أنه « وعد الملا مصطفى بان الولايات المتحدة سوف تساعده » ، وقال انه قدم هذا الوعد « كصديق » ، وانه من الضروري للولايات المتحدة ان تعزز وعده عمليا ، ثم قدم الشاه في الاجتماع للرئيس الامريكي قائمة بالاسلحة التي يحتاجها الملا مصطفى ، ووعده الرئيس نيكسون ببحث القائمة « بروح ايجابية » فور عودته الى واشنطن ·

● في اول شهر يونية ١٩٧٢ اصدرت الحكومة العراقية قرارها المشهور بتاميم بترول العراق ·

● في ١٦ يونية سنة ١٩٧٢ ، وفي اجتماع خاص بين نيكسون وكيسنجر ، تقرر الموافقة بسلطة الرئيس على مساعدة الاكراد ، وتقرر اعتماد ستة عشر مليون دولار لتغطية نفقات الشحنة الاولى من الاسلحة الامريكية للاكراد ، وتقرر ارسال مبعوث خاص هو المستر جون كونالي ـ الذي اصبح فيما بعد وزيرا للخزانة مع نيكسون ـ وكان في ذلك الوقت محاميا لعدد من شركات البترول ـ الى طهران لكي يتولى بنفسه ابلاغ شاه ايران بقرار الموافقة على مساعدة الاكراد وبقرار فتح الاعتماد لتغطية نفقات الشحنة الاولى ·

● لم تعثر لجنة « بايك » عـلى ما يفيد بأن هـذا القرار عرض على « لجنة الاربعين » ، وبالتالي فان حيثيات القرار لم تكن مسجلة بالكامل عـلـى ورق ·
ولكن تقرير « لجنة بايك » يقول بالحرف في العمود الاول مـن الصفحة ٨٥ ما يلـي :

« ان الادلة التي تجمعـت لدى اللجنة توحـي بان القرار اتخـذ بالدرجـة الاولى كمجاملة لحليفنا في ايران الذي كان يتعـاون معـنا باخـلاص ،والذي كان يعتـقد ان الخطر يتهدده من جاره في العـراق · ولقد كان العداء بيـن الاثنين تقليديا ، ولم يكن اختلافهما اساسا في الاتجاهات العقائدية ولكن ايضا في العـلاقة مع الولايات المتحدة الامريكية » ·

● وتتساءل « لجنة بايك» عـن هدف الولايات المتحدة ومطلبها ، وهنا تبرز نقطة مذهلة حين يقول التقرير :

« ان هدف الولايات المتحدة بمساعـدة الاكراد لم يكن تمكينهم من احـراز انتصار يمكن لهم بعـده ان يحصلوا ولو عـلى حق الاستقلال الذاتي ·

ان حصول الاكراد في العراق على هذا الحق يمكن ان يؤثر عـلى اكـراد ايران ، وهـذا يسبب مشاكل للشاه ·

وبالتالي فلقد كان المطلوب هو ضبط حد المساعـدة للملا مصطفى بحيـث يظل دائما عـلى مستوى معين :

مستوى يستطيع عـنده استنزاف قوة الجيش العراقي وانهاك اسلحتـه وقيادته وافراده ، وفي نفس الوقت مستوى لا يستطيـع معـه احراز انتصـار مؤثر يحقق الاستقلال ويؤثر عـلى اكراد ايران » ·

● وتشير لجنة « بايك » الى ان قائـد محطة المخابرات المركزية في طهران عـلم في اكتوبر سنة ١٩٧٣ بان اسرائيل التي كانت عـلى اتصال بالملا مصطفى راحت تلح عـليه في انتهاز فرصة تحـرك الجيش العراقي الى سوريا للمشاركة في حرب اكتوبر ، لكي يقوم هو – الملا مصطفى – بهجوم عـام في شمـال العـراق !

وجرى بحث تقرير قائد محطة طهران في لجنة الاربعين برئاسة كيسنجر ، وكان راي كيسنجر « ان الملا مصطفى قد ينجح في هذه الظروف باكثر مما هـو مناسب لمصالحنا » – وبالتالي فقد بعـث كيسنجر الى المـلا مصطفى برسالـة ينصحـه فيها « بعـدم استغـلال الفرصة » ، ولكنه لم يقل له السبب الحقيقي وراء هذه النصيحة، واكتفى بأن يقـول له « انني اخشى أن يؤدي ذلك إلى تعقيد مشكلكم » !!

● في شهر فبراير ١٩٧٤ بعثت لجنة الاربعين طلبات جديدة لمساعـدة

الاكراد ، وتقرر مبدئيا اعتماد خمسة وعشرين مليون دولار جديدة لشراء اسلحة من بلد شيوعي عن طريق طرف ثالث لكي ترسل الى الاكراد ، وكان بين مبررات اللجنة التي راسها كيسنجر « ان مساعدة الاكراد في هذه الظروف على تكثيف نشاطهم ضد العراق مفيد لان الحكومة العراقية تشدد معارضتها ضد اتفاقيات فك الاشتباك التي يعمل لها الدكتور هنري كيسنجر بهدف حل النزاع في الشرق الاوسط بسياسة الخطوة خطوة ، وتكثيف نشاط الاكراد ضد الحكومة العراقية من شانه ان يشغل هذه الحكومة بمشاكلها عن معارضة سياسة الولايات المتحدة !!

● في مارس ١٩٧٥ توصلت ايران والعراق الى اتفاق كان من شانه ان توقف ايران كل مساعداتها للاكراد وان تمنع اية امدادات عن طريق اراضيها، وان تغلق حدودها في وجه التحركات الكردية بعد مهلة معينة ·

وفي اجتماع للجنة الاربعين في واشنطن برئاسة كيسنجر في نفس هذا الشهر سجلت لجنة « بايك » في تقريرها قول هنري كيسنجر بالحرف في هذا الاجتماع :

« اننا سوف نتخلى عن الاكراد لكي نمكن العراقيين من ان يتفرغوا للسوريين ، لان السوريين يرفضون الدخول في مفاوضات من اجل مرحلة ثانية من فض الاشتباك » !

ويصرخ تقرير لجنة « بايك » عند هذا الحد ويقول « لقد كانت سياستنا غير اخلاقية ازاء الاكراد ، فلا نحن ساعدناهم ولا نحن تركناهم يحلون مشاكلهم بالمفاوضات مع الحكومة العراقية ··· لقد حرضناهم ثم تخلينا عنهم » ·

□

هذا ما تقول به وثائق الكونجرس الامريكي ، وهو مخيف بالنسبة لنا :

● دخل كيسنجر لمساعدة الاكراد مجاملة لايران ·

● بعد تاميم العراق لبترولها اصبح هدفه من مساعدة الاكراد استنزاف العراق ·

● مساعدته للاكراد مضبوطة عند حين معين لا يمكنهم من انتصار (لان ذلك ضار بمصالح ايران ، ولا يمكن الجيش العراقي من سحق تمردهم) ، اي ان الهدف استمرار الحرب واستمرار نزيف الدم والموارد ·

● طلب كيسنجر الى الاكراد تكثيف نشاطهم ليشغل العراق عن معارضة اتفاقيات فك الارتباط ·

● تخلى كيسنجر عـن الاكراد لكي يترك العـراق ـ في رأيـــه ـ يتفرغ لسوريا ، لان سوريا رفضت المرحلة الثانية في فك الاشتباك !!

ولم تنته القصة عـند ذلك الحـد في الحقيقة ، وانما كانت لها نيـول لم يلحق بها تقرير لجنة « بايك » ٠

كانت المخابرات الامريكية قد اشترت اسلحـة شيوعـية بخمسة وعشرين مليون دولار ، وكان من المقرر ارسالها ليحارب بها الاكراد ضد حكومة العـراق ٠

لكن الحرب الكردية انتهت والاسلحـة الشيوعية ما زالت تحت تصـــرف وكالة المخابرات المركزية الامريكية ٠

ماذا تفعـل بهـا ؟

وكان القرار سنة ١٩٧٦ ارسالها الى لبنان !!

□

واريد في النهاية ان اكون واضحـا فيما اقـول ٠

اريد ان اكون واضحـا في انني لا الوم هنري كيسنجر بل عـلى العـكس !

ولعلـى اعترف انني معجب به ـ موضوعـيا ـ في ازمـة الشرق الاوسط بالذات ٠

لقد كان يعرف هدفه ، ولقد اختار الاساليب التي تحقق هذا الهدف .ولقـد ادار ازمة الشرق الاوسط بما يحقق له وللولايات المتحدة اقصى حد من المصلحة والامن ٠٠٠ ولقد نجح باكثر مما كان يتصور ٠

ولماذا يلومه احـد ؟ اليس هذا واجبـه ؟

ولقد يطرأ سؤال :

ـ ونحـن أين واجبنا ؟

واقول :

ـ ليكن ٠٠٠ لقد حـدث ما حـدث ولم تعـد هناك فائدة من البكاء على اللبـن المسكوب ٠

ان ذهاب هنري كيسنجر فرصة نعـطي انفسنا بها بداية جديدة فيها الكثير من اليقظة والتنبه ، وفيهـا القليل من « الخيمة » و« السوق » !!

المجموعة رقم (٤)

الموقف التفاوضي العربي

(كتبت في أوائل فبراير ١٩٧٧)

الحديث الثالث عشر

سالني لورد كارادون ـ المندوب البريطاني السابق في الامم المتحدة ، والـذي ارتبط اسمه بقرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ لسنة ١٩٦٧ في شان ازمـــــة الشرق الاوسط ـ خلال حوار دار بيننا في القاهرة اخيرا :

ـ الا تعتقد ان كل الجهود الان يجب ان تتركز على التحرك نحـو مؤتمـــر جنيف باسرع ما يمكن ؟ »

وقلت له :

ـ انني لا ارى طريقا سريعا الى جنيف في الاوضاع الراهنة ·

قال لورد كارادون :

ـ لاننا لا نضغط بما فيه الكفاية لعقد هذا المؤتمر فورا ·

قلت :

ـ حتى اذا كان هناك طريق سريع ، فاني اعترف لك انني لست واحدا مـــن المتحمسين للسير عليه فورا.

وبدت علائم الدهشة على وجه لورد كارادون ، وارتفع حاجباه الكثيفـان بالشعر ، وتشابكا تعبيرا عن الاستغراب الى جانب الدهشة ، وقال :

لست واثقا من انني فهمتك ··· هل تقصد الى القول بانك لست متحمسـا لجنيف مع فرض وجود طريق سريع اليها ؟ ··· واذا كان ذلك ، فما هـــو البديل ؟ وماذا تفعلون بالازمة ؟ وفي اي مجال تبحثون لها عن حل ؟ »

وقلت :

ـ دعني احدد لك موقفي بشكل اوضح ···

ما اردت قوله هو انني لست متحمسا للذهاب الى جنيف الان ، ولنضع خطا تحت كلمة « الان » · والسبب انني اعتقد ان « الموقف التفاوضي العربي » يحتـاج الى جهود كبيرة لتحسينه ، ولا بد ان نبذل هذه الجهود لكي نذهب الى جنيـف

اذا ذهبنا ـ « بموقف تفاوضي ملائـم » ٠

ثم استطردت اقول :

ـ لوردكارادون ٠٠٠ انت مفاوض قديم وقدير ، وانت تعرف انه لا جـدوى من اقدام طرف من الاطراف على عملية تفاوض الا اذا كان قد اتم ترتيـــب « موقفه التفاوضي » قبل الجلوس على مائدة المفاوضات !

اننا حين نقرر الحرب ، لا نحمل مدافعنا على ظهورنا ونذهب الى اقرب مكان يمكن ان نلتقي فيه بعدونا ونبدأ في ممارسة القتال ٠

ان الحرب الحقيقية تبدأ ـ واحيانا تنتهي ـ قبل ان تدوي طلقة واحـــدة في الميدان ، وذلك يتأكد بتمام الاستعداد لها ، والترتيب لتحدياتها ، والتخطيـط لاحتمالاتها ٠٠٠

وكذلك المفاوضات !

ان مؤتمر جنيف ليس بالنسبة للمتفاوضين تذاكر سفر بالطائرة الى جنيـف، وفندق يذهبون اليه يفكون حقائبهم ويغيرون ملابسهـم ويركبون سيـــارات انيقة ذاهبين الى قاعة باهرة الضوء للتفاوض !

المفاوضات ـ شأنها شأن الحرب ـ تبدأ هي الاخرى ـ واحيانـــا تنتهـي ـ قبل ان تلقي الخطب الافتتاحية على جوانب مائـدة المفاوضـــات ، وذلـــك يتأكد بتمام الاستعداد لها ، والترتيب لتحدياتها ، والتخطيط لاحتمالاتها ٠

ان اي معركة عسكرية لا تستطيع ان تعكس الا حقائق القـــوة خارج ميدان القتال ٠

وبنفس المقياس ، فان اي مفاوضات لا تستطيع ان تعكس الا حقائق القـــوة خارج قاعة المفاوضات ٠

ان القتال والتفاوض كلاهما وجه من وجوه صراعات القوة بيـن اطـــراف تتصادم مصالحهم ، وتتصادم ضرورات امنهم :

القتال يترجم موازين القـــوة عسكريا ٠

والتفاوض يترجم موازين القوة دبلوماسيـــــا ٠

ولست اريد ان اطيل عليك ، واكتفي بان اكرر لك ما قلته ، وهو انني اعتقد ان « الموقف التفاوضي العربي » لا بد ان تطرأ عليه تحسينات اساسية قبـــل ان اتحمس مـــع المتحمسين لجنيف من اسرع طريق ٠٠٠ اخشى ان اســـرع طريق سوف يكون ـ في الظروف الراهنة ـ وبالنسبة للعرب ـ اخطر طريق ٠٠٠ هل اوضحت لك ما اقصده ؟ »

وقال لورد كارادون :

ـ انني افهم وجهة نظرك ، ولكني اريد ان اسالك : هل تعتقد بامكـــــان ادخال تحسينات اساسية على « الموقف التفاوضي العربي » في المستقبـــل المنظور ، ام ان هذا الموقف قابل في هذا المـــدى للضعف اكثر مماهو قابـــل للقوة ··· ؟ واذا كان ذلك ، فهل الانتظار في مصلحتكم او هو ضد مصلحتكم؟»
وقلت :

ـ هناك صناع للقرار في العالم العربي ، ولست واحدا منهم ـ ولكني استطيع ان اعبر عن رايي كمواطن عربي · وكمواطن عربي فـــان من حقي ان اطالب وان الح في المطالبة بضرورة ادخال تحسينات على « الموقف التفاوضـــي العربي » قبل ان نبدأ عملية المفاوضات ، وقبل ركوب الطائرات الى جنيف ·

وقال لورد كارادون :

ـلا استطيع ان اخفي دهشتي ··· لقد تصورت انك سوف تقفز من مقعدك حماسة للذهاب الى جنيف من اسـرع طريق

وقلت ضاحكا :

ـ اظنك تراني جالسا في مكاني ، لم اطر في الهواء !

وكان لورد كارادون يهز راسه ، وكان حاجبـــاه الكثيفان بالشعر مـــا زالا معلقين متشابكين تعبيرا بالملامـــح عن الدهشة . وكانمـــا التعبيـــر عن الدهشة بالكلمات اصبح عاجزا عن نقل رسالته !

□

كان ذلك الحوار بين لورد كارادون وبيني في القاهرة قبل عـــدة اسابيـــع، ووقتها كان الحديث عن مؤتمر جنيف يملأ الاجواء العربية ، وكان الحـــاح بعض الساسة والدبلوماسيين العـــرب عليه يطن في اذان الدنيا ، وشجـــع على ذلك العـــرب ـ بفضل اغلبية دول العالم الثالث في الامم المتحـــدة ـ توصلوا الى استصدار قرار من الجمعية العامة يؤكـــد مطالبتهم بضرورة عقد مؤتمر جنيف قبل نهاية شهر مارس ١٩٧٧ ·

كان البعض منّا في عجلة ،واكاد اقول في لهفة ·

وكان للاخرين راي مختلف ··· لا عجلة فيه ولا لهفـــة ·

● كانت الكلمة من الولايات المتحدة الامريكية اولا بانه : « لا مؤتمر فـــي جنيف قبل انتهاء انتخابات الرئاسة الامريكية » ·

··· وجاءت انتخابات الرئاسة الامريكية وانتهـــت ·

● وكانت الكلمة من اسرائيل ثانيا بانه : « لا مؤتمر في جنيف قبـــل انتهاء

الانتخابات البرلمانية في اسرائيل ... »

والانتخابات البرلمانية في اسرائيل موعدها اواخر مايو المقبل ،وتشكيل الوزارة الاسرائيلية الجديدة ـ بعدها ـ يأخذ شهرا او شهرين . والوزارة الجديدة بعد تشكيلها عليها ان تبحث وتدرس ، وهي تحتاج الى اسابيع وشهور لكي تتم بحثها ودرسها ـ واذن فمع الخريف قد تكون الظروف صالحة لبحث احتمال عقد مؤتمر جنيف !

هكذا !

ومع ان كله كان واضحا ـ وقد كتبت فيه بنفسي منذ اكثر من سنة ، وكتب فيه غيري ـ الا ان البعض منا ظل على عجلة ولهفة في طلب مؤتمر جنيف ، واصبحنا امام مشهد غريب انعكست به الاية وانقلب سياقها راسا على عقب :

● قبل سنوات : كان مطلب اسرائيل الاساسي هو مجرد الجلوس مع العرب وجها لوجه على مائدة مفاوضات ، وكان العرب يرفضون وجهة نظرهم «انهم لا يجلسون الى مفاوضات مباشرة مع اسرائيل الا اذا عرفوا مقدما ماذا عندها ، وما هو استعدادها للانسحاب من اراضيهم المحتلة؟ »

● والان : فان مطلب العرب الاساسي هو الجلوس مع اسرائيل وجها لوجه على مائدة مفاوضات في جنيف ، واسرائيل هي التي تتمنع ووجهة نظرها « انها لا تجلس الى مفاوضات مباشرة مع العرب الا اذا عرفت مقدما ماذا عندهم ، وما هو استعدادهم بالنسبة للمطلوب منهم من ضمانات السلام ».

لم يعد « شكل » مائدة المفاوضات وجها لوجه مع العرب مطلبا اسرائيليا له معانيه ودلالاته ، واولها كسر طوق الرفض العربي من حولها .

وفي نفس الوقت فان « شكل » مائدة المفاوضات وجها لوجه مع اسرائيل ـ اصبح مطلبا عربيا له معانيه ودلالاته ، واولها ان يبدو وكان الازمة تتحرك نحو حل ، وانها لم تتجمد بعد في حالة اللا سلم واللا حرب !

□

وتطورت الحوادث بشكل يثير القلق .

زاد الحاحنا على « الشكل » ... لمجرد انعقاد مؤتمر جنيف .

وادرك « الاخرون » مدى العجلة واللهفة في الحاحنا فبدأوا يطلبون منا« مقدما » دفع الثمن ـ في « الموضوع » .

والغريب اننا لم ننتبه الى نقاش دار بين هؤلاء الاخرين وبعضهم.ولم يدر بينهم بالهمس ، وانما كان الصوت مسموعالمن يريدان يسمع .

كان النقاش بين اسرائيل والولايات المتحدة :

● اسرائيل تقــول :

ـ ما هو وجه العجلة في الذهاب الى جنيف ··· ان الاوضاع العربيـــــة العامة سوف تزداد ضعفا ولا تزداد قوة مـــع مرور الايام ··· وذلـك سوف يظهر تاثيره دون شك على الموقف التفاوضي العربي »!

● وترد الولايات المتحدة على اسرائيل :

ـ الفرصة الان مناسبة والظروف متاحة ··· وصحيح ان الاوضـــاع العربية العامة قد تزداد ضعفا ، ولكن احتمالات الخطـــر تلوح وراء هـــذا الضعف المتزايد ··· فقد تحدث مفاجات ليست في الحسبان » !

كان صوت النقاش مسموعا ، ولكن اذان البعض منا لم تسمعـه ·

وكان يتحتم علينا جميعا ان نسمع وان نخرج مما سمعناه بنتيجـة واحــدة تسبق غيرها من النتائج ، وهي ان نكف عن الالحاح والعجلة واللهفـة فـي طلب عقد مؤتمر جنيف ، وان ننصرف بدلا من ذلك ولو مؤقتا ـ الى تقويــة الموقف التفاوضي العربي ، مدركين ان ذلك وحده هو السبيل الوحيد لارغـام اسرائيل على ان تهرول قبلنا من اسرع طريق الـى جنيف ·

بدلا من ذلك زاد الحاحنا وزادت العجلة واللهفة في نداءاتنا المتكررة ·

ووقعنـــا في المحظور ·

رحنا نطلب في « الشكل » ، اي نطلب مجرد عقد مؤتمر جنيف ·

وراحت اسرائيـل تطلب في « الموضوع » اي تطلب ضمانات الســـلام التي تريدها ·

كل ذلك وليست هناك حتى الان تذاكر سفر الى جنيف ! !

□

وزار المنطقة « كورت فالدهايـم » السكرتير العام للامم المتحدة يحاول مساعدتنا في مطلب « الشكل » الذي ركزنا عليه جهودنا · وهو عقـد مؤتمر جنيف خصوصا وان هناك توصية من الجمعية العامة بعقده قبل نهايــــة مارس ١٩٧٧ ·

ومن الانصاف « لفالدهايم » ان اقول انه لم يكن مقتنعـا بفائدة ســفره الى المنطقة ، واظنه صارح كثيرين ممن قابلهم في نيويورك قبل زيارته للشرق الاوسط بمخاوفه من الفشل « لان الظروف ليست ملائمة ، ولان الاطراف ليسوا على نفس الدرجة من الاستعداد » ·

وقام « فالدهايم » بزيارة عواصم عربية ، وسمع فيها وقال ٠

ثم قصد « فالدهايم » الى اسرائيل ، ولم تتوقف اسرائيل عند « الشكل » ، وانما تجاوزت « الشكل » الى « الموضوع » ، الى صميم « الموضوع » ، وهو فلسطين ٠

وكانت وجهة النظر الاسرائيلية كما سمعها « فالدهايم » :

ـ ان اسرائيل لا تمانع في الذهاب الى مؤتمر جنيف بعد الانتخابات الاسرائيلية ، ولكنها لا تستطيع ان تشترك في هذا المؤتمر او تحضر جلسة من جلساته اذا اشتركت منظمة التحرير الفلسطينية فيه ممثلة للشعب الفلسطيني ، او حضرت ٠

وعرض « فالدهايم » حلا وسطا ، وهو « ان يشترك العرب ويحضروا مؤتمر جنيف بوفد عربي واحد مشترك ، وللعرب اذا شاؤا ان يضمنوا وفدهم الواحد المشترك ممثلين عن منظمة التحرير الفلسطينية ٠٠٠ خصوصا وانه ليس من حق اي طرف ان يطلب هوية كل عضو من اعضاء وفد الطرف الاخر ٠

ورفضت اسرائيل لسببين :

● اولهما : انها تريد ان تتفاوض مع كل دولة عربية على حدة وهي ليست على استعداد للاعتراف بقبول وحدة كل الجبهات العربية ٠

● وثانيهما : انها تعرف هوية ممثلي منظمة التحرير الفلسطينية ، وهي لا تستطيع ان تخدع نفسها ٠

وعرض « فالدهايم » حلولا وسطا اخرى ، واسرائيل ترفض حتى حل ان تقوم رئاسة مؤتمر جنيف بارسال دعوة الى منظمة تحرير فلسطين على ان تعتذر المنظمة ـ وتتعهد بالاعتذار سلفا ـ عن حضور الجلسات الاولى، وريثما يتم اقرار تمثيل الفلسطينيين في المؤتمر بين اطرافه الاصليين !!

وكان اخر ما قاله « يجال اللون » نائب رئيس الوزراء الاسرائيلي ووزير الخارجية له « فالدهايم » :

ـ نحن لا نستطيع ان نقبل اشتراك منظمة التحرير الفلسطينية او حضورها بينما ميثاق هذه المنظمة ينادي بدولة علمانية في فلسطين ، وهذا معناه الغاء وجود الدولة اليهودية : اسرائيل !

وغادر « فالدهايم » المنطقة عائدا الى نيويورك ٠

غادرها كما جاء اليها ، صفر اليدين ، خالي الوفاض ٠

وعلى اعقاب « كورت فالدهايم » وصل الى المنطقة « سيروس فانس » وزير الخارجية الامريكية الجديد ٠

ولم يخف « فانس » قبل قيامه من واشنطن انه لا يتوقع انعقاد مؤتمر جنيف قبل الخريف القادم (بعد الانتخابات الاسرائيلية) ٠

ولم يخف ايضا انه لا يحمل في حقائبه حلا ٠٠٠ او مشروع حل ، وقالها بصراحة « انه ذاهب الى المنطقة ليستكشف ويدرس مواقف الاطراف»٠

ثم التقط « فانس » «الحبل » من اخر نقطة كانت في يد « فالدهايم »، وقال :

ـ انني اريد ان ارى بنفسي ما اذا كان هناك دليل على استعداد الفلسطينيين للاعتراف باسرائيل ، واول هذا الاستعداد ان تقوم منظمة التحرير الفلسطينية بتعديل ميثاقها بما يؤكد تخليها عن هدف الدولة العلمانية واستعدادها بالتالي للاعتراف باسرائيل ٠

وغادر « فانس » المنطقة ، والصحف الامريكية حافلة بانباء عن ضغوط عربية على منظمة التحرير الفلسطينية تستهدف ارغامها على الاعتراف باسرائيل ، حتى يمكن ان ينفتح الطريق الى جنيف ، حيث يمكن ان يحصل الفلسطينيون على دولة فلسطينية مستقلة ٠

اي ان الثورة الفلسطينية ـ اذا صح مثل هذا القول ـ عليها الان ما يلي :

١ـ ان تعترف باسرائيل في ظل احتلال اسرائيلي لكامل التراب الفلسطيني !

٢ـ ان تتنازل بالتالي عن حقوقها التاريخية والانسانية في وطنها ، بدون ان تحصل حتى على شبه وعد باقامة دولة فلسطينية في جزء من الوطن الفلسطيني لم ترسم حدوده بعد !

٣ـ ان تعطي على هذا النحو كل شيء سعيا وراء امل غامض بان تكون موجودة في مؤتمر جنيف بنصف وفد ٠٠٠ نصف مستقل على احسن الفروض !

ولم يسال احد نفسه سؤالا بسيطا :

ـ اذا كان لا بد من هذه التنازلات كلها من اجل الحصول على مقعد في مؤتمر جنيف ٠٠٠ فما هو الثمن المطلوب دفعه من اجل الحصول على دولة فلسطينية مستقلة في جزء من فلسطين ؟ !

واذا كانت هذه التنازلات كلها ونحن لم نضع قدما على خطوة في الطريق الى جنيف ـ فما الذي سيطلب منا هناك حول مائدة المفاوضات في جنيف ؟ !

هكذا نطلب « الشكل » ونلح بالعجلة كلها واللهفة ·

ويشعر الاخرون بما نريد ، ولا يطلبون في « الشكل » وانما يطلبون في الموضوع » ·

وتبدأ تنازلاتنا في «الموضوع » حتى بغير انتظار لوصول « الشكل » الذي نطلبه الى ايدينا ·

ونجد في الحقيقة ان التفاوض يبدأ ويكاد ينتهي ونحن لم نصل بعد الى جنيف !

والغريب انه تفاوض من جانب واحد ، والا فلنسأل انفسنا :

● لماذا لم يطلب احد الى اسرائيل ان تعترف بمنظمة التحرير ؟

(بالنسبة لاسرائيل ما زالت منظمة التحرير مجموعة ارهابيين وقتلة)·

● لماذا لم يطلب احد الى اسرائيل ان تعلن مجرد اعلان التزامها بمبدأ الانسحاب من كل الاراضي العربية المحتلة ؟

(اسرائيل لا تخفي ان لها مطالب في الاراضي العربية المحتلة وهي تتحدث علنا عن اجزاء من الجولان واجزاء من سيناء واجزاء من الضفة الغربية ··· واما القدس فليست موضوعا مطروحا حتى لمجرد التفكير فضلا عن المناقشة) ·

● لماذا لم يطلب احد الى اسرائيل ان تعلن احترامها للحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ، مهما كان رايها في حدود هذه الحقوق ؟

(اسرائيل لا تعترف حتى الان بوجود شعب فلسطيني ، ومن وجهة نظرها فانها لا تستطيع ان تعترف . ذلك لان دعاواها كلها تقوم على انها «اقامت دولة في ارض بلا شعب ، لان الشعب الاصلي لهذه الارض هو الشعب اليهودي – في رايها – كان في التيه لمدة عشرين قرنا بعيدا عن وطنه ··· والاعتراف بالشعب الفلسطيني الذي كان موجودا على هذه الارض قبل عشرين سنة يلغي النظرية الصهيونية من اساسها ··· وهكذا فان الاعتراف بوجود « شعب فلسطيني » هو الغاء لوجود شعب اسرائيلي » ، لان كلاهما يطالب بنفس الارض) ·

ذلك كله لم يطلبه احد ، ولم يسأل اسرائيل فيه ·

وبدلا من ذلك ، رحنا نطلب « الشكل » – مؤتمر في جنيف ·

واما هم فقد قفزوا الى « الموضوع » – يطلبون تنازلات في صميم « الموضوع » ···كل هذا والمفاوضات لم تبدأ بعد ···

او لعلها بـدأت !

دخلناها ونحن لا ندري عن طريق التصريحات في الصحف ··· وعن

طريق الرسائل والرسل ··· وعن طريق الالحاح ··· والعجلة فيه واللهفة !

□

ما هو معنى ما اقوله ، وما الـــذي اريد ان اوصل اليه في النهاية ؟

اريد ان اقول ـ اولا ـ انني لست ضد التفاوض ، حتى مـع الشيطان·

واريد ان اقول ـ ثانيا ـ ان ما اطالب به ـ ويجب ان نطالــب بـــه

جميعا ـ هو ان نذهب ، حين نذهب للتفاوض ، واثقين مـــن ان « موقفنـا التفاوضي » قد استكمل كل عناصر القـــوة اللازمــة ·

واريد ان اقول ـ ثالثا ـ ما قلته لعسكري عربي بارز سالني عن رايـي في احتمالات مؤتمر جنيف ، وهل يمكن لازمة الشرق الاوسط ان تجـــد لنفسهـا حـــلا فيـــه ؟

وكان ردي عليـــه :

ـ دعني اجيب على سؤالك بسؤال : ما هي احتمالات القتال ؟ »

وسكت ، لم يقل شيئا ·· !

وقلــت :

ـ سوف اعفيك من اجابة محددة ، ولكن راي كما يلـــي :

اذا كنا مستعدين للقتال ··· اذن فنحن مستعدون للمفاوضات ··· لان عناصر بناء الموقف العسكري لاي طرف مـــن الاطراف هي نفسهـــا عناصر بناء موقفه التفاوضـــي ·

ونحن حينما نقرر القتال ، لا نفعل ذلك الا بعد ان نطمئـن الى مجموعـة من العوامل الضرورية لقرار بالقتال :

● قوة ذاتية : تتمثل في جبهة داخلية متماسكة ومتوازنة نفسيـا واقتصاد قادر على الصمود ، وسلاح يملك كفاءة الـــردع ·

● قوة جماعية : تتمثل في التحالف الذي نستطيع الاعتماد عليه في خوض الحرب الى جانبنا بكل وسائلها ، لان مصالحه تتفق وضرورات امنـه تتلـق (في حالتنا فان هذه القوة الجماعية هي القوة الشاملة للامة العربيـــة ··· او اكبر جزء منها وذلك ابتداء من الجيوش العربية المستعدة للقتال ··الـى البترول العربي ·· الى المال العربي ··الـى اخـــره) ·

● قوة دولية : تتمثل في الصداقات العالمية التي تستطيـع تقديـم العـون

المادي والسياسي والمعنوي لنـــا ٠

ان نفس مجموعة هذه العوامل الرئيسية الضرورية لقرار بالقتـال ، هـي نفسها مجموعة العوامل الرئيسية الضرورية لقرار بالتفاوضــــ ٠

ان القوة هي سلاح الاقناع او الارغام في ميدان القتـــال ٠

ونفس القوة هي سلاح الاقناع او الارغام على مائدة المفاوضــــات٠

كلاهما ميدان القتال او مائدة المفاوضات ، ساحة لصراع ارادات : اولهما تتصارع فيه الارادات بالنار . وثانيهما تتصارع فيه الارادات بالحوار !

ومع ذلك فالمسألة اكثر بساطة من ذلك كله :

ـ لنسأل انفسنا ما هي قوة اي متفاوضــ ؟

والــــرد :

ـ قوته هي في قوله : اذا لم اصل هنا الـى حل اطمئـن الى عدالتـــه ، فسوف اخرج من هنا لابحث عن العدل بوسيلة اخرى في مكان اخـــر ٠٠٠

وحين لا تكون لاحـد المتفاوضين فرصة قابلة للتصديق لكي يقـــول هذه الجملة التي تبدأ بـ«اذا» ـ فمعنى ذلك انه لا يملك الا خيارا واحــــدا هــــو ان يتكلم ٠٠٠ ويظل يتكلم ٠٠٠ ويبقى الى اخـــر الزمان مـع الكـــلام، وليست تلك هي « قوة الموقف التفاوضـــــي » ٠

قوة الموقف التفاوضي ٠٠٠ قدرة على الفعل ٠٠٠ عندما يصل الكلام الـى طريق مســـــدود ! »

قلت لمحدثـــي :

ـ ذلك راي في جنيف بمنتهى الصراحة والوضوح والاختصار ٠

واذا كان لي بعده من اضافة ، فهي ان نكف عن الالحاح والعجلة واللهفة في طلـــب جنيف ، وان نستعـد لجنيـف ٠٠٠

استعدادنا لجنيف هو الـذي يفتح الباب لجنيف من غير الحـاح ومـــن غير عجلة ومن غيـر لهفة ٠

هذه هي القضية !

الحديث الرابع عشر

من سوء الحظ ان « الموقف التفاوضي العربي » يعتمد الآن اعتمادا ظاهـرا على حسن نية الولايات المتحدة الامريكية !

بل ان هذا « العنصر الامريكي » في الازمة لم يعد مجرد عنصر خارجـي يؤدي دوره في حل الازمة مع عناصر اخرى دولية وعالمية ، وانما تجاوز هـذا الدور حدوده الى حد يمكن القول معه ان اعتماد « الموقف التفاوضي العربي » على الولايات المتحدة الامريكية اصبح اعتمادا مطلقا ٠

وقد بدأ ذلك منذ مفاوضات فك الاشتباك الاول ، التي استطاع فيها الدكتـور هنري كيسنجر عزل دور الامم المتحدة وعزل ادوار بقية اطراف المجتمع الدولـي عن محاولات حل ازمة الشرق الاوسط ، لتصبح هذه المحاولات احتكارا امريكيا خالصا ، وليتحول مؤتمر جنيف ليصبح مجرد « منظر » يجري في اطاره التوقيع على نتائج تم الوصول اليها خارجه !

ثم تاكد هذا الوضع الخاص لامريكا بمفاوضات اتفاقية سيناء الثانية فـي اغسطس وسبتمبر ١٩٧٥ ٠ ٠

ثم اصبح هذا الوضع حقيقة سياسية واقعة بما تلا ذلك من التطورات ، وبمـا اصبح يجد اصرح تعبير عنه في المقولة المشهورة « بان الولايات المتحدة تمسـك في يدها بتسعة وتسعين في المائة من اوراق الحل » ٠ وهي مقولة تنطوي علـى ظلم كبير ، لانفسنا وللمجتمع الدولي وللازمة وحتى للولايات المتحدة ذاتها لاننا بذلك نضع عليها اكثر مما تستطيع الوفاء به ، فالمشكلة اكبر واكثر تعقيدا مـن قدرة طرف واحد منفرد على الامساك بتسعة وتسعين في المائة من اوراق الحل!

□

وقد يكون مناسبا هنا ان اقول كلمتين احدد فيهما موقفي المبدئي من الولايات المتحدة الامريكية اولا ، ثم رايي في دورها لحل ازمة الشرق الاوسط ثانيا :

● من الناحية المبدئية اريد ان اقول مـا يلي :

لست واحدا من الذين يعادون الولايات المتحدة الامريكية والسلام ، كما انـي لست واحدا من الذين يصادقونها والسلام ٠

ان الولايات المتحدة في ظروف عالمنا المعاصر هي اكبر القوى ، والعداء معها يقتضي حسابات دقيقة وحذرة ، ومن ناحية اخرى فان الولايات المتحدة فـي ظروف عالمنا المعاصر ايضا هي القوة التي وضعت نفسها ضد التطور متصورة ان اي تغيير في العالم لن يكون الا على حساب قوتها ٠

هكذا فنحن امام قوة هائلة لا نظير لقوتها في الحاضر او في الماضي ٠٠٠

ولكن هذه القوة الهائلة ـ في معظم الاحيان ـ تدفع الى الوراء ولا تدفع الى الامـام !

هكذا فان معاداة امريكا ـ على طول الخط ـ تجاهل للواقع ٠ كما ان موالاة أمريكا ـ على طول الخط ـ تجاهل للتاريخ ٠

وليس معنى عدم تجاهل الواقع ان نستسلم له ، ثم ان عدم تجاهل التاريـخ ليس معناه ان نعيش فيه قبل ان يطلع نهاره ٠

ان الحركة الواعية والمستنيرة ازاء الواقع وازاء التاريخ تفرض منهجا اخـر في ادارة العلاقات مع الولايات المتحدة الامريكية ، غير قدرية الاستسلام المطلق لامريكا باسم الواقعية او الرفض المطلق لها باسم التاريخ ٠

ذلـك رأيي !

● ومن ناحية دور الولايات المتحدة في حل ازمة الشرق الاوسط فاني اريـد ان اقول بما يلـي :

لقد كنت باستمرار واحدا من الذين قالوا ـ ومبكرا جدا ـ انه لا يمكـن الوصول الى حل لازمة الشرق الاوسط مع استبعاد دور الولايات المتحدة فيـه ، ولكن هذا لا يعني ان حل الازمة يجيء عن طريق استبعاد كل الاطراف الاخـرى فيما عدا الولايات المتحدة ٠

وهكذا فاني على استعداد لان اقول مع القائلين بانه لا يمكن الوصول الى حل بدون اشتراك امريكا ٠ ٠

ولكني في نفس الوقت اضيف الى ذلك : انه لا يمكـن الوصول الى حـل باشتراك امريكا وحدها ، لان اشتراك امريكا وحدها يعني حلا امريكيا مـن اساسه ، يعني حلا اسرائيليا في معظمه ، خصوصا اذا تذكرنا مقولات اخـرى اعلنها بعضنا ، ومنها مثلا :

● « اننا بعد عشرة ايام من حرب اكتوبر وجدنا انفسنا نحارب الولايـات

المتحدة ولا نحارب اسرائيل ، ونحن لا نستطيع ان نحارب امريكا ! »

● « ان امريكا تعطي كل شيء لاسرائيل ابتداء من رغيف الخبز الى طائرة الفانتوم » .

وفي الحقيقة فلست اعرف كيف نستطيع ان نوفق بين هاتين المقولتين وبين المقولة الاخرى عن « وجود تسعة وتسعين في المائة من اوراق الحل في يد الولايات المتحدة » !؟

وربما كان الاولى بنا ـ في رأيي ـ ان نعرف للولايات المتحدة دورها في الازمة ، لا نقلل من قيمته بتجاهله ، ولا نبالغ في قيمته بتجاهل ادوار اخرى يجيء دورنا نحن في مقدمتها وفي الطليعة منها .

والغريب اننا بالغنا في قيمة الدور الامريكي في عهد «نيكسون» و «كيسنجر».

ولم نتعلم من اخطائنا ، والذين لا يتعلمون من اخطائهم محكوم عليهم بتكرارها .

وهكذا وقعنا في نفس المحظور في عهد « فورد » و « كيسنجر » .
ولم نتعلم ايضا ...

وها نحن نوشك ان نكرر نفس الخطأ في عهد « كارتر » و « فانس » !
وهذه هي النقطة التي اريد ان أركز عليها حديثنا اليوم .

□

لقد دخل « جيمي كارتر » الى البيت الابيض في ٢٠ يناير الماضي ومعه قائمة بالاولويات الملحة والضاغطة عليه ، ولم تكن ازمة الشرق الاوسط بين الاولويات الخمسة الاولى ، ولعل مكانها في الترتيب كان المكان السادس او السابع .

قبلها كانت هناك الازمة الاقتصادية في امريكا ، ثم الازمة الاقتصادية في الغرب عموما ، ثم ازمة حلف الاطلسي وقوته امام قوة حلف وارسو المتنامية،ثم ازمة تحديد الاسلحة الاستراتيجية بين امريكا والاتحاد السوفيتي ، ثم ازمة جنوب افريقيا .

وهذه خمس ازمات ، وربما كانت السادسة بعدها هي ازمة الشرق الاوسط، هذا اذا لم تسبقها ازمة تركيا واليونان على اساس تاثيرها في الجبهة الشرقية لحلف الاطلسي ، وهي جبهة يزداد الاهتمام بها بزيادة المخاوف مما يمكن ان يحدث في يوجوسلافيا إذا اختفى ماريشالها العنيد جوزيب بروز تيتو ، وهو الان يجتاز الحلقة التاسعة من عمره !

وسواء كانت ازمة الشرق الاوسط في المرتبة السادسة او السابعة من اولويات « جيمي كارتر » ، فان نظام حكمه لم يكن مستعدا لها فور دخوله الى البيت الابيض ، خصوصا وان الكل يعلم ان الازمة لا يمكن تناولها بطريقة جادة قبل الانتخابات البرلمانية في اسرائيل ، وهي انتخابات كان مقررا لها صيف سنة ١٩٧٧ ٠

لكننا وضعنا « العقدة في المنشار » ، كما يقول المثل الشائع في ريف مصر ٠

طرحنا الازمة في الحاح وفي عجلة ولهفة ، وكان ذلك من خلال ما اسمته بعض الصحف العالمية : « حملة السلام العربية » ، وهي حملة من التصريحات العلنية وغير العلنية ركزت وبكثافة شديدة على القول بان الظروف مواتية لاتفاق ، وان العرب مستعدون لتوقيعه ٠

ولم تكن « حملة السلام العربية » ـ كما يسمونها ـ مقصودة في حد ذاتها ،

واتصور انها كانت ـ في وقتها ـ ستارا قصد به ان يغطي على رهان عربي بفوز « فورد » ـ ومعه « كيسنجر » ـ في انتخابات الرئاسة الامريكية ، ولكن الرهان لم يصل الى ما تمنى ، وسقط «فورد » وذهب معه « كيسنجر » ، وكان لا بد من غطاء ٠

ومع ذلك فمهما تكن تفسيرات الدوافع الكامنة وراء « حملة السلام العربية في وقتها ـ فان الامر الذي لا شك فيه انها قد نجحت في ان تفرض على النظام الامريكي الجديد ـ نظام « جيمي كارتر » ـ ان « يتناول » ازمة الشرق الاوسط قبل الموعد الذي كان محددا لها في نطاق اولوياته ٠٠

لكن « تناول » ازمة يختلف تماما عن « الاهتمام » بازمة !

ونحن نستطيع ان « نتناول » شيئا دون ان يكون ذلك تعبيرا عن اهتمام حقيقي بـه ٠

كما اننا نستطيع ان نمسك بين اصابعنا بشيء بغير ان نتقدم به ونتحرك الى الامـام ٠

ويكون هدفنا في هذه الحالة اعطاء الانطباع باننا نستجيب للالحاح ولعجلة ولهفة لا نريد ان نغضب اصحابها ٠٠

وهذا هو الفرق بين « التناول » و « الاهتمام » !

□

وفضلا عن الاولويات التي دخل بها « جيمي كارتر » الى البيت الابيض ، ونظام ترتيب هذه الاولويات في تقديره واهتمامه ، فلقد كانت هناك اعتبارات

جديرة بالملاحظة من جانبنا ، اهمها ما يلي :

١ ـ ان « جيمي كارتر » دخل الى البيت الابيض وهو لا يعرف شيئا عن حقائق الصراع العربي الاسرائيلي ، وبالذات وجهة نظرنا في هذا الصراع ،وما كان يعرفه من قبل وما عبر عنه في ظروف حملته الانتخابية لم يكن اسلم انواع المعرفه ، لانها بحكم الظروف معرفة متحيزة لاسرائيل ، وكان يجب ان نعطيه الفرصة ليتعلم (لانه لو تصرف على الفور بتأثير معرفته السابقة لكانت النتيجة كارثة محققة !) ٠

٢ ـ ان « جيمي كارتر » لم يكن يواجه ضغطا محسوسا بسبب ازمة الشرق الاوسط ، وقصارى ما نقل اليه بواسطة بعض اعضاء مجلس الشيوخ والنواب الذين جاءوا الى المنطقة ، ان هناك عوامل مواتية لحل ازمة الشرق الاوسط بينها زيادة نفوذ المعتدلين وتقلص وجود الفلسطينيين الى جانب عزلة حوصر بها الاتحاد السوفيتي ـ وليست هذه كلها الوانا من الضغوط التي تفرض على رئيس امريكي ان يهتم بازمة من الازمات في العالم ، وربما كان اثرها عكسيا لو لم يسارع حملة الانباء والرسل الى القول بان هذه العوامل المواتية قد لا تدوم لان المعتدلين في وضع دقيق ، والفلسطينيون ، لهم سبعة ارواح ، والاتحاد السوفيتي قد يكسر نطاق عزلته ٠

ولعلي اقول ان ضغوطا من هذا النوع ليست انسب الضغوط سياسيا لانها في الحقيقة اضعاف للموقف التفاوضي للاطراف العربية الملحة في التفاوض بسرعة ٠٠٠ وذلك من قبل ان تبدا المفاوضات ، ذلك انه اذا بدت عجلة ولهفة طرف من الاطراف الى الوصول لحل ، فذلك هو نصف الطريق الى القبول باي حل (على الاقل في تصور كارتر) ٠

٣ ـ ان اي رئيس امريكي ـ وجيمي كارتر ليس استثناء من هذه القاعدة ـ لا يستطيع ان يمارس ضغطا مؤثرا على اسرائيل في الشهور الاولى من حكمه، وهذا في الحقيقة ما نطالبه به وننتظره منه ٠

والسبب ان اسرائيل داخلة في تكوين القوى المؤثرة على عملية صنع القرار داخل الولايات المتحدة ٠

واي رئيس امريكي يحتاج في الشهور الاولى من حكمه الى جو من «الاجماع» تؤيده فيه كل القوى المؤثرة داخل الولايات المتحدة ٠

ولقد يستطيع اي رئيس امريكي ـ فيما بعد الشهور الاولى من حكمه ـ ان يغضب احدى هذه القوى . ولكنه قبل ان يخاطر بذلك يكون لزاما عليه ان يكون واثقا من انه استطاع تشكيل اغلبيته الخاصة التي تؤيد سياساته وتنقاد مطمئنة الى زعامته ٠

ومعنى ذلك ان اي رئيس امريكي جديد معرض في بداية حكمه للضغوط اكثر مما هو قادر بنفسه على توجيهها الى الاخرين ٠

٤ ـ وكانت هناك الى جانب ذلك عناصر اخرى تتعلق بمقدرة اسرائيل على التاثير في المجتمع الامريكي ٠

ونحن جميعا نعرف مدى قوة التاثير الاسرائيلي على المجتمع الامريكي ، وان كان لا بد ـ انصافا لانفسنا ـ ان نسلم باننا استطعنا الوصول بنجاح الى قطاعات مهمة من الرأي العام الامريكي بدأت تفتح عيونها على نوايا اسرائيل ، لكن الطريق ما زال حتى الان طويلا ٠

والمشكلة ان قدرة اسرائيل على التاثير في امريكا اضيفت اليها ـ كما قلت ـ عناصر اخرى جديدة :

● بينها مثلا ان الولايات المتحدة كلها مشدودة الى ما يسمى بحملة الحقوق الانسانية في الاتحاد السوفيتي وغيره من دول اوروبا الشرقية ٠

ولقد اصبحت مواقف الرافضين في الاتحاد السوفيتي وغيره بطولات رائعة في الولايات المتحدة ٠

والقضية ان معظم هؤلاء الرافضين من اليهود ، كذلك فليس هناك شك في ان اسرائيل تقوم بدور كبير ـ بالتنسيق مع المخابرات المركزية الامريكية ـ في عملية التشهير التي يتعرض لها الاتحاد السوفيتي ٠

واذا كنت واحدا من الذين لا يرضون لانفسهم ان يقفوا موقف المدافع عن الكبت في الاتحاد السوفيتي او في غيره ـ فانني في نفس الوقت لا استطيع ان اغمض عيني عن القوى المحركة لحملة التشهير المعلنة على الاتحاد السوفيتي الان ٠ وابسط ما يمكن ان يقال عن هذه الحملة انها « حق يراد به باطل » ـ وفي كل الاحوال فان دور اسرائيل فيها يعطيها قوة مضافة الى قوتها في الولايات المتحدة في هذه الظروف ٠

● وبينها مثلا ان اسرائيل الان تقف ضمن معسكر الصقور في الولايات المتحدة ، هؤلاء الذين يطالبون لاسبابهم باستمرار سباق التسلح بين امريكا والاتحاد السوفياتي ، وهو معسكر ظهر نجمه في هذه الايام بدعاوى التفوق السوفيتي على الولايات المتحدة ، خصوصا في البحر وفي الفضاء ٠

ويلفت النظر ان عضوي مجلس الشيوخ عن نيويورك ، وهما « جاكسون » و « موينيهان » ، في الصف الاول من معسكر الصقور، وكلاهما اقرب الاصدقاء الى اسرائيل ٠

كذلك يلفت النظر تشدد موقف اتحاد نقابات العمال الامريكيين في مسالة التسليح ، واتحاد النقابات في امريكا واحد من اكبر جماعات الضغط الموالية لاسرائيل ٠

بطبيعة الحال فان اسرائيل تصير من اشد انصار سباق التسلح ، فهي نفسها — وهي اول من يدرك ذلك — قاعدة من قواعد القوة العسكرية المسلحة التي تعرض نفسها لخدمة نزعات السيطرة الامريكية ·

ولقد دفع ذلك احد الكتاب الامريكيين الى القول بان اسرائيل اصبحت جزءا من « التحالف الفكري — العسكري » الذي يتصدر الان جبهة الصقور في الولايات المتحدة ·

وهذه ايضا قوة مضافة الى تاثير اسرائيل « الطبيعي » في الولايات المتحدة·

□

ونسأل انفسنا الان :

— ما الذي يفعله رئيس أمريكي ازاء هذه الاعتبارات كلها ؟

احرج بازمة لم يكن مستعدا لها . والازمة لا تضغط عليه بعواملها الذاتية ، وبالعكس يجيء الضغط من الناحية الاخرى التي لا تلح في طلب المفاوضات ولا تتلهف عليها او تتعجل . ثم تكون الحجج التي تساق اليه في طلب الالحاح واللهفة والعجلة — كما يفسرها المفسرون من حملة الانباء والرسائل — هي وجود معتدلين عرب وغياب متشددين ، الى جانب عزلة سوفيتية — ومن ثم فالفرصة مناسبة ·

ماذا يفعل رئيس أمريكي ؟

يفعل ما يلي :

١ — « يتناول » الازمة مجرد تناول يجرب حظه ويجرب اختبار ما قيل له عن الفرصة المناسبة ·

٢ — يطلب تنازلات اكثر من الاطراف الملحة والمتلهفة والمتعجلة ·

٣ — ولان الوقت لم يتح له لكي يخرج بتصوره الخاص للازمة ، فانه يكون على استعداد لان ياخذ اية تصورات جاهزة ، حتى وان كانت مما توصل اليه غيره ·

وذلك بالضبط ما فعله « جيمي كارتر » . ولعلي اضيف ان عذره مسبق عن اي خطأ يكون قد وقع فيه !

هكذا فان حركته في الازمة — ولا اقول تقدمه اليها — كانت في الاتجاهات التالية :

● بعث وزير خارجيته سيروس فانس في مهمة « استكشاف حقائق » وكان

الحكومة الامريكية بكل اجهزتها لا تعرف شيئا عن هذا « الكوكب المظلم » الـذي هو الشرق الاوسط ، ولهذا فهو يحتاج الى صاروخ وملاح يهبط على سطحـه ويختبر تربته ويضع اجهزة للرصد عليه ٠

ثم دعا عددا من رؤساء الدول في الشرق الاوسط لزيارته في واشنطن حتى يلتقي بهم ويسمع منهم ابجدية الازمة من اولها ٠

وهي بالتاكيد فرصة لكسب الوقت ٠٠٠ حركة من غير تقدم ٠

تعبير دقيق عن « التناول » كشيء اخر يختلف عن « الاهتمام » !

● كان مطلبه الواضح هو ان يريه العرب مدى استعدادهم للتنازل ، ومنذلك قول « سيروس فانس » وزير الخارجية الامريكية :

ـ اني اريد ان ارى بوضوح دليلا على استعداد الفلسطينيين للاعتـراف باسرائيل ، والدليل المقبول ان تقوم منظمة التحرير بتعديل ميثاقها وتتخلـى عن فكرة الدولة العلمانية التي لا تعني في الحقيقة غيـر زوال الدولـة الصهيونية ، او ذوبانها في كيان اخر ليست على استعداد للذوبان فيه » ٠

ولم يكن هناك طلب مشابه ـ على الاقل ـ لاسرائيل كي تعلن اعترافها بالثورة الفلسطينية ٠٠٠ او بالشعب الفلسطيني ٠٠٠ او بوطن مستقل للفلسطينيين !

وفي نفس الوقت كان هناك طلب الى مصر وسوريا بالافصاح عن ترتيبـات السلام في تصورهما ،دون ان يكون هناك طلب مشابه ـ على الاقل ـ لاسرائيل كي تعلن تصورها لخريطتها في المستقبل ، وما اذا كانت هذه الخريطة تنطـوي على انسحاب من كل سيناء او الجولان ، او ان هناك اجزاء من هذه الاراضـي العربية مرشحة ـ او مهياة ـ للضم لاسرائيل ؟!

● ثم كانت هناكفي الاسلوب عودة الى منطق كيسنجر ، واوله طريقة المكوك٠

جاء « سيروس فانس » الى المنطقة في فبراير « لاستكشاف الحقائق » ٠

وسيعود « فانس » الى المنطقة في يونيه « لاستكشاف فرص عقد مؤتمـر جنيف » ٠

وكانت تلك نصيحة « كيسنجر » الذي قال لـ « فانس » ان الزعماء العـرب سوف يرضيهم ان يذهب اليهم ، وان الاتصال بهم وجها لوجه يغريهم باعطـاء ما يطلبه منهم وينسيهم الاصرار على ما يطلبونه منه !

ويبدو ان « فانس » قبل نصيحة « كيسنجر » ، وتغيرت خطط الاسلوب فيمـا يتعلق بازمة الشرق الاوسط ٠٠٠

كان « فانس » في وقت من الاوقات مصرا على ان يتجنب اسلوب « المكوك »

في ازمة الشرق الاوسط وغيرها من الازمات ، وكانت التصورات الاولى ان يتم تعيين مفاوض امريكي متفرغ لازمة الشرق الاوسط ، على غرار ما حدث في ازمة تحديد الاسلحة الاستراتيجية وفي ازمة قبرص ·

كان اختيار الرئيس الامريكي قد وقع على « بول وارنكه » لكي يتفرغ لمفاوضات تحديد الاسلحة الاستراتيجية مع الاتحاد السوفيتي ·

وكان اختياره قد وقع على « كلارك كليفورد » لكي يتفرغ لمفاوضات قبرص بين اليونان وتركيا ·

وكان هناك بحث عن مفاوض متفرغ لازمة الشرق الاوسط ، وطرح اسم « دين راسك » وزير الخارجية الامريكي السابق ، وهو صديق مقرب في نفس الوقت من « كارتر » ـ ثم طوى البحث وبدت شواهد تدل على عودة لاسلوب كيسنجر !

□

يظل هناك سؤال اخر لا بد ان نساله لانفسنا ·

كل هذا عن « التناول دون تقدم » ـ وعن استكشاف الحقائق وكانها طلسم مغلق ـ وعن الاسلوب والعودة فيه الى منطق كيسنجر ···

ولكن ماذا عن الموضوع ؟ ماذا عن صميم الازمة ذاته وجوهره ؟

والرد :

ـ اكاد اقول ليس هناك بعد في واشنطن تصور ·

لم يكن هناك تصور في عهد « نيكسون » و « كيسنجر » ، لا في عهد «فورد» و « كيسنجر » ·

كانت هناك الرغبة في كسب الوقت وانتظار تفاعلاته ، واما بالنسبة للصميم والجوهر فقد كانت الامور على طريق مسدود ، وكان اتجاه « كيسنجر » نزع فتيل التفجير في الازمة ، ثم تركها بعد ذلك للزمن ···ولعوامل التعرية الطبيعية !!

وفي حالة « كارتر » فما زلت اقول انه ليس هناك بعد في واشنطن تصور ، والبحث ما زال جاريا عن تصور ، حتى ولو كان تصورا جاهزا سبق تشكيله قبل ان يصل « كارتر » الى البيت الابيض ·

والحديث في واشنطن الان يجري همسا عن تقرير بحل لازمة الشرق الاوسط وضعه معهد من معاهد الابحاث السياسية المشهورة في الولايات المتحدة وهو معهد « بروكينجز » ·

ومما يلفت النظر ان اللجنة التي اعدت التقرير بحل لازمة الشرق الاوسط في اطار معهد « بروكينجز » تضم بين اعضائها عددا من الذين يشاركون اليوم في ادارة نظام « كارتر » . وعلى راسهم « زبجينو برجينسكي » وهو الان مستشار الرئيس الامريكي لشئون الامن القومي . وهو منصب « هنري كيسنجر » القديم!

وكان « زبيج » ـ كما يسميه اصدقاؤه ـ وقتها استاذا للعلوم السياسية في جامعة كولومبيا . تماما كما كان « كيسنجر » استاذا للعلوم السياسية بجامعة هارفارد !

طيـــب !

ماذا الان عن هذا التقرير لحل ازمة الشرق الاوسط ؟!

يتصور التقرير حلا طويلا لازمة الشرق الاوسط ، ما بين خمسة عشر سنة وعشرين سنة ·

ويتصور مراحل متفق عليها من الانسحاب مقابل خطوات متفق عليها من ترتيبات السلام ·

تتراجع اسرائيل خطوة في الاراضي ، ويتقدم العرب خطوة في ترتيبات السلام، ولا تتم خطوة جديدة الا بعد ان يكون الاطراف قد اطمأنوا الى حسن تنفيذ الخطوة التي سبقتها ·

وهو تعبير عن معنى اخر استعمله اسحاق رابين رئيس وزراء اسرائيل :شبر من السلام مقابل شبر الاراضي ·

والكلام هنا عن سلام كامل بما فيه حدود مفتوحة ··· وتجارة متبادلة · وتمثيل سياسي رسمي ، الى اخره ··· مع العلم بان التقرير يسلم بحق اسرائيل في ضم اجزاء (صغيرة) من الارض العربية التي تحتلها اسرائيل الان ··· اي ان المطلوب هو كل السلام مقابل ما هو اقل من كل الاراضي !!

وبقي ان اضيف معلومة صغيرة لعلها تفيد بعض صناع القرار العرب ،وهي:

ـ ان « برجينسكي » مستشار كارتر لشئون الامن القومي قام بزيارة سرية لاسرائيل في الاسابيع الاخيرة من سنة ١٩٧٦ » !!

الحديث الخامس عشر

اللغز المحير في « الموقف التفاوضي العربي » هو الدور الذي يمكن ان يقوم به ، الاتحاد السوفيتي » في عملية البحث عن حل ، مهما كان الاسلوب الـــذي تفرضه الظروف ومضمون هـذا الحـل ٠

ومن الانصاف ـ للحقيقة على الاقل ـ ان اقول منذ البداية ان الاتحـــاد السوفيتي لم يكن هو الذي قام بتحويل دوره في الموقف التفاوضي العربـي الى لغز محير ، وانما قمنا نحن ، او قـام بعضنا بهذه العملية ٠ ويبدو لي انه كان هناك عجز كامل عن توظيف « الدور السوفيتي » فيما كان يجب ان يوظف فيه لخدمة عملية البحث عن حل ،وكان المخرج السهل لهذا العجز هو الاستغناء عن الدور السوفيتي اساسا والقائه في البحر ٠ وهذا ما فعلناه او حاولناه ، ناسين حقائق التاريخ والجغرافيا وما يترتب عليهما من معطيات سياسيـــة لا تسمح لنا بذلك ، حتى اذا اردناه ، وان كنت لا اعرف لماذا كان يحـق لنـا ان نريده ! ؟

ولعلى اسمح لنفسي ان اتحدث بهذه الصراحة لانني لا اشعـر باية حساسية، فلا انا شيوعي ، ولا انا مربوط مع الاتحاد السوفيتي بصداقة خاصة ، بـــل اظنني كنت واحدا من الذين انتقدوا موقف الاتحاد السوفيتي مناحينما كانت للاتحاد السوفيتي حصانة مقدسة في مصر خصوصا في الفترة التي تلـــت رحيل جمال عبد الناصر والى منتصف سنة ١٩٧٢.ولقد لامني غيري ـ وقتهاـ على هذا النقد الذي وجهته الى « الصديق الدولي الوحيد الذي نعتمد عليه ». وكنت اعترض دومـا على وصف « الصديق الوحيد » ، وكان رايي ان الطرف الذي لا يجد لنفسه في هذا العالم غير « صديق وحيد » هو طرف فـــرض العزلة على نفسه . وبالتالي فهي الملوم عن وحدته ؟

□

ولقد اعبر بسرعة على الحقائق الجغرافية والتاريخية ، وبالتالي السياسية.

التي تفرض وجود سوفيتي في ازمة الشرق الاوسط ـ وذلك لمجرد التذكير بها :

١ ـ ان الاتحاد السوفيتي متاخم للشرق الاوسط جغرافيا ، وهكذا فهو لا يستطيع الا ان يهتم بما يجري في المنطقة الواقعة وراء ظهره مباشرة، والاتحاد السوفيتي لا يحتاج الى اذن منا لهذا الاهتمام ، فهو قوة كبرى تملك ان تمارس اهتماماتها بالطريقة التي تحقق مصالحها وامنها ٠

٢ ـ ان الاتحاد السوفيتي قوة من القوتين الاعظم في هذا العالم وهذا العصر ، وهو والولايات المتحدة هما اساس النظام الدولي القائم ومصدر حركته سواء بالشقاق او بالوفاق ٠ وساحة هذه الحركة هي الكرة الارضية كلها وفضاؤها الخارجي ايضا ، ومن هنا فانهما الطرفان الوحيدان في هذا العالم والعصر اللذان يملك كل منهما سياسة تشمل القارات والمحيطات كلهابغير استثناء ، بما في ذلك بالطبع منطقة الشرق الاوسط ، والبحار التي تتلاطم فيها الامواج حولها ، وهي البحر الابيض والبحر الاحمر والمحيط الهندي ٠ بل لعل منطقة الشرق الاوسط بالذات ـ ارضها وبحرها ـ من اهم ساحات الحركة بين العملاقين ، وذلك بسبب موقعها ومواردها والتفاعلات الساخنة التي تجري على مواقعها ٠

٣ـ ان الحركة القومية العربية ـ الثورية وغير الثورية ـ استعانت بالاتحاد السوفيتي لمواجهة الاستعمار التقليدي والاستعمار الجديد ونجحت في ذلك ، كما انها استعانت بالاتحاد السوفيتي لمواجهة اوضاع التخلف الاقتصادي والاجتماعي ، واظنها نجحت ايضا ٠ والدليل على ذلك ان السلاح المؤثر في ايدي العرب ما زال حتى الان ـ وسيظل الى زمن طويل ـ سلاحا سوفيتيا ، ثم ان اكبر شواهد التقدم الاقتصادي والاجتماعي على الارض العربية هي مما حققه التعاون العربي السوفيتي ، والسد العالي في مصر وسد الفرات في سوريا صروح لهذه الحقيقة ورموز ٠

٤ ـ ان الاتحاد السوفياتي كان هو القوة العظمى التي وقفت الى جانب العرب مبدئيا ، ازاء وقوف القوة العظمى الثانية وهي الولايات المتحدة الى جانب اسرائيل عمليا ٠

ولقد كان قصارى ما وجهناه من نقد للاتحاد السوفيتي ـ وهو صحيح ـ انه اعطى تاييده لنا في حدود ، في حين ان التاييد الامريكي لاسرائيل كان تاييدا غير محدود ، ولكن يبقى ـ وهذا ما لا ينبغي نسيانه ـ ان الذي يعطينا ولو في حدود افضل بالنسبة لنا الف مرة من الذي يعطي لعدونا عطاء غير محدود !

٥ ـ ان الاتحاد السوفيتي كان ـ وسيظل ـ اهم مصادر السلاح بالنسبة

للعرب في صراعهم مـع اسرائيل ، وليس في علمي ان الولايـات المتحـدة يمكن ان تبيع لنا سلاحا نستطيع به مواجهة اسرائيـل ، وليس في علمـي ايضا ان اوروبا الغربية تستطيع ان تعوضنا عما يمكن ان نحصل عليه مـن احدى القوتين الاعظم ، بل ان اوروبا الغربية نفسها اول من يقـول بذلـك.
وفي النهاية فان الارقام ترد بحزم على اية اوهام . فان فرنسا تحتاج الـى عشر سنوات لكي تنتج اعداد الطائرات التـي خسرها الاطراف في حـرب اكتوبرمثلا · وفي حين ان فرنسا لم تستطع ان تسلم لاحدى الدول العربيـة اكثر من اربع طائرات من طراز « ميراج » سنة ١٩٧٤ ، فـان الاتحـاد السوفيتي سلم لنفس هذه الدولة العربية اربعين طائرة من طراز « ميج ـ ٢٣ » فـي شهر واحـد من تلك السنة ١٩٧٤ ·

٦ـ ان طبيعة الصراعات الحديثة تستوجب حصول اي طرف من الاطراف في صراع محلي على تاييد احدى القوتين الاعظم لمواجهة لحظـات حرجـة عسكرية او سياسية ·

والشاهد على ذلك هو الجسر الجوي الذي اقامته الولايات المتحـدة الامريكية لنجدة اسرائيل اثناء حرب اكتوبر ··· والشاهد الاخـر هو الجسر الجوي الذي اقامه الاتحاد السوفيتي لنجدة مصر وسوريا في نفس تلك الحرب·

ثم يضاف الى ذلك انذار الاتحاد السوفيتي لامريكا واسرائيـل يـوم ٢٤ اكتوبر ١٩٧٣ ، وهو انذار كانت له قيمته في ظروفه ، وليس لاحـد ان يقلل من تاثيره وفاعليتـه ·

٧ ـ ان اي صراع محلي يعزل نفسه عن حركة العملاقين يتحول في الواقـع الى بركان لا يخيف احدا ولا يستثير اهتمامه ، والازمات الساخنة في هـذا العالم والعصر هي الازمات التي تستوجب اهتمام احـد العملاقين لانهـا تستوجب اهتمام نظيره ومنافسه ، وباختصار فان الصراعـات المعزولـة عن حركة المواجهة بين العملاقين ماسي ، واما الصراعات القريبـة من هـذه الحركة فهي وحدها الازمات الساخنة لانها تلمس موازين الرعب النـووي عند القمة الدوليـة ·

(وقد شرحت هذه النقطة بالتفصيل في حديث سابق قريب ، ولهـذا فانى اكتفي بمجرد الاشارة اليها بغير استفاضة في تفاصيلها) ·

٨ـ وربما اضفت الى هذه الاسباب كلها سببا اخـر يتصل بمبـادىء الاخلاق بعد كل ما ذكرت من اسباب تتصل بحقائق السياسـة ·
اننا نعتبر اكتوبر سنة ١٩٧٣ نقطة تحول بارزة في الصراع العربي الاسرائيلي ··· وهذا صحيح ·

وربما لم ننس بعد ان كل ماحققناه في اكتوبر ـ عسكريا ـ وخصوصـا

في الايام الاولى على الجبهة المصرية وعلى الجبهة السورية ـ انما تحقق بسلاح سوفيتي ٠

كانت هناك شجاعة رجالنا وعلمهم وكفاءتهم ٠

ولكن كانت هناك بعد ذلك مباشرة اسلحة حصلنا عليها من الاتحاد السوفيتي . ولم يكن في مقدورنا ان نحصل عليها من غيره ٠

وليس منطقيا ان نقول للاتحاد السوفيتي:

لقد استعملناكم في خيار الحرب ٠٠٠ واستبعدناكم في خيار السلام !

بل اني لا اعرف اذا كان ذلك صوابا حتى من ناحية حقائق السياسة ـ فضلا عن مبادىء الاخلاق ـ خصوصا اذا كان صراعنا مستمرا . وليس هنالك سلام في الافق !٠

□

مرة اخرى فلا بد ان اكون منصفا لاقول ان الاطراف العربية لا تتحمل وحدها تبعة ما وصلت اليه العلاقات العربية السوفيتية ـ لان الاتحاد السوفيتي ساهم بنفسه في نصيب مما جرى ، فلقد اخطأ في فهم حركة القومية العربية ، ثم انه اخطأ في فهم تعقيدات الصراع العربي الاسرائيلي وضروراته الملحة ٠ ولقد طرأت على مجرى العلاقات العربية السوفيتية مشاكل . ولكن الاحساس بضرورة الفهم المشترك ، والاحساس بالاحتياج المتبادل ـ تغلب في النهاية وساد وفتح الطريق لتعاون مفيد مثمر بالنسبة للطرفين

وكانت هناك مشكلة سنة ١٩٦٧ بسبب مفاجاة معركة سنة ١٩٦٧ ونتائجها ٠٠٠

وكانت هناك مشكلة سنة ١٩٧٢ بسبب قرار طرد الخبراء السوفيات من مصر ٠٠٠

ولكن هذه المشاكل كلها امكن تجاوزها ٠٠٠ وصحيح انها تركت ما يشبه اثار الجروح الملتئمة على وجه العلاقات العربية السوفيتية ـ الا ان اي كيان يمكن ان يبقى سليما وصحيحا بعد ان تلتئم جراحا اصابته في ظرف من الظروف ٠

وهكذا كانت العلاقات العربية السوفيتية سليمة صحيحة في اكتوبر سنة ١٩٧٣٠

وخرجنا من تلك المعركة ونحن نشعر بعرفان كبير للاتحاد السوفيتي . وكان قولنا المأثور « ان الاتحاد السوفيتي وقف معنا كما يقف الصديق » ٠

ولم نكد تمضي اسابيع حتى بدا الجو يتغير ٠٠٠ ثم بدأت الغيوم تزحف داكنة كثيفة . تكاد تحجب ضوء الشمس وحرارتها ٠

واثيرت في البداية مشكلة التعويض عن الاسلحة التي خسرناها في اكتوبر٠

ثم اثيرت بعد ذلك مشكلة رغبتنا في اعادة جدولة ديون علينا للاتحاد السوفيتي ٠

واعترف ان هاتين المشكلتين كان يمكن ـ او على الاقل كان يجب معالجتهما بطريقة اخرى تختلف عما حدث فعلا ٠

● في مشكلة التعويض عن الاسلحة ، فلعلي اقول ان طرحها على هذا النحو ، وعلى انها مشكلة تعويض او استعواض ـ كما يقولون ـ هو تصوير لها يفترض ان الاتحاد السوفيتي ملزم بتعويض خسائرنا ٠ ولا اعرف ان الاتحاد السوفيتي يقوم بالنسبة لنا بدور الكفيل او ولي الامر حتى يكون من واجبه تعويضنا ٠

كان لنا ان نطلب شراء اسلحة جديدة من الاتحاد السوفيتي ٠٠٠ ولكن لم يكن لنا ان نعتبر الاتحاد السوفيتي مسئولا عن تعويضنا بمثل مسئولية امريكا عن تعويض اسرائيل ، فنوع وجوهر العلاقات الاسرائيلية الامريكية يختلف عن نوع وجوهر العلاقات العربية السوفيتية ٠

وكان لا بد لنا ان ندرك ان قرار دولة عظمى ببيع سلاح لدولة اخرى هو قرار سياسي ، وليس مجرد تبادل تجاري ٠

ولقد حدث اننا رحنا نطلب اسلحة سوفيتية في الوقت الذي تصورنا فيه ان حل ازمة الشرق الاوسط لا يمكن الا ان يكون امريكيا ٠

اي اننا ذهبنا الى امريكا وحدها في مجال السياسة ، وفرضنا في نفس الوقت على الاتحاد السوفيتي ان يقوم وحده بدور مورد السلاح ٠

وكن ذلك خطأ في الطرح يفصل بين السلاح والدبلوماسية ، وينسى حقيقة انهما معا وجهان من اوجه صراعات القوة ٠

وربما احس الاتحاد السوفيتي من ذلك اننا نضعه في غير موضعه الصحيح ٠

●وفي مشكلة اعادة جدولة الديون ، فلقد وجد الاتحاد السوفيتي ان الاموال تنهمر علينا من كل ناحية ـ او هكذا على الاقل صورنا لانفسنا وللاخرين ٠

ورحنا نتصرف بمظهر الوارث الجديد ٠٠٠ ولكنه وارث لا يريد ان يدفع

ديونه القديمة ، او حتى جزءا منها ، ومع ذلك فهو يبعثر ذات اليمين وذات الشمال على نزوة طارئـــة ٠

واظن ان كوسيجين رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي قالها بصراحة ذات يوم لوفد مصري زائـــــر :

ـ ادفعوا شيئا ولو صغيرا مما عليكم ، ولو لمجرد تحريك حجم الدين٠

انكم تدفعون ثمن ما تحصلون عليه من الغرب نقدا ومقدمـا ٠٠٠ وامـــا فيما يتعلق بنا فانكم دائما تسبقون بالاعذار تبريرا لعدم الدفع » !

والى جانب ذلك فقد كان هناك احساس بالمرارة في الاتحاد السوفيتي من الطريقة التي جرت بها التصرف في فوائض اموال البترول العربـي ٠
في فترة قصيرة بلغ حجم الاستثمارات والودائع العربية في السوق الغربيـــة عموما ما يزيد على خمسين الف مليون دولار ٠

ولم يذهب دولارعربي واحد على شكل استثمار او وديعة في الاتحـــاد السوفيتـي او مجموعة الدول الموالية لـه ٠

وعلى كل حال فان مسالة الديون ـ كمسالة السلاح ـ كانت في صميمهـــا مسالة سياسية تاثرت هي الاخرى باحساس الاتحاد السوفيتي انه عومـــل بالاهمال بعد حرب اكتوبر ، في حين اتجه الاهتمام كله الى الولايات المتحدة٠

وكان ضيق الاتحاد السوفيتي على اشده وهو يتابع رحلات « هنري كيسنجر» بين القدس واسوان في بداية سنة ١٩٧٤ ، وكان في ظلام كامل بالنسبة لمــا يجري ، ولم يكتم شكواه . وعندما حاولنا تهدئة مخاوفه فعلنا ذلك باقل ممايجب وبابطأ مما يجب ، وكان غيرنا قد سبقنا الى اخطاره ٠ وقال اندريه غروميكو وزير الخارجية السوفيتية يوما لسفير لنا كان ينقل اليه رسالة عن تفاصيـل ما يجري ٠٠٠ قال بمرارة :

ـ ان الصحف تحوي معلومات اكثر مما تقول لي ياسيدي السفير ٠٠٠ ثم ان الامريكيين اخطرونا بتفاصيل ادق واوفـى مـــما تنقله الينـا الان !
ثم طلبنا الى الاتحاد السوفيتي ان يحضر احتفالات جنيف للتوقيع عـلى اتفاقيات لم يشترك في صنعها ، ولا حتى بمجرد ابداء الراي ٠٠٠ وحضر ووضع توقيعه ، وظهر في الصور ، ولكنه كتب يرجو ويلح في الرجـــاء « انلا يتعرض لمثل هذا الموقف مستقبلا ، خصوصا وانه كان يمكن الحصول علـــى نتائج افضل مما تم الحصول عليه لو ان الامور سارت على نحو اخــر »٠

وكان يمكن حتى هذه اللحظة تدارك الموقف ٠

ولكنالغيوم الزاحفة تحولت الى عواصف ٠

وبدات في المنطقة ظواهر حرب صليبية ضد الاتحـــاد السوفيتـــــي ٠٠٠ والشيوعية الدولية الـــي اخـــره !

□

كانت المأساة في هذه الحرب الصليبية ضد الاتحاد السوفيتي والشيوعـية الدولية الى اخره ـ ومهما كانت اسبابها ودواعيهـا ـ انها ليست الحـــــرب الحتمية المفروضة على الامة العربية ، لان الحرب الحقيقية لهذه الامة ـ في هذه المرحلة على الاقل ـ ليست ضد الاتحاد السوفيتي وانما ضد اسرائيل، وليسـت ضد الشيوعية الدولية وانما ضد الصهيونية العالمية ٠

كان يضاعف من مأساة هذه الحرب غـير الضرورية عدد من الاسبـاب :

١ ـ ان المعركة اكبر من طاقتنا ، وهي بالدرجة الاولى معركة الولايات المتحدة والغرب الراسمالي عموما ، قبل ان تكون معركتنا نحن ٠

٢ ـ اننا لا نستطيـع اخراج الاتحاد السوفيتي من الشرق الاوسط لانه موجود فيه بحقائق الجغرافيا والتاريخ ٠٠٠ وباوضـاع القوة المتوفرة لديه كاحـــــدى القوتين الاعظم ٠

٣ ـ ثم اي مصلحة لنا في اخراج الاتحاد السوفيتي من المنطقة لكي نجــد انفسنا وجها لوجه وعلى انفراد فيها بالولايات المتحدة واسرائيل ؟

٤ ـ ثم كيف نتصور حلا متوازنا لازمة الشرق الاوسط اذا استبعدنا ازمتـه عن حركة الموازين الدولية ؟

٥ ـ والغريب ان الولايات المتحدة الامريكية نفسها لا تتصور امكان انفرادها بحل ازمة الشرق الاوسط ، ومع ان ما يجري للاتحاد السوفيتي في المنطقة الان يرضي غرائزها الا ان حقائق القوة تفرض نفسها حتى على الغرائز ، وكان اول ما فعله « سيروس فانس » مثلا بعد عودته من المنطقة الى واشنطن انه دعـــا السفير السوفيتي هناك الى مقابلته لكي يحيطــه علما بتفاصيل مهمتـه فـــي المنطقـــة ونتائجها !

وكان تعليق السوفيت على ذلك قولهم :

ـ اليس غريبا ان نعرف من الامريكيين ، ولا نعرف من العرب ٠٠٠ اليـــس غريبا ان نعرف من خصومنا الذين تصدينا لهم بسبب العرب ضمن اسباب اخرى ولا نعرف من اصدقاء لنا وقفنا الى جوارهم في المحن والمصائب » ؟!

ويستطرد السوفيت :

ـ اننا سوف ننتظر ونلعب لعبة الصبر ونرى ما تجيء به الظروف ٠

نحن نستطيع لعبة الصبر ··· وغيرنا لا يستطيعها » !

لكن الامور ليست بهذه البساطة ، ومهما كانت القدرة على لعبة الصبر ، فان الاتحاد السوفيتي لا يستطيع ان يتجاهل حقيقة المأزق الذي وقع فيه ··· والذي وجد بعده ان استثماراته في المنطقة مكشوفة وهو لا يستطيع التخلي عنها ،ثم ان وضعه العالمي يجري تجاهله ، وهو لا يستطيع قبول هذا التجاهل ·

وفي وسط هذا المأزق تتخبط سياسة الاتحاد السوفيتي وتبدو عليه الحيـــرة الكاملـــة ·

في يوم من الايـام يكون قوله :

ـ اننا لا نستطيع قبول دور في حل ازمة الشرق الاوسط كمنحة من الولايـــات المتحدة ، ومثل ذلك وضع نرفض قبوله ، واشرف منه ان نبتعد » ؟

وفي يوم آخر يكون قوله :

ـ الا ترون ان الولايات المتحدة سوف تجيء الينا لتستكمل حصاركمبالاتفاق معنا على تحديد تصدير السلاح الى المنطقة ··· هذا ما تريده امريكا ، فهل هو ما يريده العرب ؟! »

وفي يوم ثالث يبعث الاتحاد السوفيتي الى المنطقة بعثة كتلك التي جاءتهاخيرا برئاسة » ميخائيل سيتيانكو » رئيس قسم الشرق الاوسط في وزارة الخارجية السوفيتيـــة ·

وتعكس هذه البعثة حيرة الاتحاد السوفيتي اكثر مما تعكس اي شي آخر ·

فـ » سيتيانكو » الى جانب كونه رئيس قسم الشرق الاوســـــط في وزارة الخارجية ـ عضو في مجلس رئاسة هذه الوزارة ، اي انه اكبر من مجرد سفير بيروقراطي ، واقل من ان يكون سياسيا مفوضا ·

ويجيء » سيتيانكو » ليبحث احتمالات مؤتمر جنيف لان الاتحاد السوفيتـــي لا يستطيع حتى الان ان يتقبل فكرة استبعاده من محاولات الحل ، وفي نفـــس الوقت يعرف ان امريكا لا تمانع في استبعاده اذا كانت تستطيع القول بـــان استبعاده ليس بناء على رغبتها ، وانما بناء على رغبة الاطراف المعنية فـــي العالم العربـــي ·

□

ومع الحيرة تدور اجهزة التحليل والتخريج في اللجنة المركزية في موسكـــو حيث المصنع الحقيقي لصنع السياسات وتقرير الاتجاهات !

واتذكر انني لقيت اخيرا سوفيتيا بارزا وعليما بدخائل الامور ومكنوناتها ·

وسألته : كيف ترى الامور ؟

وكان رده : الصورة واضحة !

وقلت : هل اضايقك لو قلت لك انني لا اراها بهذا الوضوح ؟

قال : اسمع تحليلي للنهاية ،وقل لي رأيك فيه ؟

قلت : كلي اذان تسمعك !

وبدأ يتكلم دون ان اقاطعه ٠

قال :

ـ لنتصور انه كانت هناك عناصر معادية للتقدم الاجتماعي بسبب طبيعتها البورجوازية وبسبب ارتباطاتها الداخلية والخارجية ، ولنتصور ان هذه العناصر وصلت الى مواقع مؤثرة في العالم العربي ، وجاءتها فرصة حرب اكتوبر على طبق من فضة هدية من السماء اعتقدت معها ان الدنيا دانت لها ، ولم يعد هناك عائق يمنعها من ان تكشف وجهها الحقيقي ، وفي غيبة قوى تقدمية منظمة تمكنت هذه العناصر مما تريد ٠

في هذا الاطار بدات الحملة على الاتحاد السوفيتي وعلى القوى التقدمية العربية ، وكان الهدف اخراج الاتحاد السوفيتي وتصفية كل المواقع الثورية ٠

لكن الصراع العربي الاسرائيلي وحقائقه اثبتت ان جذوره اعمق مما يتصور البعض ، لانه تداخل مع المشكلة الاقتصادية الاجتماعية في المنطقة ٠

وهكذا وصلت الامور الى طريق يبدو وكانه مسدود ٠

ولكن الولايات المتحدة لا تتوقف عن المحاولة ، وهي تعتقد انها امام فرصة العمر هذه السنة بالذات ، وهي تشعر بمازق ارتباطها الاستراتيجي باسرائيل، ومصلحتها التاكتيكية ـ وربما الاستراتيجية ـ ازاء عناصر معينة في العالم العربي اليوم ٠٠٠ لكنها مصرة على المحاولة ٠

لماذا ؟

لثلاثة اسباب :

- هناك نظم مستعدة لان توقع ٠
- المقاومة الفلسطينية ضعفت ٠
- الاستثمار السياسي الامريكي في المنطقة واسع ، ولا بد من المحافظة عليه٠

سوف يحاولون هذه السنة بكل جهد ، وربما نجحوا ، ولكنهم اذا لم ينجحوا فان الفرصة ستضيع ٠

انني شخصيا لا اعرف لماذا ينجحون هذا العام فيما لم ينجحوا فيه في العام الماضي ، لكنهم على اي حال سوف يحاولون ، وسوف يحاولون بكل ضراوة

وعنـــف ٠

ان الحملة ضد الاتحاد السوفيتي لن تتوقف وانما سوف تشتد ، وكذلـــك الحملة ضد القوى الوطنية والتقدمية ٠

لكن الاوضاع قد تختلف في السنة القادمة ٠٠٠! »

وسكت ، وسالني : ما هو رأيك ؟

قلت :

ـمشكلتكم احيانا انكم تبالغون في دور المؤامرة في التاريخ ٠٠٠

التاريخ ليس موجة ركبتها عناصر معادية للتقدم . انما التاريخ بحر ارحب من ذلك واعمق ٠

ولو سمعت رايي لقلت لك :

ـ دعنا من كل هذه التحليلات والتخريجات ٠٠٠ لكم في هذه المنطقـــة دور تحرصون عليه ـ لمصالحكم ـ ويحرص عليه هنا كثيرون ٠

ونحن نريد هذا الدور لاسباب عديدة وكثيرة ، اولها الان واكثرها الحاحــا اهميته في بناء « موقف تفاوضي عربي » سليم ومقتدر ٠

انت في حديثك عن نظرية المؤامرة قلت « انهم يحاولون » ، وربما كانـــوا يحاولون فعلا ، ولكنكم تكتفون الان بموقف المتفرج ٠٠٠ لماذا لا تحاولون انتـم ايضا ٠٠٠؟

حاولوا ان تفهموا باكثر مما فهمتم ، وحاولوا ان تتصوروا ما هو اجدى وانفع من تحويل التاريخ الى مؤامرة ٠

قال بحيرة :

ـ كيف السبيل ٠٠٠ وماذا نصنع ؟

قلـت :

ـ سالتني عن بيضة الديك ، وردي انني لا اعرف مكانها ، ولكن قوة عظمـي في مثل موقفكم لا تملك ـ ولا يليق بها ـ ان تقف موقف المتفرج العاجز في منطقة على هذه الدرجة من الخطورة والحساسية ٠

تقدموا الى منتصف الطريق ٠٠٠ وانسوا كل شيء حتى الكبرياء الجريحة ، واستجيبوا ولو من باب المبالغة في حسن النية الى كل الطلبات العربية من السلاح بدون سلاح ليست هناك مفاوضات تدعون اليها او تستبعدون منها ٠

هل انا واضح ؟

وقـــال :

ـ احـاول ان افهمك ٠٠٠

الحديث السادس عشر

من بين الاسباب التي كانت تدعوني الى الاعتقاد بان « مرحلة التفاوض » لحل ازمة الشرق الاوسط لم يجيء وقتها بعد ـ ان « الموقـــف التفاوضـــي الاسرائيلي» ما زال في مرحلة التشكيل، ولم يستكمل حتى الان مقوماته اللازمة٠

وكان رايي ان اسرائيل لن تقترب من « جنيف »بطريقة جادة الا بعد ان تطمئن ـ وتراجع اكثر من مرة ـ على سلامة موقفها التفاوضي من وجهة نظرها ٠

ولكن ذلك لا يعني ان « الموقف التفاوضي العربي » و « الموقف التفاوضـــي الاسرائيلي » اصبحا سواء بسواء من حيث نقص الاستعداد ونقص الكفـاءة ـ والحقيقة ان هناك فوارق شاسعة بين الموقفين ، وان بدا على السطح تشابـــه ظاهـــري ٠

واول الفوارق الشاسعة ان الطرف «الاسرائيلي يعرف ان موقفـه التفاوضـــي يحتاج الى اضافات كثيرة ، وبالتالي فهو لا يلح ولا يتلهف ولا يتعجل الذهـاب الى جنيف ـ وذلك في حين ان الطرف العربي لا يعرف فيما يبدو حقائق موقفه، والا ففيم الالحاح واللهفة والعجلة ؟!

وثاني الفوارق الشاسعة ان الطرف الاسرائيلي يواصل بالفعل عملية تحسين موقفه التفاوضي وهو يقوم بجهد منظم في هذا الصدد ، في حين ان الطـــرف العربي مستغرق في شواغل اخرى ٠

وثالث الفوارق الشاسعة ان الطرف الاسرائيلي لديه فيما يبدو توقيت يعمـل في نطاقه ، في حين ان الطرف العربي منح نفسه حق التحرر من قيود الزمان٠

□

واذا صح ما اتصوره ـ فاني اظن ان اسرائيل لن تكون جاهـــــزة بموقـف تفاوضي ملائم من وجهة نظرها قبل السنة القادمة ١٩٧٨ ـ ربيع هذه السنة او ربمـا صيفهـا ٠٠

واشرح الاسباب التي تدعوني الى هذا الظن :

١ ــ لقد كان اسوا ظرف مر به الموقف التفاوضي الاسرائيلي هو الفترة التي تلت حرب اكتوبر مباشرة . اي الفترة التي جرت فيها مفاوضات فك الاشتبـــاك الاول ·

كانت الايام الخمسة الاولى من الحرب صدمة عسكرية لاسرائيل ·

وسببت هذه الصدمة العسكرية هزة سياسية عنيفة ·

وكان الجيش الاسرائيلي مشدودا للاخر على خطوط طويلة ·

وكان الاقتصاد الاسرائيلي يئن تحت عبء حالة التعبئة العامة ، ويكاد ظهره ينقصـــم ·

وكان الشعب الاسرائيلي في قلق مستبد ·
وكان مشهد القوة الذاتية العربية العسكرية والسياسية والاقتصادية قداحدث اثرا في العالم كله اقرب الى العرب وابعد عن اسرائيل ·

كانت تلك هي الفرصة التي كان حيويا بالنسبة للعرب ان يصروا فيها على حل شامل ، حتى وان جرى تنفيذه على مراحل محدودة بجدول زمني مقرر ·
ولم يصر العرب ··· وكانت اسرائيل تخشى ان يصروا ، وكان كيسنجـــــر ايضا يخشى ان يصروا . وقد صارح الاسرائيليين بمخاوفه في مشهد مثير يوم ١٦ ديسمبر ١٩٧٣ ·

ان الصحفي الاسرائيلي الشهير « ماتي جولان » وصف هذا المشهد في كتابه « اسرار محادثات هنري كيسنجر اثناء دبلوماسية الخطوة خطوة في الشـــــرق الاوسط » ، وهو كتاب حاولت السلطات الاسرائيلية مصادرته اكثر مـن مرة ، ولكنه ظهر اخيرا وطبعته دار « كوادرانجل » التي تملكها جريدة « نيويـــورك تيمس » ·

في صفحة ١٥٢ و ١٥٣ من هذا الكتاب يصف « ماتي جولان » هذا المشهـد المثير على النحو التالي بالحرف الواحد :

« كانت العصبية تسود هذا الاجتماع عندما بدا هنري كيسنجر ياخذ سمتـــه القديمة وكانه استاذ في جامعة هارفارد . وراح يحاضر الوزراء الاسرائيليين وبينهم جولدا مائير ــ عن استراتيجيته العامة ·

وشرح كيسنجر ان الهدف من محادثات فك الاشتباك هو تجنب الحاجة الـى البحث الان في امر الحدود والترتيبات النهائية · ثم ان نجاح المحادثات (لفك الاشتباك) يمكن ان يقود الى نجاح اخر في موضوع رفع الحظر البترولي ،وذلك سوف يخفف من عزلة اسرائيل . ويخفف الضغوط الموجهة اليها ، خصوصا من

اوروبا الغربية واليابان ·

واستطرد كيسنجر يقول :

ـ ليس من حق احد في اسرائيل ان يساوره ادنى شك في ان فشل محادثات فك الاشتباك سوف يفتح خزان الضغوط الهائلة على اسرائيل ـ ليس من اجل انسحاب جزئي ، ولكن هذه المرة من اجل انسحاب كامل الى خطوط ٤ يونيو ١٩٦٧ ·

ولكي يؤكد كيسنجر حجته فانه استطرد يقول للاسرائيليين انه في دهشة من تصرف « الزعماء العرب » لانهم حتى الان لا يستعملون كل قوتهم السياسية الناشئة عن الموقف الدولي الجديد ولا يدخلونها في حسابهم وهم يتفاوضون ·

ويستطرد كيسنجر قائلا انه فعلا يعتقد ان « الزعماء العرب » كان في وسعهم استعمال الموقف الدولي لتحقيق تسوية سلمية على شروطهم ، وكان اقصى ما يمكن ان يتعرضوا له هو مخاطرة تجدد القتال ، وهي مخاطرة كان العالم باسره سيقف فيها معهم ضد اسرائيل ·

ومضى كيسنجر يحلل الموقف ـ كما يراه ـ امام زعماء اسرائيل ، « لماذا اذن لم يستعمل الزعماء العرب هذا الموقف لكي يضغطوا من اجل انسحاب اسرائيلي كامل » ؟ ورد كيسنجر على نفسه بقوله : « ان الزعماء العرب وقعوا ضحية ضعف انساني ··· وهي سيكولوجية الساسة الذين يريدون ان يروا انفسهم ، وباسرع ما يمكن ، يركبون عربات مكشوفة في موكب نصر يخترق شوارع مدن عربية بينما الجماهير تحييهم » ·

ثم حدد كيسنجر رأيه بصورة اوضح ، فقال للوزراء الاسرائيليين « لقد كان امام الزعماء العرب خياران » :

الاول ان يحاولوا الوصول الى اتفاق بمساعدة الولايات المتحدة وفي جو مريح ، والثاني ان يحاولوا الوصول الى هدفهم بمعونة السوفيت والبريطانيين والفرنسيين واليابانيين وفي جو من التوتر العالمي يرغم الولايات المتحدة على جر خطاها راء الاخرين ···

ولكي يتخذ العرب هذا الخيار الثاني فانهم لم يكونوا حتى في حاجة الى الذهاب للحرب ·

كانت بضعة حوادث محلية تكفي ، الى جانب استمرار حظر البترول ! »

كانت هذه هي حقائق الموقف كما عبر عنها هنري كيسنجر في اجتماعه مع الوزراء الاسرائيليين ، وبينهم رئيستهم في ذلك الوقت جولدا مائير ·

كان الموقف التفاوضي الاسرائيلي في الحضيض ·

وكان الموقف التفاوضي العربي على القمة ا و بقربها .

وكانوا هم يعرفون ... واما نحن فان بعضنا لم يعرف (ولعلي اسمح لنفسي بغير ادعاء انني وقتها قلت وكتبت في مقالاتي ما لا يخرج عما كان يقولـــه كيسنجر في اسرائيل ، لكن احدا لم يصدق !)

٢ ـ بدأت اسرائيل منذ ذلك الوقت ، ووفقا لنصيحة كيسنجر وبمساعدته ، في تحسين موقفها التفاوضي . فتوصلت الى عدد من اتفاقيات فك الارتباط قصرت بها خطوطها المشدودة وتمكنت من فك التعبئة العامة ، وخففت الضغط الدولـي الموجه اليها ، ووقت نفسها خطر اي مفاجات عن طريق مناطق عازلة تحرسهـا قوات الامم المتحدة وعن طريق نقط انذار اليكترونية بعضها يتولى تشغيله خبراء امريكيون في سينـــاء .

ثم تحولت اسرائيل بعد ذلك الى الصورة العامة لموقفها التفاوضي تحـاول اعادة ترتيبه ، مدركة انه سوف يجيء يوم تضطر فيـــه للجلوس على مائـدة مفوضات وسوف تضطر عبرها الى الافصاح عن نواياها فيما يتعلق بالاراضي التي تحتلها .

٣ ـ لا اظن احدا يختلف معي في ان الجبهة الداخلية في اسرائيل كانت ولا تزال اضعف النقط في الموقف التفاوضي الاسرائيلي ، وبرغم كل الجهود التـي بذلت حتى الان لاعادة بناء هذه الجبهة او حتى لاعادة ترميمها ، فان هــذه الجبهة ما زالت تعاني حالة شرخ يصعب جبره .

ذلك ان الايام الخمسة الاولى من حرب اكتوبر كانت بمثابة رسالة الى المستقبل تشير الى حتمية تحرك موازين القوة الشاملة لصالح العرب ،وان الكم العربي قابل للتطور بصورة كافية ، وان اساطير التفوق الاسرائيلي بـات في الامكـــان تحديهـــا .

ان الازمات لاحقت ولا زالت تلاحق الجبهة الداخلية الاسرائيلية تمزقها وتكشف عورتها ، ولقد كان ابرز تعبير عن ذلك كله هو ازدياد تيار النزوح من اسرائيل وتناقص تيار الهجرة اليها ، وهذا هو دائما اصدق المعايير في قياس معنويـات اسرائيـــــل .

ويتصور بعض قادة اسرائيل ان الموقف سيتحسن بعد الانتخابات العامـــة القادمة ، وهو تصور لا يزيد عن كونه سؤالا مطروحا ينتظر الاجابة عليه بعـــد الانتخابات ، وان كان لا بد من اشارة هنا الى ان حكومــــــة اسرائيل حاولت استغلال التمزق في اسرائيل ، كورقة في موقفها التفاوضي ، تقول بمقتضاهـــا للاخرين :

ـ لا تضغطوا علينا من فضلكم ، فالراي العام منقسم ، وليست هناك حكومة تستطيع اتخاذ قرار ... فضلا عن ان يكون هذا القرار بتنازل من اي نوع فـي

الشكل او في المضمون » !

٤ ـ ولا أظن احدا يختلف معي في ان اعادة بناء القوة العسكرية كان هـو الميدان الذي حققت اسرائيل فيه اكبر نجاح في اعادة بناء موقفها التفاوضي ٠

ولقد ساعدتها على ذلك عدة عناصر :

العنصر الاول ـ هو حجم المساعدات العسكرية الامريكية ، وقد وصلت هـذه المساعدات منذ ظروف حرب اكتوبر الى قرابة عشرة الاف مليون دولار ، وقد تـم تجديد سلاح الطيران الاسرائيلي بالكامل ، وكذلك السلاح البحري ، الى جانـب اسلحة الحرب الاليكترونية ٠

العنصر الثاني ـ هو استفادة اسرائيل من دراسة حرب اكتوبر ، وقد قـام بهذه الدراسة الجنرال « موردخاي جور » رئيس هيئـة اركان حرب الجيـش الاسرائيلي الذي جددت مدة خدمته اخيرا بصورة استثنائية لكـي يستكمـل عملية بدأها لاعادة بناء الجيش الاسرائيلي على اساس الدروس المستفادةواهمها زيادة حجم القوة والاهتمام ببعض الاسلحة التي كان الظن انها دفاعية وليست هجومية ، كالمدفعية مثلا ، والتركيز على وجود مخزون كاف لحرب تستمر عنـد الذروة لمدة ثمانية اسابيع ٠

وعلى سبيل المثال ، فلقد دخلت اسرائيل حرب اكتوبر بـ ٣٥٠ طائرة فـي الصف الاول ، ولديها الان في الصف الاول ٥٦٠ طائرة ٠

ودخلت اسرائيل حرب اكتوبر بـ ١٧٠٠ دبابة ، ولديها الان ٢٦٠٠ دبابة ٠

ودخلت اسرائيل حرب اكتوبر بـ ٢٥٠٠ مدفع ، ولديها الان ٤٠٠٠ مدفع ٠

كما اعيد تنظيم الجيش الاسرائيلي في خمسين لواءا ، منها عشرون لـواءا مدرعـا ٠

العنصر الثالث ـ هو القفزة الهائلة في الصناعات الحربية الاسرائيليـة خصوصا صناعة الطائرات والصواريخ والقطع البحرية السريعة ٠ وكمثال فان تقريرا لاحد المراكز الاستراتيجية في الولايات المتحدة يقول ان اسرائيلستطيع في السنوات الثلاثة القادمة تصدير مائتي طائرة قاذفة مقاتلة من طراز « كفير» دون ان يؤثر ذلك في انتاجها لسد احتياجاتها الذاتية ٠

العنصر الرابع ـ وهو المقدرة النووية التي لم يعد احد يشك في توفرهـا لـدى اسرائيل ٠

٥ ـ ودعمت اسرائيل موقفها التفاوضي بعد ذلك بتقوية وتكثيف وتعميـق علاقاتها مع الولايات المتحدة الامريكية ، وربطتها باتفاقيات مكتوبة ، بينها ان لا تقوم الولايات المتحدة بتقديم مبادرة من اي نوع الا بالتنسيق مع اسرائيل ، وان

لا تعترف الولايات المتحدة ولا تتعامل باي شكل رسمي او غير رسمي مع منظمة التحرير الفلسطينية ٠

ولم تكتف اسرائيل بوضع القيود ، وانما ادركت ان شد الروابط مع الولايات المتحدة اهم من وضع القيود ، والغريب ان السياسات العربية بعد حرب اكتوبر ساعدت اسرائيل فيما ارادته ، ويكفي ان نعود الى تصريح للجنرال موردخاي جور رئيس هيئة اركان حرب الجيش الاسرائيلي ، وقد ادلى به في ندوة صحفية اقامتها جريدة « الجيروزاليم بوست » ونشرت ملخصا لها في عددها الصادر يوم الجمعة ١٤ يناير ١٩٧٧ ، وفي هذه الندوة قال الجنرال جور بالحرف :

« ان اسرائيل لا يجب ان تشعر بنفسها كشحاذ يتسول من الولايات المتحدة، ويتلقى احسانهـا ٠٠٠

ان الولايات المتحدة تساعد اسرائيل لان الولايات المتحدة استطاعت ان تحصل بواسطة اسرائيل على مركز لم يسبق لها ان وصلت اليه في العالم العربي ، وهو مركز تزيد فوائده كثيرا على تكاليفه ٠

ان العرب الان وصلوا الى حيث اصبحوا يعرفون جيدا انه اذا كانوا سيحصلون من اسرائيل على شيء فان عليهم ان يحاولوا فقط بواسطة المساعي الحميدة للولايات المتحدة ، وهذا الوضع اعطى للولايات المتحدة ميزة لا يمكن تقديرهـا ! »

٦ ـ على نفس المستوى مع تدعيم القوة العسكرية وتوثيق الروابط مع الولايات المتحدة ، فان الخطوة الرئيسية الكبرى التي اتخذتها اسرائيل فيمجال تدعيم موقفها التفاوضي ـ كانت محاولاتها الواسعة والدؤوبة لتغيير الواقع على الارض المحتلة ، وهكذا برزت فجأة على وجه الارض المحتلة في الضفة الغربية وغزة والقدس وسيناء والجولان عشرات المستعمرات ، الى جانب عدد من المدن والموانىء العسكرية كميناء « ياميت » الجديد في رفح المصرية ، او السياحية كما حدث من حول « شرم الشيخ » وفي خلجانهـا ٠

وتكاد مواقع هذه المستعمرات والمدن والموانىء ان تحدد الاجزاء التي تنوي اسرائيل ضمها . وقد لمح عدد من قادتها ، وبينهم « ديان » و « ايبان » الى تلك النية حينما قال الاثنان تقريبا بنفس الالفاظ :

ـ اذا كان هناك من يريد ان يعرف خريطة اسرائيل الجديدة فليدرس مواقع المستعمرات في الارض المحتلة ، وليرسم ما بنيناه من الخطوط ، وليستنتج كما يحلو لـه»٠

ومع ان العرب اثاروا موضوع ما يجري من تغيير طبيعة الارض المحتلة ، ثم انهم ضغطوا على غيرهم ليثير القضية مع اسرائيل ـ فانه من الواضح ان

اسرائيل لم تغير رايها ولم توقف خططها ·

وهدف اسرائيل بالطبع خلق حقائق واقعة على الارض ··· عمرانية وانسانية تصبح نقط ارتكاز عنيدة لموقفها التفاوضي ، فضلا عن اهداف التوسع في حد ذاته !

٧ ـ وفي سبيل تحسين « موقفها التفاوضي » راحت اسرائيل تحاول استعادة مواقع ضاعت منها في اوروبا وفي افريقيا وفي العالم كله على اتساعه ·

نشطت دبلوماسيتها مع دول اوروبا الغربية ، سواء على مستوى الحكومات او على مستوى العمل الشعبي ·

واذا لاحظنا بدقة اتجاه التحولات في دول مجموعة السوق الاوروبية وتحفظها الان على عملية « الحوار العربي الاوروبي » لوجدنا ظواهر ملفتة للنظر ··· فقد اجتمع وزراء خارجية السوق واعدوا مشروع بيان عن موقفهم السياسي، ثم انتهوا الى طي هذا البيان في الملفات وعدم اذاعته على الناس ، وفوق ذلك فقد اصدروا توجيها الى وفدهم في لقاء الحوار الذي عقد اخيرا في تونس بعدم الخوض في المسائل السياسية ، والتركيز على الجوانب الاقتصادية ·

واذا ادرنا البصر الى الصف الاول من الضيوف الذين حضروا مؤتمر حزب العمل الاسرائيلي اخيرا ممثلين لاحزاب الدولة الاشتراكية الثانية لكان ملفتا للنظر عدد النجوم البارزين من اوروبا على مقاعد الصف الاول ، ويكفي انه كان بينهم « ويلي برانت » زعيم الحزب الاشتراكي الالماني ، و « فرانسوا ميتران » زعيم الحزب الاشتراكي الفرنسي ، و « برونو كرايسكي » زعيم الحزب الاشتراكي النمسوي ·

كذلك تحركت اسرائيل في افريقيا ، وذهب رابين بنفسه ليقابل « هوفييه بوانييه » رئيس ساحل العاج ، وهو عميد الزعماء التقليديين في افريقيا ·

واعترف انني كنت انتظر بقلق نتائج اجتماعات القمة العربية ـ الافريقية ، واخشى ان تكون نتائجها اقل مما هو منتظر ··· لكن الصورة تحسنت بالتدخل الدرامي للسعودية ، وان كان يبقى على اى حال ان اسرائيل تواجه موقفا صعبا في القارة ، بصرف النظر عما نفعله ازاءها او تفعله ازاءنا ـ ذلك انها في القارة السوداء حليف للنظم العنصرية في جنوب افريقيا، وشريك جريمة واحدة وعقاب!

ولعلي اضيف الى ذلك ان اسرائيل ساعدت على توجيه حملة ضارية ضد صورة العربي الجديد في كل قارات العالم ··· صورة ترسمه غنيا متخما ··· سفيها ··· جلفا غريبا عن الحضارة ، لا تعنيه غير لذاته حتى وان مارسها على مشهد من حطام وركام بقية الدنيا !!

□

ان اي طرف من الاطراف يدعم «موقفه التفاوضي» ليس فقط باضافات يزيد

بها ارصدته ، ولكن ـ الى جانب ذلك ـ بعمليات خصم يقلل بها ارصدة الطرف الاخر ، وليس يعنيه في بلوغ هذه النتيجة ان يكون الخصم نتيجة لجهوده هو او نتيجة لسوء تصرف الطرف الاخر وتفريطه في ارصدته ••• لان المهم هـــو النتيجة •

ولقد راقبت اسرائيل ـ بسرور لا تخفيه ـ عمليات خصم او تخفيض طرأت على « الموقف التفاوضي العربي » ، واهمها ما يلي :

● راقبت سرائيل حروب العرب الاهلية ••• بالنار ••• او بالكلمات •

● راقبت اسرائيل تدهور العلاقات العربية السوفيتية ، وكان ذلك حلما مـن اكبر احلامهــا •

● راقبت اسرائيل انقطاع مورد السلاح السوفيتي عن العرب ، وكان ذلــك مطلبا من اعز مطالبهـا •

● راقبت اسرائيل ازمة المقاومة الفلسطينية ، وقد كان لها هنا اكثر مما كانت تريــد •

● راقبت اسرائيل ظواهر اختلال التوازن النفسيفي عدد من الجبهاتالعربية، وهو اختلال ساعدت عليه عوامل كثيرة اجتماعية واقتصادية وثقافية .

● ثم راقبت اسرائيل طريقة تصرف العرب في اهم اسلحتهم سلاح البترول وسلاح فوائض الاموال العربية •••

● ثم راقبت اسرائيل اخيرا ذلك الالحاح العربي من اجل عقد مؤتمر جنيف، والعجلة البادية فيه واللهفة •

راقبت اسرائيل ذلك كله ، واخذت علما به ، وادخلته في حسابات « موقفهـا التفاوضي » •

□

وقلت في بداية هذا الحديث ان اسرائيل لن تكون جاهزة بموقف تفاوضـي ملائم من وجهة نظرها قبل السنة القادمة ١٩٧٨ ـ ربيع هذه السنة القادمـة او ربمـا صيفهـا •

واشرح الان لمـاذا ؟

١ ـ تكون جبهتها الداخلية قد استعادت صلابتها بعد الانتخابات ، ولـو بحكومة ائتلافية متماسكة •

٢ ـ يكون استعدادها العسكري قد بلغ ذروته بتمام استيعاب كل ما حصلت

عليـــه ٠

٣ ـ تكون علاقاتها مع الولايات المتحدة والنظام الجديد فيها تحت رئاســـة كارتر قد تعززت اكثر وتوثقت ٠

٤ ـ تكون الحقائق الجديدة التي تزرعها على الارض المحتلـــة قـد ثبتت ورسخــت ٠

٥ ـ يكون الراي العام ـ خصوصا في اوروبا وافريقيا ـ قد صحح اتجاهـه ازاءهـــا ٠

٦ ـ تكون اسلحة الموقف التفاوضي العربي عند حد الاستهلاك الادنى ، سواء في ذلك اسلحة القتال ، او البترول ، او فوائض الاموال ٠

وعندها فقط تسمعنا اسرائيل نقول :

ـ نحن نصر على الذهاب الى جنيف فورا ٠٠٠،

ويكون ردهــا :

ـ تفضلوا الى جنيف !!

الحديث السابع عشر

ترددت كثيرا قبل أن اقترب من الحديث تفصيلا عن « الموقف التفاوضي العربي » ، ولكني اغالب ترددي اخيرا واقترب من الموضوع بحذر ورفق بعيدا الى اقصى ما استطيع عن اية حدود محرمة !

وربما استطعت ان اجمل ما اريد قوله عن « الموقف التفاوضي العربي » في عبارة واحدة مختصرة كما يلي :

ـ اذا كانت ضرورات بناء موقف تفاوضي تساوي بالضبط ضرورات بناء موقف قتالي ـ فان اوضاعنا الحقيقية الآن لا تبدو على نفس المستوى الذي كانت عليه عندما قبلنا خيار القتال في اكتوبر ١٩٧٣ !

□

وربما كان ذلك هو الموضع المناسب لابدي ملاحظة سريعة عن « اكتوبر » :
اريد أن اقول اننا أسرفنا كثيرا في استخدام اكتوبر واستغلاله فيما كان يجب ان نصون « اكتوبر » منه ·

اردنا تحويل « اكتوبر » الى عملة صالحة للتداول في كل سوق ··· قادرة على شراء كل شيء حتى مشاعر القلق الاجتماعي ··· وهذا خطأ ، فان زيادة المعروض من اي عملة مهما كانت قيمتها يؤدي في النهاية الى تخفيض قوتها ·

ثم اننا اردنا تحويل « اكتوبر » الى نوع من الغيبية السياسية ، فما ان يرتفع صوت بالتنبيه حتى تتسابق اصوات الى اسكاته بمقولة ان « الذين صنعوا اكتوبر قادرين على اعادته مرة اخرى » ، وليس ذلك صحيحا ، فان « اكتوبر » كان نتيجة علمية لعدد من العوامل تضافرت على تحقيقه :

● بينها قيادة جمال عبد الناصر لجبهة عربية جماهيرية واسعة اختارت الصمود رغم مرارة الهزيمة ، وحولت صمودها الى ارادة سياسية لم يستطع العدو احتلال اي جزء منها برغم احتلاله لاجزاء من الارض العربية ·

● وبينها جهد خارق في اعادة بناء القوات المسلحة المصرية وتدريبها وتسليحها واختبار ذلك كله بالنار والدم في معارك المدفعية وعمليات العبور المحدودة وحرب الاستنزاف طوال الفترة من ١٩٦٧ الى ١٩٧٠ ·

● وبينها تعاون وثيق مع الاتحاد السوفيتي كفل للجيوش العربية مصدرا من السلاح المتطور حصلت منه على جزء كبير مما كانت تريده ـ وان لم تحصل عليه كله ـ وكان هذا المصدر مفتوحا حتى بعد ان نشبت المعارك فياكتوبر ، وفي كل الاحوال فان الجيوش العربية حاربت من اول يوم في حرب اكتوبر الى اخر يوم بأسلحة هذا المصدر ·

● وبينها تصور سليم لنظرية الحرب المحدودة في عصرنا (رغم ان الذين نادوا بهذه النظرية وحاولوا شرحها لم يسلموا من اتهام البعض لهم بأنهم كانوا ضمن فلاسفة الهزيمة) ·

● وبينها منجزات جبارة تعاون فيها الجهد مع الفكر ، كما حدث في بناء حائط الصواريخ الذي كان هو الفيصل في عملية نجاح عبور قناة السويس ·

● وبينها محاولات اقامة جبهة شرقية تنسق خطط مصر وسوريا في العمل ضد العدو على جبهتين في وقت واحد ، وهي محاولة كللتها بالنجاح وقتها جهود الرئيسين أنور السادات وحافظ الاسد ·

● وبينها ـ وربما كان اهمها ـ الروح المعنوية العظيمة لدى الرجال والشباب من المقاتلين الذين اندفعوا على جسور العبور وعلى خطوط القتال في الجبهة المصرية والجبهة السورية ·

● وبينها ان العرب كانت لديهم أسلحة مشرعة مشهرة خارج ساحة القتال ، واهمها البترول وفوائض الاموال العربية ·

ولقد أضيفت الى هذه العوامل الاستراتيجية ـ عوامل أخرى تاكتيكية ملائمة :

● بينها صدور القرار بالقتال في الوقت الملائم (والفضل هنا لانور السادات وحافظ الاسد) ·

● ثم تاثير المفاجاة على العدو (وقد فشل العدو في توقي اثرها ، ليس بسبب نقص المعلومات ، وانما بسبب قصوره ، وربما غروره في تفسير المعلومات تفسيرا صحيحا وسليما) ·

● واخيرا اضطراره الى توزيع جهده بين جبهتين بدأتا العمل في نفس اللحظة (وقد حاول العدو ان يعطي أولوية للجبهة السورية بسبب قربها من قلب اسرائيل ، على ان يستدير بعد ذلك الى الجبهة المصرية) ·

ذلك كله ـ وربما كان هناك غيره ـ صنع « اكتوبر » علميا ، ولم يصنعه

السحر او ضروب المعجزات !

□

ولو اننا حاولنا ان نقيس بعضا من هذه العوامل كما كانت وقتها الى ما هي عليه اليوم لوجدنا ان الفوارق تدعو ـ في اقل القليل ـ الى كثير من القلق !

وأبدأ بالجبهات العربية الداخلية ·

ولا اظنني ابالغ اذا قلت أن الجبهات العربية كلها تعاني ازمة تصديق ، فلقد كانت الكلمات اكبر من النتائج ، بل ان النتائج كانت في كثير من الاحيان على عكس ما كان مأمولا ، فالقوى الاجتماعية التي تحملت أعباء الحرب لم تكن هي القوى التي عادت عليها نتائج الانتصار المحدود الذي تحقق · وفاقم من اثر ذلك ان هذه النتائج للنصر المحدود في حد ذاتها تاهت في سراديب المناورات الدولية ولم تعط كامل مردودها السياسي ·

ولقد ادى ذلك كله ـ اجتماعيا وسياسيا ـ الى خلل في التوازن النفسي ساد الجبهات العربية واستحكمت معه ازمة التصديق من ناحية النظم ، وازمة الشعور بالاحباط عند القواعد العريضة للجماهير العربية ·

وتفجرت تناقضات ـ وانفعالات ـ وصلت في بعض الاحيان الى حد الحرب الاهلية ، كما رأينا في لبنان ·

ثم حدث شيء مفزع كاغتيال الملك فيصل ـ مثلا ـ وهو بصرف النظر عن الجاني وما نزل به من عقاب حادث يحمل في طياته اشارات اجتماعية ·

ثم كانت وقائع يومي ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٧ في مصر ، وهي وقائع لا استطيع بسهولة ان اقبل نسبة المسئولية فيها الى « الشيوعيين » والى الشيوعية الدولية » وغير ذلك مما يقال · فلقد كان ما حدث في مصر هذين اليومين انفجارا شعبيا ، وليس يؤثر في هذا التقييم ان بعض العناصر استغلت الفرصة للقيام بحوادث تخريب لملاهي شارع الهرم أو نهب لاحد المجمعات الاستهلاكية ·

(وقد اعود فيما بعد بالتفصيل الى وقائع هذين اليومين وما تعنيه وتدل عليه ، ولكن ذلك ليس موضوعي اليوم أساسا) ·

□

واذا انتقلنا ثانيا الى قضية العمل العربي المشترك ، فلعلي لا اتجاوز حدي اذا قلت ان معظم ما نراه اليوم يدخل تحت بند طلاء السطح بألوان جديدة زاهية

دون محاولة حقيقية لتدعيم الاساس وتقويته ·

هناك دول عربية تنظر بشك الى كل ما يجري وتتباعد بنفسها عنه ، على حق احيانا ، واحيانا اخرى بمسلك الهروب من المسئولية ·

وهناك دول غنية بموارد البترول تشعر انها لا تطالب بشيء الا ان تدفع ، وهي تدفع احيانا دون ان تناقش ، وفي احيان اخرى تدفع اولا ثم تسأل : أين تصرف أموالها ؟·

وهي تتلقى ردودا مبهمة تحتمل كل تأويل ·· تتلقى احيانا ردودا يمكن تفسير كلماتها تفسيرا معقولا ، وفي احيان اخرى تواجه بالصمت عن اي جواب أو يجيئها الجواب على شكل لوم وعتاب من معنى « غيركم يجود بالدم ، وانتم تبخلون بالمال » !

وهناك دول على الهامش فقيرة وبعيدة تلح في طلب خير ينالها ، وهي تعرف انها معفاة من ضرائبه ، فهي موجودة في العدد العربي غائبة عن العدة العربية·

ثم هناك دول على خط المواجهة يبدو اختلافها احيانا ويبدو اتفاقها احيانا ، وقد ترسبت في علاقاتها ـ بظروف التجربة ـ شكوك ، وهي عند الاختلاف تتبادل القصف الاعلامي فيما بينها بمنتهى العنف والقسوة ، وهي عند الاتفاق تلجأ الى الاصباغ الملونة الزاهية تغطي بها الواجهة ، فلا يستطيع أحد أن يعرف على وجه القطع : هل تم فعلا اصلاح الشروخ ، أو أن الشروخ قائمة وانما غطتها الاصباغ الملونة الى حين ·

ولربما كان وضع القضية الفلسطينية اليوم هو التجسيد الحي لوضع قضية العمل العربي كله ·

ونحن نقول ـ وبحق ـ ان القضية الفلسطينية هي النقطة المركزية في العمل العربي كله ، فاذا كان حال القضية الفلسطينية ما نراه اليوم منها ـ اذن فاننا نستطيع تصور حال قضية العمل العربي

وليس هناك من يستطيع ان يجادل في ان الثورة الفلسطينية ـ وهي المسئول الطبيعي عن القضية الفلسطينية ـ تعيش الآن مأزقا من اصعب ما تعرضت له في تاريخها ·

فهي تحت حصار مادي ومعنوي ·

وهي مطالبة بما لا طاقة لها به ، واوله تعديل ميثاق منظمة التحرير الفلسطينية لكي ترفع منه اي عبارة يمكن ان تؤثر على اعصاب اسرائيل او حتى على مزاجها ، وهي مطالبة بأن تفعل ذلك دون أي ضمان الا مجرد وعد غامض بأن مثل ذلك اذا فعلته سوف يجعلها محل رضا وقبول !!

واصل – ثالثا – الى موضوع السلاح ، وهو موضوع لا يمكن تناوله الا في حدود ، ولعلي اكتفي فيه – من باب التمسك بهذه الحدود – بمجرد الاستشهاد بآخرين :

واستشهد على سبيل المثال بعبارة اصبحت ماثورة على لسان كل مسئول رسمي مصري ، وهي عبارة « ان الاتحاد السوفيتي لم يعوضنا عن خسائر حرب ١٩٧٣ » ٠

● واستشهد على سبيل المثال بقول رئيس وزراء فرنسا السابق « جاك شيراك» الذي قال « ان اوروبا الغربية لا تستطيع ان تكون بديلا لاحدى القوتين الاعظم في توريد السلاح للشرق الاوسط ٠٠٠ اوروبا الغربية تستطيع ان تملأ فراغات معينة ، ولكنها بالقطع ليست بديلا للولايات المتحدة الامريكية او للاتحاد السوفيتي » ٠

● واستشهد على سبيل المثال بتقرير « لوليام بيتشر » الذي كان مساعدا لوزير الدفاع في الولايات المتحدة والذي قال في تقريره : « ان وزارة الخارجية الامريكية أرسلت قبل رحلة « فانس » الاخيرة الى الشرق الاوسط ترجو من حكومات الدول التي سيزورها ان لا يفتح معه احد موضوعات مشتروات سلاح من امريكا » ٠

واضاف بيتشر في تقريره ان مصر كانت قد قدمت طلبات لشراء سلاح امريكي في العام الماضي ، وتقرر فعلا بيعها ست طائرات نقل جنود من طراز « سي – ١٣٠ » ، ولكن ضجة ثارت في الكونجرس وطلب الى الحكومة المصرية ان تمتنع عن طلب اي اسلحة من امريكا حتى تنتهي معركة انتخابات الرئاسة ٠

ثم قال بيتشر : ان المصادر المطلعة تذكر ان مصر تريد ان تشتري من الولايات المتحدة سربين من المقاتلات النفاثة طراز « ف – ٥ – اي » ، وما بين ١٨ الى ٢٤ طائرة نقل من طراز « سي – ١٣٠ » وكمية من صواريخ «ت ٠١٠ و» المضادة للدبابات ، ومجموعات من محركات الدبابات تصلح لتركب على الدبابات السوفيتية ، وعددا من قطع المدفعية ذاتية الحركة ، وطائرات هليوكوبتر، ومعدات اليكترونية للقياس المضاد ٠

● ثم استشهد – على سبيل المثال – بتصريح للملك حسين يحذر فيه « من ان موازين القوة العسكرية هي الآن في غير صالح العرب » ، وهذا التصريح يجمل في عبارة اخيرة وضعا تشير اليه كل الاقوال التي استشهدت بها قبل الاستشهاد بأقوال الملك حسين ٠٠ ذلك انه اذا كان الاتحاد السوفيتي لا يعوض، واذا كانت اوروبا الغربية لا تستطيع ، واذا كانت الولايات المتحدة غير مستعدة حتى للبحث – اذن فان تصريح الملك حسين يصبح نتيجة منطقية تفرض نفسها على اوضاع الشرق الاوسط !

واذا ما استطردت قليلا بعد هذه الاستشهادات الى مجموعة مـــن النقـــط المتصلة بموازين القوى العسكرية ـ فلنا ان نتساءل :

● اي نوع من المعارك يمكن ان يقع الآن في ظل الاوضاع الراهنة ؟

كان حائط الصواريخ الثابت غرب قناة السويس ، مدعما بانتشار الصواريخ القصيرة المدى ضد الدبابات والطائرات ، هـــو الركيزة الاساسية في معركـة العبــور ·

فهل فكرنا في شكل المعركة القادمة ، مع وجود مسافة واسعة تحتلها قــوات الامم المتحدة كمناطق عازلة بين المتحاربين ؟

● هل يمكن مع وجود المناطق العازلة ان تتحقق المفاجاة التي لعبت دورا بالغ الاهمية في معركة سنة ١٩٧٣ ؟ خصـوصا وان المناطق العازلة ليســت مساحات وقوات عليها للامم المتحدة ، وانما اصبحت هذه المناطق ايضا محطات انذار مبكر اسرائيلية وامريكية ، الى جانب اجهزة استشعار عن بعد وضعهــا الامريكيون ، وبلغ من دقتها انها تسجل خطو الجمال في صحراء المناطق العازلة الى حد دعا المحطة الامريكية الى بذل جهد خاص بالتعاون مع قوات الامـــم المتحدة لجمع الجمال الشاردة في المنطقة واخراجها منها ، وقد تم بالفعل جمــع ٢١ جملا من المنطقة رحلت الى العريش !

● ان الجنرال « موردخاي جور » رئيس هيئة اركان حرب الجيش الاسرائيلي وضع تقريرا عن موازين القوى العسكرية في الجانبين ، واضاف « جور » في تقريره الى الجبهة المصرية كل الاسلحة التي حصلت عليها ليبيا ، واضـاف الى الجبهة الشرقية كل الاسلحة التي حصلت عليها السعودية ـ فهل مثل هـــذا التقدير صحيح ؟ وهل ان العمل السياسي العربي حاول ان يتصرف ـ عـــلى الاقل ـ وفقا لفرضية رئيس الاركان الاسرائيلي ؟!

مجموعة من التساؤلات تلحق بمجموعة الاستشهادات !

□

واتوقف ـ رابعا ـ امام سلاح البترول ·

وربما كنت واحدا من الذين يعتقدون ان سلاح البترول لم يؤثر في سير معارك اكتوبر ، ذلك ان البترول دخل الى المعركة متاخرا ، ولو انه تقدم الى موعـد مناسب لكان له تاثير كبير على الجسر الامريكي الجوي الذي نقـل امدادات السلاح لاسرائيل ·

لكن البترول تاخر ··· واستفاد هو من حرب اكتوبر اكثر مما اسـتطاعت

حرب اكتوبر ان تستفيد منه ، وان كان من الانصاف ان نذكر ان هذا السـلاح كان يستطيع حسم الموقف السياسي بعد المعارك ، ولكنه رفع قبل ان يسـتطيع اداء دوره ٠

اي ان سلاح البترول تأخـر جدا في دخول المعركة ٠٠٠ ثم تقدم جدا فـي الخروج منها ٠

والمشكلة الآن ان هذا السلاح من الخطورة بحيث لا يمكن استعماله تاكتيكيا ، فهو بطبيعته ضربة استراتيجية عالية لا يمكن تكرارها بسهولة ، وربما كـان ذلك هو الذي حدا بوزير خارجية السعودية الى ان يقول في نفس يوم اجتماعه بـ « فانس » وزير الخارجية الامريكية :

ـ انه ليست هناك صلة بين مفاوضات الشرق الاوسط وبين اسعار البترول ٠

وكان وزير الخارجية السعودية يرد بذلك على التصور الذي شاع عن « ان السعودية سوف ترفع اسعارها اسوة ببقية دول الاوبيك اذا لم تصل محادثـات أزمة الشرق الاوسط الى نتيجة مرضية »٠

وكان واضحا من تصريح وزير الخارجية السعودية ان رغبة السعودية فـي عدم مجاراة بقية دول الاوبيك في رفع اسعارها يعود الى « رؤيتها للموقـف الاقتصادي العالمي » وليس لازمة الشرق الاوسط ٠٠٠ على الاقل في المرحلـة الراهنـة ٠

ويقتضينا واجب العدل اضافة اخرى : هي ان البترول ادى دورا في دعـم دول المواجهة ماليا ، وسواء كان الدعم على المستوى اللازم لدول المواجهة او اقل من هذا المستوى ـ فليس هناك شك ان البترول العربي قام في هذه الناحية بدور لا يمكن انكاره ٠

ويتصل بذلك ـ خامسا ـ سلاح فوائض الاموال العربية ، وهي الى جانـب قدرتها على تدعيم دول المواجهة ، تستطيع ان تكون اداة عقاب وثواب تجاه دول العـالم ٠

وربما سمحت لنفسي ان اقول ان فوائض الاموال العربية لم تعد سلاحا في يدنـا ٠

اقول ذلك واستشهد بتقرير لوزارة الخزانة الامريكية بتاريخ ١٧ يونيو ١٩٧٦ وهو قاطع في دلالته على ان هذه الفوائض من الاموال العربية لم تعد هي نفسها في ايدينا ، وذلك بطريقة التصرف فيها ٠

عنوان التقرير كما يلي :

● تقرير عن مواقع فوائض الاموال القابلة للاستثمار لدى دول الاوبيك سنة

١٩٧٤ وسنة ١٩٧٥ ٠

ويقول التقرير بما يلي :

١ ـ ان الولايات المتحدة حصلت من اموال الاوبيك على اثني عشر بليون دولار سنة ١٩٧٤ ، وعلى عشرة بلايين دولار سنة ١٩٧٥ ـ اي ان الولايات المتحدة حصلت في السنتين على ٢٢ بليون دولار (وهي تمثل ٢٠ في المائة من هذه الفوائض سنة ١٩٧٤ ، و ٢٥ في المائة سنة ١٩٧٥) ٠

٢ ـ ان السوق المصرفي الاوروبي حصل من اموال الاوبيك على ٢٢ر٥ بليون دورلار سنة ١٩٧٤ ، و ٨ بلايين دولار سنة ١٩٧٥ ٠

٣ ـ ان سوق المصارف البريطاني حصل من اموال الاوبيك على ٧ر٥ بليون دولار سنة ١٩٧٤ ، وربع بليون دولار سنة ١٩٧٥ ٠

٤ ـ ان بقية الدول المتقدمة حصلت من اموال الاوبيك على ٦ بلايين دولار سنة ١٩٧٤ ، و ٧ر٧٥ بليون دولار سنة ١٩٧٥ ٠

٥ ـ ان الدول النامية حصلت من اموال الاوبيك على ٤ بلايين دولار سنة ١٩٧٤ ، و ٦ بلايين دولار سنة ١٩٧٥ ٠

٦ ـ ان المؤسسات المصرفية الدولية (بما فيها صندوق النقد الدولي) حصلت من اموال الاوبيك على ٣ر٧٥ بليون دولار سنة ١٩٧٤ ، و٤ر٢٥ بليون دولار سنة ١٩٧٥ ٠

ويخلص التقرير الى ان مجموع ذلك كله وغيره وصل الى ٥٦ر٢٥ بليون دولار سنة ١٩٧٤ ، و ٣٧ر٧٥ بليون دولار سنة ١٩٧٥ ٠

وكان مجموع الفوائض ٦٠ بليون دولار سنة ١٩٧٤ ، و ٤١ بليون دولار سنة ١٩٧٥ ٠

اي ان الفائض الحر ـ القابل للتصرف الفوري المفتوح ـ من هذه الاموال لم يزد عن ٣ر٧٥ بليون دولار سنة ١٩٧٤ ، و ٤ر٢٥ بليون دولار سنة ١٩٧٥ ٠

اي أن فوائض الاموال العربية هي الآن في ايدي القوى المالية في امريكا وفي اوروبا الغربية ، ولم تعد في ايدي احد غيرها ٠ ولم يكن هذا هو كل ما حصلت عليه امريكا واوروبا الغربية من اموال البترول العربي ٠٠٠ فقد كانت هذه الاحصائيات كلها عن « الفوائض » ، واما حديث الاستيراد ـ خصوصا مشتريات السلاح من هذه الدول ـ فقد كان قصة اخرى !

□

ونسأل انفسنا وقد بلغنا ذلك الحد :

ـ اليست هذه كلها هي العوامل المكونة للموقف التفاوضي العربي ؟

واذا كانت هذه اوضاعها . فهل نستطيع القول بأن موقفنا التفاوضي هـــو الآن على نفس مستوى موقفنا القتالي في اكتوبر ١٩٧٣ ، مع العلم باننا اتفقنا على ان خيار المفاوضات لا يمكن ان يصدر الا عن موقف نستطيع منه قبول خيار القتـــال ؟

ان اي متفاوض ـ كما اتفقنا ـ لا ينظر الى اشخاص الجالسين امامه عـلى الناحية الاخرى من مائدة المفاوضات . وانما هو يمد بصره من خلالهم نافذا الى ما وراءهم ·· الى موازين القوة الحقيقية التي تسندهم وتعزز حججهم وتعطيها ما تستحقه من الاحترام ·

واليس التفاوض ـ كما اتفقنا ـ وجها من وجوه صراعات القوة ؟

واليس القتال مجرد تعبير عن موازين القوة بالسلاح ؟

واليست المفاوضات تعبيرا عن نفس هذه الموازين بالصياغات ؟

اليس كذلك ؟!

الحديث الثامن عشر

اعترف انني لا استطيع ان اتصور سياق وتتابع الحـــوادث ـ او السيناريو ـ وفق منطق المفاوض العربي الـــذي يطالب بالذهاب الـى جنيف ٠

٠٠٠ ربما لان « الموقف التفاوضي العربي »لم يتشكل بعـد ، او ربمـــا لان المفاوض العربي حريص على ترتيباته ، يبرقعها بالغموض ، ويحجبها بالطلاسم!!

كلا الاحتمالين وارد ، ومع اني اتمنى ان يكون الثاني هو الصحيح ، فانـي اخشى ان الحقيقة كلها في الاول ، اي ان الموقف التفاوضي العربي لم يتشكـل بعد ، رغم الالحاح واللهفة والعجلة على الذهاب الى جنيف ٠٠!

وفي نفس الوقت فاطلي ادعي انّ سياق وتتابع الحوادث ـ او السيناريو ـ وفق منطق المفاوض الاسرائيلي يمكن الان تصوره ، رغم ان هذا المفاوض يبدو حتى الان مترددا في الذهاب الى جنيف ، مشككا ، شديد التحفظ عليها والتشكيك بجواها !

□

ما هو « سيناريو جنيف » في المنطق الاسرائيلي ، اذا كنت اقول ان هـــذا السيناريو يمكن تصوره ؟

سوف اجازف بمحاولة الـــرد على هذا السؤال ، وان كان لا بد ان اضيفـ للامانة ـ انني لا اعتمد في ذلك على الخيال او على الاستنتاج وانا اعتمـــد على وثائقاسرائيلية ، بينها وقائع المؤتمر الاخير لحـزب العمل الاسرائيلـــي وبياناته ومناقشاته ، سواء في الجلسات العامة المفتوحة او في اعمال لجانــه المغلقة ٠

والسيناريو الاسرائيلي يبدأ ـ ككل سيناريو ـ برسم الجـو العام الـــــذي تدور عليه الحركة وتجري فيه مشاهدها ـ يستوي في ذلك السيناريو السياسي او حتى السيناريو الروائـــي !

وفي السيناريو السياسي فان « الجو العام » هو في الواقع مجموعة الحقائق الاستراتيجية ـ التي تدور عليه الحركة وتجري فيه مشاهدها ·

اي ان واضع السيناريو الاسرائيلي لجنيف قد بدأ مهمته بالتأكيد من مجموعة الحقائق الاستراتيجية التي يقوم عليها الموقف التفاوضي الاسرائيلي، والتثبت من انها في مجملها صالحة كاساس للحركة وتتابع المشاهد ·

والنتيجة في الغالب على النحو التالي :

١ـ سلامة الجبهة الداخلية الاسرائيلية (وهي نصف سليمة لانها ما زالت غير قادرة على التماسك بعد الصدمات التي تلقتها ، وخصوصا صدمة اكتوبر ١٩٧٣)·

٢ـ القوة العسكرية الاسرائيلية (وهي سليمة بنسبة مائة في المائة ، فحجم وفاعلية القوة العسكرية الاسرائيلية الان وصلت الى ثلاثة امثال ما كانت عليه في اكتوبر ١٩٧٣) ·

٣ـ التحالفات المؤيدة ـ اي العلاقات مع الولايات المتحدة (وهي سليمة بنسبة تسعين في المائة ، لان الولايات المتحدة تلح على اسرائيل في مساعدتها على الاحتفاظ بصداقاتها العربية الجديدة) ·

٤ـ التحالفات المعادية ـ اي العلاقات الدولية التي تستطيع عمليا مساعدة موقف اعدائها العرب (وهي مواتية لاسرائيل الان بنسبة اكثر من سبعين في المائة ، لان العرب فقدوا اكبر حليف دولي لهم ، وهو الاتحاد السوفيتي) ·

٥ـ المناخ العالمي العام (وهو مناسب لاسرائيل بنسبة خمسين في المائة، فالشعوب في اوروبا وامريكا معها وان خرج من دائرة التأييد الكامل لها بعض الساسة ، والشعوب في اسيا وافريقيا ضدها وان خرج من دائرة المعارضة الكاملة بعض الساسة ايضا) ·

اي ان المحصلة النهائية لهذه الحقائق الاستراتيجية تعتبر مناسبة للموقف التفاوضي الاسرائيلي بنسبة تزيد على سبعين في المائة ·

هذا عن « الجو العام » للسيناريو الاسرائيلي لجنيف ·

□

يجيء بعد ذلك دور « الجو الخاص » ، اي مجموعة الاوضاع التاكتيكية التي يقوم عليها السيناريو الاسرائيلي لجنيف ···

هذه ايضا سوف يحاول المفاوض الاسرائيلي ان يتأكد منها ، وسوف يجد:

١ـ ان الضمانات التي حصلت عليها اسرائيل من الولايات المتحدة فـــــي اطار الملحقات السرية لاتفاقية سيناء الثانية توفر لاسرائيل ما يلي :

● امداد مستمر بالسلاح المتطور (ليكن ان الكونجرس عارض امــداد

اسرائيل بصواريخ بيرشنج لان المصانع الحربية الامريكية اوقفت انتاجهـــا ـ وليكن ان الرئيس الامريكي الجديد جيمي كارتر عارض شحن قنابل الارتجاج اليها لانه اعتبر تصدير هذا النوع من الاسلحة ـ بل انتاجه في امريكا اصلا ـ لا لزوم له) ٠٠٠ ليكن هذا كله ٠٠٠ فبعده يبقى ان اسرائيل حصلت على كل ما تريد وزيادة ، وما حجب عنها من انواع طلبتها جرى تعويضها بغيره له نفس الفاعلية العسكرية ٠

●تعهد امريكي بالامتناع عن تقديم اي مقترحات سياسية او قبول اي مقترحات سياسية الا بتشاور مسبق مع الحكومة الاسرائيلية ٠

●اتفاق امريكي اسرائيلي على عدم التعامل مع منظمة التحرير الفلسطينيـة باي شكل وتحت اي ظـــرف ٠

٢ـ ان الاراضي العربية المحتلة هي الموضوع الاساسي في المشكلة ، او هـي عقد السيناريو ، وربما ان اسرائيل تحتفظ بهذه الاراضي تحـت سيطرتها ـ

اذن فان عقدة السيناريو كلها تحت تصرفهـــا ٠

٣ـ ان السيطرة الاسرائيلية على هذه الاراضـي لا يمكن تحديهـا الا بقـوة عربية ظاهرة ، ومثل هذه القوة ليست متوافرة في الوقت الحالي على الاقـــل٠

٤ـ ان اقدام العـــرب على عمل مفاجيء ، اي عمل تستطيع فيه المفاجـــأة تعويض النقص في القوة ، لا يبدو ممكنا بسبب المناطق العازلـــة ومحطـــات الانذار الامريكية والاسرائيلية ٠

٥ـ ان الاوضاع الداخلية العربية على المستوى القومي او على المستـــوى الوطني لا يبدو الان انها صالحة لبروز ارادة جماعية او منفردة يمكن ان تكون قادرة على تغيير هذه الاوضاع بسرعـــة ٠

□

واستنادا الى هذا الجو العام ـ الحقائق الاستراتيجية ـ والى هذا الجـــو الخاص ـ الاوضاع التاكتيكية ـ فان واضع السيناريو الاسرائيلي لجنيف بـدا منذ وقت طويل ـ اكثر من سنة ـ يحاول ان يكسب لنفسه وقتا يحقق فيـــه لنفسه عدة اهداف :

● يواصل تحسين وتدعيم موقفه التفاوضـــي

● يراقب التفاعلات الجارية في العالم العربي وتاثيرها على الموقف التفاوضي العربي ·

كانت حجة التاجيل لكسب الوقت في لحظة من اللحظات هي ضرورة الانتظار حتى ينسى الراي العام الاسرائيلي انه تعرض لضغط عنيف للتخلي عن ابـــار بترول سيناء ·

وفي لحظة اصبحت حجة التأجيل لكسب الوقت هي انتظار انتهاء الحـــــرب الاهلية في لبنان ·

وفي لحظة ثالثة اصبحت الحجة هي انتظار الانتخابات الامريكية

وفي لحظة رابعة انتظار الانتخابات الاسرائيلية ·

ولكن واضع السيناريو الاسرائيلي لم يترك هذا الوقت يضيـــع في الهـــواء، وانما وظف هذا الوقت لكي يمهد نفسيا لجنيف بحيث يستطيع ضبط ايقـــــاع الحركة ومشاهدهـــا في اتجاه ملائم لمقاصده ·

وربما كان هذا التمهيد النفسي هو ذروة البراعة الفنية في السيناريـــــــو الاسرائيلـــي لجنيف ·

هكذا اعادت اسرائيل طرح القضايا بما يلائم مقاصدهـــا :

●اصبحت القضية الاولى قضية السلام الــذي يستطيع العرب ان يقدمــوه لاسرائيل ، وشكل هذا السلام ومضمونه ، ولم تعد القضية الاولـــى قضيـــــة الاراضي العربية المحتلة التـي يجب ان تنسحب منها اسرائيـــل ·

●واصبحت القضية الثانية قضية اعتراف الثورة الفلسطينيـة بوجـــــود اسرائيل ، ولم تعد قضية اعتراف اسرائيل بوجود الشعب الفلسطيني ·

ومن خلال هذا التمهيد بدأت عملية التفاوض في الواقع من قبل الذهــــاب الى – جنيف وبدأت بقبول ظاهر من العرب للشروط الاسرائيلية ·

وتتابعت تعهداتنا بالسلام لاسرائيل ··· وافضنا في التفاصيل ·

وبدأت محاولاتنا لاقناع منظمة تحرير فلسطين بان تكون « معقولة » وان تبحث تعديل ميثاقها ، وان تقلل من تمسكها بقرارات مؤتمر الرباط من قبل ان ينعقد مؤتمر جنيف لكي تطمئن اسرائيل للدخول !

وانصافا للعرب فانهم لم يكونوا وحدهم الذين ابتلعوا الطعم الاسرائيلـــــي، طعـــم الســـلام الــذي يجـب ان تقدمــــه الــدول العربيـــة لاسرائيـل ، وطعم الاعتراف الـــذي يجب ان يتقدم به القتيل الفلسطيني لقاتله الاسرائيلـي·

على ان الحق يقتضينا ان نعترف ان سكوت العرب على « الطرح » الاسرائيلي للقضايا هو الـــذي ادى الى قبول الاخرين لـه !

وهكذا جاء السكرتير العام للامم المتحدة « كورت فالدهايـم » الـى المنطقـة، ثم غادرها يقـول :

ـ ان العقبة امام مؤتمر جنيف هي مشكلة تمثيل الفلسطينيين ··· فاسرائيل لن تقبل حضورهـم الا اذا سبق لهم ان اعترفوا بها ·

ولم ينتبه احـد لكي يقول للسكرتير العـام :

ـ لنترك موضوع الفلسطينيين ··· دع اسرائيل تعلن انها على استعـداد للانسحاب من الاراضي المحتلة كلها في سيناء والجولان وسوف تجـــد ان الفلسطينيين سوف يكونون اول من يقول لمصر وسوريا : اذهبوا انتم الى جنيف واستعيدوا كل اراضيكم المحتلة لاننا لا نقبل رهنها تحت الاحتلال لحسابنـــا وحدنـــا ·

لكن احدا لم ينتبه ليقول ذلك للسكرتير العام ، ولم يقله فالدهايـم من نفســه على اي حال ، ثم ان اسرائيل لم تترك له المجال لاطالة الكلام ، فقد قال لــــه « ييجال اللون » نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية في اسرائيـل :
ـ نحن لا نعترف بك وسيطا ··· والوسيط الوحيد الـــذي نقبله هو الولايات المتحـــدة ·

وفي الحقيقة فان اسرائيل لم تحول عينها عن الولايات المتحـدة وكان اول ما يهمها ان تقبل الولايات المتحدة هذا « الطرح » الاسرائيلي للقضايا وفـــق السيناريو الاسرائيلي لجنيف ·

□

كان واضع السيناريو الاسرائيلي۔ يرى المأزق الذي وصلت اليـــه جهـود الدكتور « هنري كيسنجر » وفي نفس الوقت كان يرى ان نظام « كارتر » الجديد لم يدرس بعد مشكلة الشرق الاوسط ولم يخرج بافكار لحلهـا ، ومن ثم فانه مفتوح لكل الاجتهادات ·

كان التفكير السياسي في البيت الابيض الامريكي مـع بداية عهد كارتـر لا يزيد على مذكرة واحدة من ورقتين اثنتين كتبهما « زبجنيو برجينسكـي » مستشار كارتر لشئون الامن القومي وكانت المذكرة المطبوعـــة بخاتـــم « سري جدا » بعنوان « مذكرة استعراض سياسي رقم ٢ » بتاريخ ٢١ ينايـــر ١٩٧٧ تشير الى ثلاثة موضوعـات

بحث وسائل تنشيط المحادثات العربية الاسرائيلية ·

بحث مستويات المعونة العسكرية للمنطقة ·

بحث الوسائل الكفيلة بالتصدي للمقاطعة العربية ضد اسرائيل ·

وكان « برجينسكي » قد ارسل مذكرته ـ بعد العرض على الرئيس الى وزير الخارجية « سيروس فانس » برجاء ابداء رأيه فيها قبل ٣١ يناير ١٩٧٧ ·

وفي نفس هذا الوقت كان « فانس » يعد لرحلة في الشرق الاوسط بمراجعة الملفات القديمة من عهد « كيسنجر » وهي نفس الملفات التي وصلت بالازمة الى المأزق ·

واتصل « فانس » بالبيت الابيض يقول لـ « برجينسكي » انه سوف يحتفظ بتعليقاته على مذكرته حتى يعود من زيارته للشرق الاوسط ويكون هناك قد راى الموقف على الطبيعة ·

وكانت اسرائيل تتحرك وتفرش امام النظام الجديد في امريكا بساط حسن النية ، لكي تستطيع عليه ان تسحب النظام الجديد الى طرحها هي للقضايا ، وعلى اساس السيناريو الاسرائيلي ··

هكذا فانه عندما اعلن « كارتر » عزمه على وقف تصدير قنابل الارتجاج الى اسرائيل ، تقبلت اسرائيل قراره بهدوء ، وكل ما طلبته هو تعويضها عن هذه القنابل بـ « شيء اخر » ·

وهكذا ايضا عندما تدخل « فانس » في الاشكال الذي نجم عن منع الاسرائيليين لحفار تملكه شركة امريكية حصلت على امتياز للتنقيب عن البترول في خليج السويس ، تقبلت اسرائيل تدخله ، بل واستجابت له ·

وكان الاشكال بسيطا ··· بل انه بدا في بعض الاحيان مضحكا !

وواقع الاشكال ان اسرائيل تعتبر ان خط منتصف المياه في الخليج هو خط منطقة احتلالها ، ولم يكن الحفار التابع للشركة الامريكية قد تجاوز خط منتصف المياه ، ولكن مراسيه وحدها هي التي تجاوزت هذا الخط بسبب التيارات البحرية ·

وكانت اسرائيل قد تعرضت لهذا الحفار وهددت باطلاق النار عليه لان مراسيه تجاوزت خط منتصف المياه الى الشرق ، مما منعه فعلا عن العمل ·

ثم كان التنازل الاسرائيلي ان استجابت اسرائيل لرجاء امريكا وتركت مراسي الحفار الامريكي تنجرف نحو الشرق مع التيارات البحرية !!

وعبر « فانس » على بساط حسن النية الاسرائيلي ، وغادر المنطقة قائلا ان عقبة تمثيل الفلسطينيين في مؤتمر جنيف لا يمكن حلها الا اذا قامت

منظمة تحرير فلسطين بتعديل ميثاقهـــا ٠

وهكذا اعتمدت الولايات المتحدة طرح اسرائيل للقضايا وفق السينـاريـــو الاسرائيلـــــي

السلام الـذي يقدمه العـرب لاسرائيل ٠٠٠ قبل الاراضـــي

والاعتراف الـذي يقدمه الفلسطينيون باسرائيل ٠٠٠ دون اعترافهـــا هي بهـــــم ! !

□

وذهب رابين الـــى واشنطـــن ٠

ويذهب الـــى واشنطن ايضـــا عدد من الزعمـاء العـــرب ٠

وتنتهي الانتخابات الاسرائيلية في اواخـــر شهـــر مايو ٠

وتتشكل حكومة جديدة ـ ائتلافية بالتاكيد ـ مـــع نهاية الصيف ٠

وفي شهر يونيو او يوليو يعود الـــى المنطقة « سيروس فانس » وزيـــــــر الخارجية الامريكية ، لكي يبحث احتمالات عقد مؤتمر جنيف في الخريـــــف ٠٠٠سبتمبر او اكتوبـــر ٠

والاحتمالات تحت المناقشة منذ الان ، وصانع السيناريو الاسرائيلـــــي لا يكف عن الحوار مـــع الاطراف ، والملاءمة مـــع الظروف ٠

والبدائل المطروحة الان على النحـــو التالـــي :

●لا يمكن عقد مؤتمر جنيف باشتراك منظمة التحرير الفلسطينية فهل يمكـــن لمصر وسوريا ان تذهبا الى جنيف من غير منظمة التحرير ٠٠؟٠٠ الموقــــــف الاسرائيلي واضح ، والموقف الامريكي يؤيده ـ فكيف يكون موقف مصـــــــر وسوريا ، ومتى يتضح نهائيـــــا ؟

●هل هناك فائدة من عقد مؤتمر جنيف رسميا مـــع اشتراك الاتحاد السوفيتي في رئاسته

واسرائيل تلعب على مشاعر الولايات المتحدة فتقول : اذا لماذا نعطي الاتحاد السوفيتي ميزة لايخوله إياها نفوذه في الشرق الاوسط ، وهل نعطيها له تطوعـــا بينما بعض الاطراف العربية نفسها لا تريده في المؤتمر ؟ ـ ثم ماذا لو استعمـــل الاتحاد السوفيتي ما في جعبته من اساليب التعقيد والعرقلة ـ خصوصا فـــي موضوع الفلسطينيين سواء في ذلك تمثيلهم او حقوقهـــم ؟

●وعلى فرض ان منظمة تحرير فلسطين عدلت ميثاقها وحذفت منهما يشيـــر

الى تصفية الدولة الصهيونية في فلسطين ـ فما هو الدليل على ان المنظمة تمثل فعلا شعب فلسطين ؟ واين راي سكان الضفة الغربية وغزة ؟

●ما هو الشكل الذي يمكن ان ينعقد به مؤتمر جنيف ؟

ـ هل ينعقد المؤتمر على « نمط فرساي » لتسوية مشاكل الحرب العالمية الاولى ، وحين طلب الى اعضائه ان يظلوا في حالة انعقاد حتى يصلوا الى حل··· وهل ذلك ممكن في الصراع العربي الاسرائيلي ؟

اليس هناك خطر ان يتحول هذا المؤتمر الى مظاهرة خطابية ؟

ـ هل ينعقد مؤتمر شبيه بمؤتمر جنيف بدون الامم المتحدة وبدون الفلسطينيين لكي «يطحن» فيه الاطراف الاصليون خلافاتهم بما فيها تمثيل الفلسطينيين ثم يكون انعقاد المؤتمر نفسه رسميا بعد ذلك في جو ملائم ؟

ـ هل يستحسن ان تجري في التمهيد للمؤتمر محادثات سرية بين الاطراف باشراف الولايات المتحدة وحدها ، خصوصا وانهم الان جميعا يبدون الثقة بها كوسيط، وبعد هذه المرحلة من المحادثات السرية ينعقد المؤتمر في جو اكثر ملاءمة للنجاح في ربيع او خريف سنة ١٩٧٨ ؟

كل ذلك يجري بحثه الان ، والمفاوض الاسرائيلي يحاور ويلائم·

□

واغلب الظن ان المفاوض الاسرائيلي يدرك من الان ان خريف هذا العام سيجيء ومعه ضغط عالمي متزايد بطلب عقد مؤتمر جنيف ، وساعتها يتصور المفاوض الاسرائيلي ان سيناريو جنيف يمكن ان يسير على النحو التالي :

●سواء عدلت منظمة التحرير ميثاقها او لم تعدله ـ فان قضية تمثيل الفلسطينيين سوف تظل مطروحة ·

● اذا كانت المنظمة لم تعدل ميثاقها فدعوى اسرائيل الاصلية قائمة، واذاكانت قد عدلته فان الدعوى سوف تصبح حق المنظمة في تمثيل كل الفلسطينيين ، وسوف تتسع المناقشة ، وفي الغالب فان عناصر فلسطينية سوف تظهر في المؤتمر ملحقة بوفد عربي اخر لا يحمل علم فلسطين ، وهو علم لا تريد اسرائيل مهما كانت الظروف ان تراه فضلا عن ان تتعامل معه ·

●يعقد مؤتمر جنيف على هذا النحو جلسة مراسم او اكثر تلقى فيها خطب،

ثم يتحول المؤتمر الى لجان عمل، لجنة مصرية اسرائيلية ، ولجنة سورية اسرائيلية ، ولجنة ـ في الغالب ـ اردنية اسرائيلية ·

وتتعثر اعمال اللجـــان ٠

وتبدأ مرحلة محادثات سرية تحت اشراف الولايات المتحدة وبتوجيههـــا ، مع العلم بان الولايات المتحدة لا تنوي ان تفرض اقتراحات من عندهـــا ، وانما سوف تساعد الاطراف على التوصل الـى حل وسط فيما بينهم ، وعلـــى اساس التوفيق بين مقترحاتهـم هـــم !

●سوف يكون تركيز اسرائيل على « طرحها » الخاص للقضايا ، وهو طرح تورط العـرب في قبوله ، حين قبلوا منطلق الحديث عن « السلام قبل الاراضي» وعن « الاعتراف الفلسطيني باسرائيل دون اعتراف اسرائيل بالشعـــــب الفلسطينـــــي » .

وهكذا فان السيناريو الاسرائيلي يتصور المفاوض الاسرائيلي وهو يحـدد معنى السلام كما يتصوره :

« وقف كل العمليات العدائية واعمال الحصار والمقاطعـة ، واعادة تخطيط الحدود بمايضمن لاسرائيل حدودا آمنة من اي عدوان ، الى جانب ضمانات تتمثل في مناطق منزوعة السلاح ، على ان يكون ذلك في صلب اتفاقية السلام٠

والى جانب ذلك يتحتم ان تبدأ بنصوص اتفاقية السلام ـ مرحلة اقامـة علاقات طبيعية بحدود مفتوحة بين اسرائيل وجيرانها في كل المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية ٠

ومن المرغوب فيه ان يتعهد الاطراف بان يدخلوا في ترتيبات لاقامة ســوق عربية مشتركة اقليمية تضم العرب واسرائيل » ٠

●ومنذ الان فان اسرائيل لا تتصور ان العرب سوف يقبلون بهذا الوصـــــف للسلام ، فقصارى ما هم مستعدون له هو إعلان انهاء حالة الحرب ، والاتفاق على مناطق عازلة ترابط فيها قوات من الامم المتحدة او مراكز رقابة تتولـــى الولايات المتحدة تشغيلهـــا ٠

والمفاوض الاسرائيلي لا يعتبر ذلك كله سلاما ، وانما يعتبره وقايـــة مـــن الحــــرب ، وليس ذلك مطلبــه ٠

ولكن المفاوض الاسرائيلي يعتبر ان رفض العــرب لهذا السلام ســوف يكشفهم امام العالم الخارجي ، ويظهرهم بمظهر من تحدث عن شيء دون ان يفهــــم معناه ٠

●ويتوقع المفاوض الاسرائيلي ان العــرب في هذا الوقـت سوف يثيرون موضوع اراضيهم المحتلة ، وسوف يكون رده :

ـ ان خريطة المنطقة في المستقبل تتوقف على نوع السلام الـذي سيقـــوم

فيها » ٠

وهكذا فان الطرف الاسرائيلي لا يتوقع ان يضغط عليه احد في موضوع الاراضي قبل ان تظهر نية العرب كاملة في موضوع السلام ٠

وفي كل الاحوال فانه من الان يحدد نقطتين بكل وضوح :

ـ الاولى انه لن تكون هناك عودة الى خطوط ما قبل يونيو ١٩٦٧ حتى في اطار اتفاقية سلام كامل ٠

ـ والثانية انه في مطلق الاحوال فان القدس ليست مطروحة للمناقشة !

□

ومتى يصل هذا كله الى نهاية تتبين فيها الاطراف ـ خصوصا العربية مواقع اقدامها ؟

اعود هنا الى الاستشهاد بالجنرال « موردخاي جور » رئيس هيئة اركان حرب الجيش الاسرائيلي وما قاله في ندوة عن قضايا الدفاع في اسرائيل اجرتها معه المجلة الاسبوعية للجيروزاليم بوست ، وفي هذه الندوة قال « جور » واقواله مثبتة في الصفحة السادسة والسابعة من عدد الجيروزاليم بوست بتاريخ ١٤ يناير ١٩٧٧ :

ـ يصعب على من الان ان اتحدث عن الحدود النهائية لاسرائيل ٠٠٠ ولا ارى مناسبا ان اتحدث الان عن حدود لا اظن اننا سوف نقرر راينا النهائي فيها قبل سنة ١٩٨٦ » !

اي بعد عشرسنوات !

□

ماذا اقول في نهاية ذلك كله ؟

لا اقول الا شيئا واحدا :

ـ خففوا الحماسة من فضلكم لجنيف ٠٠٠

ولا تذهبوا الى هناك الا بموقف تفاوضي عربي يتساوى مع موقف قتالي عربي ٠

ثبتوا الاوضاع على الطبيعة هنا ٠٠٠ ينفتح الطريق ، وتستقيم الموازين هناك في جنيف ! !

فصل الختام

نقط على حروف

(كتبت في شهر أبريل ١٩٧٧
بعد حملة ضارية في صحف القاهرة
على كل ما تضمنه صلب هذا الكتاب من آراء واجتهادات)



لم اتعود ان اشغل الناس كثيرا بمشاكلي ، ولكني استاذن اليوم في الخروج على مالوف عادتي لاضع بعض النقط على بعض الحروف ازاء زوبعة هوجاء ثارت ـ وتثور ـ من حولي في القاهرة الآن ·

ولعلي انبه ـ مبكرا جدا ـ الى انني لا اقصد بما اقوله في هذا الحديث ان ارد او ادافع ، فما اظنني بحاجة الى شيء من ذلك لعدة اسباب :

اولا ـ لان افكار كل كاتب ومواقفه سجل ثابت عليه امام اصحاب الحق الاول والاوحد في حسابه وهم جمهرة قرائه ، وهو لا يستطيع ان يهرب من سجله ـ أو يتهرب ـ الا بمثل ما يستطيع انسان ان يهرب من نفسه او يتهرب ·· ومع ان بعض الناس يملكون مقدرة فائقة على الهرب والتهرب ـ فانني اعترف انني لست واحدا من هؤلاء ، ومن هنا فاني دوما جاهز بسجلي ، راض بما فيه ، متحمل لمسئولية الخطأ والصواب فيما ابديت من آراء او اتخذت من مواقف !

ثانيا ـ ان درجة التصديق العام لهذا النوع من الزوابع الهوجاء ليست كبيرة ، ولعلي لا ابالغ اذا قلت ان هذا النوع من الحملات يرتد على المطلوب منهم ان يكونوا اصحابها قبل ان ينعكس على المقصود لهم ان يكونوا ضحاياها · ذلك ان الناس ازاء اي حملة من هذا النوع يتساءلون : لماذا الآن ؟ ومن القائل ؟ وماذا يقول ؟ ـ ويكفيني ان يسأل الناس انفسهم هذه الاسئلة ، ويرضيني مقدما اي جواب يتوصلون اليه !

ثالثا ـ ان الحملة كانت فعلا زوبعة هوجاء كمثل زوابع الخماسين ـ وهذا موسمها في مصر ـ وهذا النوع من الزوابع هجمات رياح بلهاء ، متقلبة الاتجاهات ، عصبية الحركة ، لكن قصارى ضررها هو ما تحمله معها من اكوام التراب والرمال ، الى جانب لحظات من القتام الكئيب ، لكن الربيع يؤكد نفسه بعدها ، وتسطع الشمس بضيائها ودفئها رمزا لانتصار الحق والحقيقة ·
ولا بد ان اعترف انني اتوقع هذا النوع من الزوابع الهوجاء تهب من

حولى في مصر ـ مع اي لحظة ـ وهناك لذلك دواع اعرفها . كما اني قـــدرت تبعاتها سلفا ·

● بينها انني تصديت للحملة على جمال عبد الناصر . ولم اكن اصدر في ذلك عن عاطفة او عن تعصب . فقد كان كل ما طالبت به ـ واطالب ـ ان يكون هناك تقييم امين ونزيه لعصر رجل لا يستطيع اعتى خصومه ان ينكروا انه فـــي حضوره كان تعبيرا حيا عن ضمير امته ، كما انه في غيابه تحول الى رمـــز لتجربة ما زالت قادرة على النمو والعطاء ·

● وبينها انني لم الزم الصمت ازاء قضايا مصيرية تمس مستقبل مصر وامتها العربية . وحين استحال علي الكلام في مصر . فاني بقيـــــت فيهـــا بشخصي . وارتحلت عنها مجبرا بقلمي . مؤمنا ان ذلك ما زال في حدود ولاء قومي اتمسك به . لان القضايا واحدة والغد مشترك · ولم امارس في ذلك كله اكثر من دور الصحفي والكاتب . وهو امر طبيعي لشخص لم يحترف غيـــر الصحافة والكتابة لمدة وصلت الآن الى خمس وثلاثين سنة ·

ومع ذلك فانا لم ادع لنفسي احتكار الحقيقة او احتكار تفسيرها . ولكنـــي اتخذت مواقف وابديت اراءا تقبل الصواب والخطأ . وهي في كل الاحوال لا تستعلي على المناقشة ولا تستطيع ·

● وبينها انني اعرف عن الاوضاع السائدة من حول وسائل النشر والتعبير في ظروفنا الراهنة ما انا في غنى عن شرح مستفيض له . اقول ذلك ـ مرة اخرى ـ عن عفة وليس عن خوف . ذلك لان الخوف ترف وحيد لا استطيـــع ان اسمح لنفسي بالانغماس فيه . ولان اي رجل في النهاية هو موقف . وليس هناك رجال بدون مواقف !

□

واذا ما وصلت ـ بعد هذه المقدمات ـ الى الزوبعة الاخيرة التي ثارت حولي في مصر . وتساءلت :

ـ لماذا ثارت فجأة ؟ ولماذا هاجت ؟

لكان الجواب . قد ورد بنصوصه تقريبا وسط اكوام التراب والرمال التـــي حملتها زوبعة الخماسين . كما يلي :

١ ـ انني قلت « انني لا اظن ان تسعة وتسعين في المائة من اوراق حل ازمة الشرق الاوسط في يد الولايات المتحدة »

٢ ـ انني قلت : « ان ما حدث في مصر يومي ١٨ و ١٩ يناير الماضي كان انفجارا شعبيا له دواعيه الاجتماعية » ·
٣ ـ انني قلت : « انني لا اظن ان ما حدث يومي ١٨ و ١٩ يناير الماضي كان من تدبير الشيوعيين » ·

قيل انني قلت ذلك ، واعترف انني قلته وقلت اكثر منه . ولكنهم اغفلوه فيما نقلوه عني ·

● اغفلوا مثلا انني قلت « اننا حين نفترض ان تسعة وتسعين في المائة من اوراق حل الازمة في يد الولايات المتحدة ـ فاننا بذلك نظلم انفسنا . فأوراق الحل كلها في يدنا وليس من حقنا ان نتركها في يد غيرنا . لان غيرنا لن يتحرك ـ اذا تحرك ـ الا بمقدار احساسه بما نستطيع نحن توجيهه اليه من ضغوط » ·

● واغفلوا مثلا انني قلت : « اننا حين نتصور ان ما حدث في مصر يومي ١٨ و ١٩ يناير لم يكن انفجارا شعبيا له دواعيه الاجتماعية . فاننا سوف نضل عن الطريق الصحيح ، وسوف نعتمد للمواجهة منطقا بوليسيا ، في حين ان المطلوب هو المنطق السياسي والاجتماعي » ·

● واغفلوا ايضا انني قلت : « اننا اذا نسبنا ما حدث يومي ١٨ و ١٩ يناير الى الشيوعيين . فاننا بذلك نعطيهم ما هو اكبر من قيمتهم واكبر من حجم تاثيرهم على الجماهير المصرية . ولو كان في استطاعة الشيوعيين المصريين تحريك كل هذه الكتل من الجماهير من الاسكندرية الى اسوان ـ اذن فنحن امام كارثة ـ ومن حسن الحظ انها كارثة لا وجود لها الا في خيالات هؤلاء الذين يصدق عليهم قول احمد شوقي من انهم « غلبوا على اعصابهم فتوهموا ـ اوهام مغلوب على اعصابه » !!

واسال نفسي :

ـ ما هو الخطا فيما قلت . سواء في ذلك ما نقلوه عني او ما اغفلوا نقله ؟
وليكن ما قلته خطا . فلماذا لا يتبرع احد بردي او رد غيري الى الصواب ، وله الاجر والثواب ؟!
وقيل . وما اكثر ما قيل :

ـ ان المسالة ليست مسالة اراء ابداها صاحبها . ولكن المسالة هي « اين » ابدى صاحب الراي رايه ··· لقد ابداه امام تليفزيون المجر وهو جهاز معاد لمصر !

ولم يكن في علمي ان بيننا وبين المجر عداء !

واكثر من ذلك فانني ـ لو تجشم المتقولون عناء البحث ـ انتهزت فرصة حديثي امام تليفزيون المجر ووجهت نقدا لسياسة الاتحاد السوفيتي على اساسين :

● ان الاتحاد السوفيتي لم يستطع ان يفهم جوهر قضية الوحدة العربية ·

● ثم ان الاتحاد السوفيتي لم يستطع ان يفهم الحاح وضغوط الصراع العربي الاسرائيلي على الامة العربية ، خصوصا في ظروف الانكار الكامل لحقوق الشعب الفلسطيني والاحتلال الجزئي لاراض من اوطان عربية اخرى غير فلسطين ·

وان كنت قد اضفت الى ذلك تقديري لاهمية الصداقة العربية السوفيتية . وهذا حق اومن به مع انني واحد من الذين تصدوا بالنقد لكثير من اوجه السياسة السوفيتية في العالم العربي . ولكن النقد شيء والاهمية الحيوية لعلاقات وثيقة بين العرب والاتحاد السوفيتي شيء اخر ·

ومع ذلك فانا لم اقصر احاديثي على تليفزيون المجر . ففي نفس الاسبوع الذي وقفت فيه امام عدسات تليفزيون المجر وقفت ايضا امام عدسات التليفزيون الامريكي لمحطة « ان · بي · سي · » . وهي من اكبر واشهر الاذاعات الامريكية . وفي نفس الاسبوع ايضا ادليت بحديث الى جريدة « بوربا » اليوجوسلافية ·

واذن ماذا ؟

□

وقيل . وما اكثر ما قيل :

ـ صميم المسالة ليست الراي في حد ذاته ، ولا الجهة التي حملته ، وانما صميم المشكلة هو التوقيت ، توقيت ذلك كله مع رحلة السلام التي يقوم بها الرئيس انور السادات الى واشنطن · ان التوقيت مقصود منه التخريب وافساد المسعى واحباط الجهود » ·

ولم اكن لاصدق بمثل هذا الذي قيل لولا انني قرأته وقرأه الاف غيري ٠

ولست اعرف كيف يتصور القائلون به ان رحلة دولية هامة يقوم بها رئيس اكبر دولة عربية ـ يمكن لها ان تتأثر بمقالات او تصريحات يدلي بها صحفي ايا كان ؟!

لقد كان ذلك اطراء لي لا استحقه ، وانا اتنازل عنه يقينا وبغير رجعة ، ولكنه مع الاسف كان اساءة الى مسعى تمنى كل عربي ـ مع اختلاف رايه ـ ان ينجح فيما سعى وان يحقق مطلوبه وزيادة ٠

ومع ذلك ـ وبصرف النظر عن هذه الملاحظة في الشكل ـ فما هو الدليل ـ موضوعا ـ على نوايا التخريب فيما قلت ؟

لعلي متواضعا اضيف ان موقف الرئيس السادات في واشنطن يقويه ولا يضعفه ان يقول في واشنطن :

- ان موقفكم اصبح في المنطقة موضع نقد شديد : فتحركوا ٠
- ان شعبنا نفد صبره : فافهموا ٠
- ان هناك عناصر في وطننا تستغل جمودكم : فاستيقظوا !

ولعلي اضيف فوق ذلك وقائع اخرى فيما يتعلق بالتوقيت قاطعة وحاسمة وهي وقائع من شأنها ان تثبت وتؤكد انني كنت حريصا على الصمت في فترة توقيت رحلة الرئيس السادات ، ليس لانني اتصور ـ او اتوهم ـ ان شيئا مما يمكن ان اقوله او يقوله غيري قادر على افسادها او التاثير فيها ـ ولكن منعا لاي لبس او تأويل ٠

ومن ذلك مثلا انني ادليت بما ادليت به من احاديث لتليفزيون المجر ولمحطة « ان ٠ بي ٠ سي ٠ » الامريكية ولجريدة بوربا اليوجوسلافية قبل عشرة ايام من بدء رحلة الرئيس السادات الى بون وباريس وواشنطن ٠

وفوق ذلك فهناك واقعة اخرى تعززها الوثائق ٠

ذلك ان مركز الدراسات العربية المعاصرة في جامعة « جورج تاون » الامريكية كان قد دعاني في شهر نوفمبر الماضي ـ ١٩٧٦ ـ الى ندوة علمية عن قضايا

الوحدة العربية تعقد في اول ابريل سنة ١٩٧٧ ـ واختارني المركز متحدثـــا رئيسيا في هذه الندوة ، وحدد لي الموضوع الذي القي فيه محاضرتي فـــي الندوة وعنوانه « الاشكال المحتملة للوحدة العربية » ·

وكتبت الى مركز الدراسات العربية المعاصرة بجامعة « جورج تاون » ··· موافقا ·

وبدا المركز يعد لندوته ، وطبع اسمي في سجل المشتركين فيها ، وبعث الـي بترتيبات الرحلة ·

ثم عرفت من مصادر صحفية دولية ان « سيروس فانس » وزير خارجيـــة الولايات المتحدة سوف يوجه دعوة للرئيس السادات لزيارة واشنطـــن ، وان اتصالات بين البلدين اكدت قبول الرئيس لها في موعد مبكر من شهر ابريـــل ١٩٧٧ ·

وتذكرت على الفور مشكلة وقعت في اكتوبر سنة ١٩٧٥ ، فقـد حدث انني كنت في الولايات المتحدة احاضر في المؤتمر السنوي للخريجين العـرب مـن الجامعات الامريكية . وتصادف ذلك مع رحلة الرئيس السادات الرسمية الاولى لواشنطن في اكتوبر ١٩٧٥ ـ ويومها جرى تشويه وتأويل لبعض ما قلت ، بـل وصل البعض هنا في القاهرة الى الادعاء بان رحلتي الى امريكا في ذلــك الوقت كانت محاولة للتشويش على رحلة الرئيس السادات ·

وكان هذا هراء ما بعده هراء ·

ومع ذلك فانني خشيت ان تتكرر مشكلة ١٩٧٥ مرة اخرى سنة ١٩٧٧ ·
وهكذا بادرت بالكتابة الى جامعة جورج تاون معتذرا ، بل وسمحت لنفسي ان اذكر لهم في اعتذاري سببه الحقيقي ، ولم اكن املك غير ذلك ازاء هيئـــة علمية ارتبطت واعلنت انني ساكون بين المشتركين في ندوة تقيمها ثم تخليت في اخر لحظة عن تعهدي لها ·
واذا فقد كنت حريصا ـ مبالغا في الحرص ـ فيما يتعلق بالتوقيت ، وبأن لا ادع سبيلا الى لبس يحيط بظرف ، او شك يساور اي نفس مهما بلغت درجـة تعقيدها !
ومع ذلك ثارت الزوبعة الهوجاء كرياح الخماسين ·

وبدات الزوبعة باستغلال وتحريف عبارة قيل انها وردت على لسان الرئيس السادات اثناء حوار دار بينه وبين الطلبة المصريين في بون ·

وقيل ان الرئيس السادات وصفني في هذه العبارة بانني « عميل امريكي » ٠

واعتقد مخلصا ان مثل هذا القول لا يمكن ان يرد على فكر الرئيس السادات ولا على لسانه ، لان الرئيس السادات اول العارفين بالحقائق سواء في عهد جمال عبد الناصر او في عهده ٠

واسمح لنفسي ان اذكر بعض الحقائق عن عهد جمال عبد الناصر :

● ان جمال عبد الناصر عرض علي المنصب الوزاري عدة مرات من سنة ١٩٥٦ في اول وزارة الفها ، حتى سنة ١٩٧٠ حينما اعلن قرار تعييني وزيرا للارشاد القومي بالاذاعة دون ان يخطرني بذلك مسبقا ٠ ومع اني اعتذرت حتى بعد صدور مرسوم التعيين واذاعته ، فقد اصر جمال عبد الناصر على وجهة نظره ، وكان الرئيس انور السادات نفسه اول المشتركين في اقناعي بقبول المنصب ، بل انه تجشم بنفسه يومها عناء القدوم الى بيتي في قرية برقاش وقضى معي عدة ساعات ـ تاركا ضيوفا عليه في بيته يوم شم النسيم من سنة ١٩٧٠ ـ لكي يقنعني ، على اساس ان المرحلة (اشتداد حرب الاستنزاف مع جهد سياسي دولي مكثف) تقتضي ان اتولى مسئولية وزارة الارشاد ٠

ولم يكن امامي غير القبول ، وتحملت المسئولية فعلا في تلك الظروف الدقيقة. بل ان جمال عبد الناصر اضاف الي بعد ذلك اعمال وزير الخارجية في غياب وزيرها الاصلي السيد محمود رياض في رحلة الى البلقان ٠

وما اظن ان جمال عبد الناصر ـ والرئيس السادات معه ـ كان في وسعهما السماح الا لوطني موثوق فيه بهذه المهمة في تلك الظروف ٠

● ان جمال عبد الناصر ـ وهذه حقيقة ذائعة ـ ائتمنني على فكره الاجتماعي والسياسي ٠ واكثر من ذلك تشهد وثائق رئاسة الجمهورية ووزارة الخارجية بانني توليت صياغة معظم مراسلاته مع كل رؤساء الدول في عصره ٠

وما كان يمكن لهذه الامانة الا ان يحملها وطني موثوق فيه ٠

● ان جمال عبد الناصر عهد الي بمهام سياسية عديدة رأى ان صلاتي الدولية كصحفي يمكن ان تساعد على انجاحها ، ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر انني قمت بالتعاون مع المستر جورج براون وزير الخارجية البريطانية بالتمهيد لعودة العلاقات بين مصر وبريطانيا سنة ١٩٦٧ ٠

● ان جمال عبد الناصر اختارني رفيقا في اخطر رحلتين سريتين قام بهما ،

وهما رحلته السرية الى موسكو في يوليو سنة ١٩٥٨ في اعقاب ثورة العراق . وقد حضرت فيها عشر ساعات من المحادثات المتصلة بينه وبين خروشوف . ثم رحلته السرية الى موسكو ايضا في يناير ١٩٧٠ ، وكان هدفها بناء حائط الصواريخ على قناة السويس وتامين وسائل الدفاع عن عمق الجمهورية ، وقد حضرت فيها اجتماعاته مع كل القيادات السياسية السوفياتية ومجموعة من ماريشالات الاتحاد السوفيتي ٠

وما كان لمثل هذا الثقة في هذه المهام الخطيرة الا ان تكون لوطني موثوق فيه ٠

● ان جمال عبد الناصر عرف منظمة فتح عن طريقي ، وكنت انا الذي توليت تقديم قادتها اليه ، وظللت طوال عهده صلة الوصل بين السلطة العليا في مصر وقيادة الثورة الفلسطينية ٠

وبمقتضى ذلك كله ـ وغيره كثير ـ فلقد كنت طرفا في حوار مستمر مع جمال عبد الناصر قام على الثقة وما كان ليقوم على غيرها حتى يوم رحيله حين كنت واحدا من الذين عاشوا الى جوار فراشه ذلك المشهد الحزين للرحيل !

واستاذن بعد ذلك في الانتقال الى عهد الرئيس انور السادات ، واعتقد ان سجل خدمتي العامة تحت قيادته شهادة اعتز بها من يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ الى اول فبراير ١٩٧٤ حين تركت عملي في الاهرام ، بل اظن ان هذا السجل يمتد ايضا بعد هذه الفترة :

● لقد وقفت ـ فيما اظن ـ الى جانب الرئيس انور السادات من اجل انتقال سلمي ومامون للسلطة بعد جمال عبد الناصر ، وحين جاء اليكسي كوسيجين رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي الى مصر بعد رحيل عبد الناصر ، وطلب ان يجتمع بالقيادات الوطنية ، فقد كنت احد الذين تفضل الرئيس انور السادات ودعاهم الى الاجتماع مع رئيس وزراء الاتحاد السوفيتي ٠

● قدمت استقالتي من وزارة الارشاد الى الرئيس السادات بتاريخ ٣ اكتوبر ـ غداة تشييع جمال عبد الناصر الى مثواه الاخير ، وحاول الرئيس السادات ـ كرما منه وحسن ظن ـ ان يثنيني عن الاستقالة ، واتذكر انني قلت له خلال حديث دار بيننا مساء اليوم نفسه في قصر العروبة الذي كان ينزل فيه وقتها :

ـ انني ارى صراعا كبيرا في الافق ، وهذا الصراع شقان : صراع قوة

وصراع افكار ـ فاما صراعات القوة فانا لا احسنها لانني عزوف عن المناصب التي هي هدف صراعات القوة ـ واما صراعات الفكر فانا جاهز لها ولكـــن مكني فيها ليس منصب الوزارة ولكن مكتب الصحفي .

وتفضل الرئيس السادات ـ بعد مناقشة استمرت حتى الثانية صباحا ـ فاذن بقبول استقالتي على ان يؤجل موعد اعلانها الى ما بعد نتيجة الاستفتاء علـى رئاسته ، واكثر من ذلك عهد الي بالاشراف على حملة الاستفتاء لرئاسته . واعتبرت ذلك تشريفا لي ·

ثم كان ان اذن الرئيس السادات بنشر خطاب استقالتي لكي اتفرغ للكتابة . وبالذات عن عهد عبد الناصر ، ثم اذن ايضا بنشر رده على خطاب الاستقالة . وكان ردا كريما حافلا بمشاعر نبيلة ·

● عندما اراد الرئيس السادات تكليف الدكتور محمود فوزي بتشكيـــل اول وزارة في عهده فقد اختارني رسولا الى الدكتور محمود فوزي افاتحـــه واتولى اقناعه ، لان الدكتور فوزي كان قبلها بايام قد قدم استقالته من عضوية اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي العربي ··· واعتز بانني نجحت فيما كلفت به ·

● كنت بعد ذلك واحدا من الذين وقفوا بحزم في صف الرئيس السادات ضد مراكز القوى ، وتفضل الرئيس السادات فذكر اسمي اكثر من مرة في خطابـه الرسمي الذي القاه بعد سقوط مراكز القوى ، بل ان الرئيس السادات سالنـي ايلتها في مكتبه بقصر القبة امام عدد من القيادات السياسية وقتها عما اذا كنت مستعدا لتولي وزارة الارشاد القومي مرة اخرى ، ورجوته امام الجميع ان ياذن لي بالبقاء الى جانبه بالقلم وحده ·

● وطوال اكثر من ثلاث سنوات فاني اظن ان الرئيس السادات عهد الـي بنفس الامانة التي عهد بها الي جمال عبد الناصر قبله ، وهي امانة فكره بـل وامانة سره من خلال مهام اديتها بتوجيه منه ، اذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ـ مهمة التمهيد لعودة العلاقات بين مصر والمانيا الاتحادية عن طريـق مقابلات اجريتها في بون مع ويلي براندت مستشار المانيا الغربية ووالتر شيل وزير خارجيتها وقتها ورئيس الجمهورية الآن ·

● وربما كان اكثر ما يدعوني الى الفخر والاعتـــزاز ان الرئيس السادات ائتمنني على السر الكبير لحرب اكتوبر ، واظنني ـ بغير ادعاء ـ توليت اعداد بعض من اهم واخطر وثائق هذه المعركة العظيمة · اقول هذا ولا استطرد الى

اي تفصيل بعده ·

● لكنه من سوء الحظ انني بعد حرب اكتوبر ، وفي فترة محادثات فض الاشتباك ، ابديت من الآراء كتابة ما وجد الرئيس السادات انه خطأ . واشهد انه حاول اقناعي بعكسه ، وكان علي ان اقبل راضيا قراره بتركي للاهرام . واشهد انه قبل هذا القرار خيرني - متفضلا وكريما - بين دخول الوزارة او العمل في ديوان رئاسة الجمهورية ، ورجوته في قبول اعتذاري ، ومع ذلك فانه - مبالغة في فضل وكرم - اراد ابقاء الباب مفتوحا بعد خروجي من الاهرام فأصدر توجيهه بتعييني مستشارا صحفيا له ، ورجوته ملحا في اعفائي لكي اتفرغ للكتابة ·

واحزنني في تلك الفترة ان الظروف باعدت بيننا لعدة اشهر ·

● ثم اسعدتني الظروف بعد ذلك بالعودة الى قرب الرئيس السادات لفترة استمرت ما بين نهاية سنة ١٩٧٤ الى صيف سنة ١٩٧٥ ، وفي هذه الفترة عدت مؤتمنا على فكره ، ولعلي اقول انني كنت اول انسان في مصر ائتمنه الرئيس السادات على قراره باعادة فتح قناة السويس بعد فشل محادثات كيسنجر في اسوان في مارس ١٩٧٥ ·

وفي هذه الفترة عرض علي الرئيس السادات عدة مناصب ، بينها : منصب نائب رئيس الوزراء للاعلام - ومنصب مدير مكتب رئيس الجمهورية ·

وبكل العرفان بالفضل لصاحب الفضل فانني رجوت الرئيس في اعفائي لاتفرغ للكتابة ، مع سعادتي الغامرة اذ اذن لي ان اكون في خدمته في « مكان ومكانة الصديق » ، وهذا هو نص ما طلبت ·

● وحدث بعد ذلك ان ابدى الرئيس السادات عدم رضاه عن بعض ما نشرته في كتابي « الطريق الى رمضان » ، مع اني اعتقد - ويعتقد معي معظم النقاد في العالم - ان هذا الكتاب من خير ما كتب من وجهة النظر العربية عن حرب اكتوبر - وهكذا ساءت الامور دون قصد مني ، بل على العكس كل مقاصدي ، ومهما يكن من امر الصواب والخطأ - اجتهادا بالرأي في خدمة القضية الوطنية - فانهما شيء والعمالة لامريكا او لغيرها شيء آخر !

□

ذلك كله معروف مشهور ، ومع ذلك فان زوابع الخماسين لا يحكمها عقل او قانون ··· هوائية هي وقلب، ولا تستطيع ان تحمل الا اكواما من التراب والرمال ·

وهكذا انتقلنا من تحريف ما ينسب تأويلا الى الرئيس انور السادات ـ الى العوده لقصة ملفقة من اولها الى اخرها نشرتها مجلة لبنانية يعرف الناس كلهم في العالم العربي حكايتها ، ويذكرون انني قلت مرة انني لا ارضى لنفسي ان اكون طرفا في خصومة معها ٠

والقصة الملفقة تقول انني كتبت حينما كنت مراسلا حربيا في كوريا مقالات لجريدتي « الواشنطن بوست » و « النيويورك تيمس » ، وانني اخذت اجرا عن هذه المقالات مقداره مائة الف دولار ، ولم يكن هذا الاجر في الواقع الا مجرد غطاء ظاهري للجهة الحقيقية التي دفعت المبلغ للصحيفتين لكي تدفعاه لي ، وهذه الجهة هي وكالة المخابرات المركزية الامريكية ٠

ثم تمضي القصة بعد ذلك الى ان نكيتا خروشوف واجهني بهذه الواقعة ـ!ـ ذات مرة في موسكو ،ثم طلب الي ان اغادر موسكو فورا ، فغادرتها في اليوم التالي ، ثم اوردت المجلة حوارا ادعت انه دار بالنص بين خروشوف وبيني ٠

ولقد يؤذن لي ان ابدي الملاحظات التالية في الشكل :

١ ـ حينما نشرت هذه القصة الملفقة لاول مرة ، نسبت الى كتاب المستر « مايلز كوبلاند » بعنوان « لعبة الامم » ، والحقيقة ان مثل هذه الرواية لم ترد على الاطلاق في كتاب « لعبة الامم » ، مع ان كاتبه باعترافه هو نفسه موظف في وكالة المخابرات المركزية الامريكية ٠

٢ ـ هكذا تبقى القصة منسوبة الى المجلة اللبنانية ، والتساؤل البديهي الاول هو : اذا كان هذا الحوار قد دار ـ وهو لم يدر اطلاقا ـ بين خروشوف وبيني ، فكيف عرفت به مجلة لبنانية لا اسمح لنفسي باية اوصاف لسياساتها او لاتجاهاتها ؟!

هذه ملاحظات عن الشكل ، وتبقى ملاحظات في الموضوع :

١ ـ لم اكتب في فترة عملي كمراسل حربي في كوريا اية مقالات للواشنطن بوست او للنيويورك تيمس ٠

ولقد كتبت في السبعينات ـ اي بعد ربع قرن من حرب كوريا ـ مقالين للنيويورك تيمس ، وكان اجري عن المقال الواحد مائة وخمسين دولارا ، اي ما يوازي ثمانين جنيها وقتها ، وقد حول اجر المقالين الى القاهرة على حسابي في البنك الاهلي ٠

واما الواشنطن بوست فلم اكتب لها مطلقا في حياتي . ولم يجر اي تعامل مالي بيني وبينها .

ولعلي اضيف ان الجريدتين الكبيرتين « الواشنطن بوست » و « نيويورك تيمس » هما اللتان قادتا الحملة ضد وكالة المخابرات المركزية الامريكية اخيرا ، وانني فيهما لم تكونا في اي وقت من الاوقات غطاء لها .

٢ ـ من الغريب ان علاقتي بنكيتا خروشوف زعيم الاتحاد السوفيتي السابق والذي تنصب اليه هذه الواقعة ـ كانت من اقوى العلاقات التي تربط ما بين صحفي اجنبي وزعيم لقوة كبرى .

واظن ان خروشوف في فترة زعامته للاتحاد السوفيتي لم يدل بحديث لاي صحفي عربي غيري .

ثم حدث ان قامت صلة صداقة بين زوج ابنته « اليكس ادجوبي » رئيس تحرير « ازفستيا » وبيني ، لدرجة انني فيما اظن كنت اعتبر صديقا للاسرة ضمن رابطة الصداقات التي تربط عددا من الصحفيين في العالم .

ويذكر الناس جميعا ان « خروشوف » دعاني الى موسكو في مايو سنة ١٩٦٤ لكي انزل ضيفا عليه في بيته في « بالتا » . ثم لكي اصحبه بعد ذلك اربعة ايام في رحلة بحرية من « يالتا» الى « الاسكندرية » التي قصدها لبدء زيارته الرسمية لمصر في مناسبة الاحتفال باتمام المرحلة الاولى من السد العالي . وكان « خروشوف » يريد ان يسال لي قضايا كثيرة عن مصر والعالم العربي وامورهما ويريد ان يستوضح ما يريد في ذلك بطريق غير رسمي قبل ان يضع قدمه لاول مرة على التراب العربي .

هكذا كانت دعوته لي بعد اكثر من عشر لقاءات بيننا قبل ذلك .

وقبلت الدعوة . ورحب جمال عبد الناصر بالفرصة . بل وزودني برؤوس الموضوعات التي يريدني ان امهد لها مع « خروشوف » قبل بدء المحادثات في شانها اثناء الزيارة الرسمية .

وانني شكلا وموضوعا تسقط القصة الملفقة ، ولا تجد اساسا تقف عليه .

□

هل سكتت زوبعة الخماسين ... وترابها ورمالها ؟

لم تمكت ولا هدات ولا كفت عن تقلباتها البلهاء ٠

وقيل ــ ضمن ما قيل ــ انني واحد من الحاقدين ٠ ولست اعرف ــ حقيقة ــ لماذا يمكن ان احقد على احد او على شيء ؟

● هل اريد سلطة ؟

لقد كانت المناصب امامي لو انني اردت ــ اقولها بحياء حقيقي ــ ولكنـــي مضطر لقولها . ولقد اسلفت انه حتى شهر ابريل سنة ١٩٧٥ كان امامي منصب نائب رئيس الوزراء للاعلام ــ ثم منصب مدير مكتب رئيس الجمهورية ٠

ولم اعتذر تيها وتكبرا ، ولكن عن ايمان بان قلبي في مكان آخر ٠

● هل اريد العودة للاهرام ؟

لقد كان في وسعي ان اظل في مكاني لو انني نسيت ما كنت مقتنعا به ــ خطأ او صوابا ــ وقبلت غيره ، ولكني لم افعل ٠

واذن فان خروجي من الاهرام كان احتمالا تحسبته وعيناي مفتوحتان ، ومن الانصاف لغيري ان اقول انني لم اوخذ غيلة او غدرا ، وانما جاءني التحذيـــر المرة تلو المرة رقيقا ورفيقا ٠
ولقد اسمح لنفسي ان اضيف ــ وهذه حقيقة يعرفها كل الذين تشرفت بالعمل معهم في الاهرام ــ انه كان في نيتي عند بلوغ سن الخمسين ان اتخلى عـن كل عمل اداري وتنفيذي ، بما في ذلك رئاسة التحرير لكي اتفرغ للكتابة ، ومن حسن الحظ ان الظروف سبقتني الى ما كنت احاول فرضه على نفسي ٠

وفوق ذلك فاني اعتقد انني اديت دوري في خدمة مهنتي بقصارى ما اتيـح لي من طاقة ، وتكفيني خدمة الاهرام ثمانـي عشرة سنة اظنها كانت فترة لهـا مكان خاص في تاريخه الطويل ، وما اظن احدا مهما فعل يستطيع ان ينـــزع الشواهد الحية لهذه الفترة ٠

ومن الحق ان اقول انني انظر الى اوضاع الصحافة المصرية كما هي الآن واحمد الله كل صباح انني بعيد ، ومن العدل ان اقول ايضا انه لا بد ان هنـاك آخرين يشعرون بنفس شعوري ولكن في اتجاه عكسي ، اي انهم يحمدون الله انني بعيد . وهذا حقهم لا اجادلهم فيه ، فلقد كان بينهم من تصور ان دوري طال باكثر مما كان ينبغي ، وان دورهم قد آن اوانه ٠ ومع اني اعتقد انه ليس فـي مقدور احد ان يحجب غيره ، فاني اقولببساطة : ليكن ٠٠٠ تفضلوا وها هــو

المجال فسيحا لمن يشاء كما يشاء !

● هل انا باحث عن فرصة لا اجدها ؟

الحق انه ليس لي ان اشكو ـ فضلا عن ان احقد ـ فلدي والحمد لله من العمل ما ادعو الله ان يمكنني من القيام به . فما بين كتبي ومقالاتي لا اجد فراغا اضيعه في العتب على الناس او على الزمان ·

وليس عندي ما يدعوني الى العتب . فان احدا لم يمنعني من الكتابة خارج مصر . وقلتها وكتبتها اكثر من مرة ـ واكتبها واقولها الآن ـ انها شهادة لانور السادات انني ابدي ما ابدي من آراء واكتب ما اكتب من اجتهادات تختلف احيانا مع الخط الرسمي . ومع ذلك فانني اعيش في مصر تحت سلطته الكاملة وفي امان دولته . وهذه شهادة حضارية لمصر وله شخصيا ·

ومن حسن الحظ ان عملي يعطيني ما يغنيني عن سؤال احد . وهذا هو الغنى الحقيقي ··· ولا اكثر !

ثم انه يريحني الى ابعد حد ان ما يعطيه عملي لي لا يقوم على استغلال احد . وانما هو نتاج عمل بعيد عن اي محظور فيما اعتنقه من فكر اجتماعي ·

ان هناك محظورا واحدا في الاشتراكية وهو استغلال الانسان للانسان ··· والعمل الفكري بطبيعة مبرأ من هذا الاستغلال ·

واذن فاي سبب لدي للحقد على شيء او على احد ؟!

□

هل سكتت زوبعة الخماسين او هدأت ؟

لا سكتت ولا هدأت ·

قيل انني شيوعي . وانني كنت عميلا للاتحاد السوفيتي !

ونسي القائلون ان خلافي مع الشيوعية قديم وطويل . ولكني لا اسمح لنفسي بالدخول في حرب صليبية ضد الشيوعية او ضد الشيوعيين ·

فلقد تعلمت ان احترم عقائد الآخرين . وان تكون خلافاتي معهم بالحوار والمناقشة . وليس باي اسلوب آخر ·

ريبدو انني موعود بالمشاكل والمتاعب ·

فلقد شاءت لي المقادير ان اتصدى للاتحاد السوفيتي في ذروة نفوذه في مصر بعد رحيل جمال عبد الناصر ·

ثم شاءت لي المقادير ان اتصدى للسياسة الامريكية في بداية هجمتها الاخيرة من اجل العودة الى النفوذ في المنطقة ·

وفي وقت من الاوقات طلب « نيكولاي بادجورني » رئيس الدولة في الاتحاد السوفيتي اخراجي من الاهرام ···· وكان الذي ابلغني بذلك هو الرئيس انور السادات شخصيا ·

وفي وقت من الاوقات طلب الدكتور « هنري كيسنجر » اخراجي من الاهرام ، وقد وردت هذه القصة في مصدرين هما كتاب ادوارد شيهان المشهور عن « مفاوضات كيسنجر في الشرق الاوسط » ، وفي دراسة الاستاذ « برلموتر » عن « ادارة هنري كيسنجر لازمة الشرق الاوسط » في عدد مجلة السياسة الخارجية الصادر في شهر سبتمبر ١٩٧٥ ·

هل سكتت زوبعة الخماسين او هدأت ؟

لم تسكت ··· ولا هدأت ··· ولا كفت عن تقلباتها البلهاء ·

وقيل – ولن يكون آخر ما يقال – ان الناشرين الذين اتعامل معهم هم في الواقع غطاء لليبيا وللعقيد القذافي ·

والدعوى وراء ذلك ان ما يدفع الي كثير ، وان ما اكتبه لا يساوي . وانن ففي الامر خدعة !

ولعلي ان استأذن في ابداء الملاحظات التالية :

١ – ان لي في العالم العربي ناشرا واحدا وهو « دار الصياد » ، وقد بدأ تعاملي معها – وعلى نفس الاسس والشروط – من قبل ان يسمع احد بالعقيد القذافي او بليبيا الثورة ·

٢ – انني تعاملت في العالم الخارجي مع اثنين من الناشرين لا ثالث لهما ، وهما دار « الصنداي تلجراف » في لندن ، ودار « الصنداي تيمس » في لندن ايضا . وكلاهما اكبر من ان يكون غطاء لاحد ، ثم ان كلاهما من اكثر دور النشر عداء للعقيد القذافي ولليبيا الثورة ·

٣ ـ ان ما اكتبه ـ وهو لا يساوي طبقا لآراء القائلين في القاهرة ـ يترجم الى معظم لغات العالم ، وبالتحديد الى خمس وعشرين لغة ٠

وربما سمحت لنفسي ـ دون تواضع او استعلاء ـ ان اقول ان الصنداي تلجراف نشرت ثماني حلقات مسلسلة على مدى شهرين من كتابي « وثائق القاهرة » ، وهي سابقة لم تحدث في الصحافة البريطانية كلها الا في مذكرات « ونستون تشرشل » عن الحرب العالمية الثانية ٠

٤ ـ ان حصيلة ما اكتبه في الخارج يجري تحويلها بمقتضى عقودي الرسمية مع الناشرين الى مصر ، لانني لا اعرف لنفسي وطنا غيرها ، ولا حياة بعيدة عنها ، ولا قبرا في غير ترابها ، وذلك قلته اكثر من مرة والوله ٠

٥ ـ ان الدولة المصرية بكل اجهزتها تعرف يقينا انني منذ تركت عملي في الاهرام لم ازر ليبيا ، ولم اتصل بأحد فيها ، ولكني ببساطة ارفض ان اكون واحدا من الشتامين الذين يرمون نظاما من الانظمة بالعمالة يوما ، ثم يضعونه على قمة الوطنية في اليوم التالي ٠٠٠ اعني انني لست مهتما بالمناورات في العالم العربي ، وانما انا واحد من المهتمين بسياساته واستراتيجياته ٠

وببساطة اكثر فاني لا اريد ـ ولا يرضى لي احد ـ ان اكون ريحا في زوبعة خماسين هوائية وقلب لا تستطيع ان تحمل غير اكوام من التراب والرمال !

□

ماذا بقي ؟

وماذا اقول ؟

هل اقول اننا يجب ان نغير قواعد تعاملنا مع الآراء والاجتهادات ؟

هل اقول اننا يجب ان نتعلم مناقشة آراء الناس دون ان نتجاوز ذلك الى تجريح اشخاصهم ؟

ولكن ما فائدة مثل هذا القول ؟ وما جدواه ؟

اننا نستطيع ان نطبق ما نرتضيه من القواعد على انفسنا ، ولكننا لا نستطيع ان نفرضه على الآخرين ؟

ومع ذلك : فانني افضل ان اكون واحدا من القادرين على تحمل كل الاكاذيب، على أن اكون واحدا من العاجزين عن تحمل بعض الحقائق !!

محمد حسنين هيكل